

دعوة الحق
• شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
• تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية . الرباط . المغرب
العدد 3
السنة 23

تحل في شهر يوليوز القادم الذكرى 25 لصدور مجلة



احتفاء بالعيد الفضي للمجلة، نصدر عدداً خاصاً
عن

دور المجلة في الحياة الفكرية المغربية



تهيب بالسادة الأساتذة الكتاب المساهمة في
هذا العدد

بيانات إدارية :



شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط - المملكة المغربية

• تبعث المقالات الى العنوان التالي،
مجلة «دعــوة الحــق»
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الرباط - المغرب: الهاتف، 03 - 627 و 04 - 627

• الاشتراك العادي عن سنة 55 درهماً للداخل، و 67 درهماً للخارج. والشرفي 100 درهم فأكثر.

• السنة 8 أعداد. لايقبل الإشتراك الا عن سنة كاملة.

• تدفع قيمة الإشتراك في حساب،
مجلة « دعوة الحق » رقم الحساب البريدي 485.55 الرباط.

Daouat El Hak compte chèque postal 485 · 55 à Rabat

أو تبعث رأساً في حوالة بالعنوان أعلاه.

• لاتلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر •

العدد 3
السنة 23

رجب 1402
مـاي 1982

هذا العدد

** مسؤولية الاعلام الاسلامي، توجيها وتوعية وتعميما، تتخذ في عصرنا الحاضر عدة وجوه وتنصرف الى عدة سبل ومسالك، وأول تلك الوجوه وهذه السبل والمسالك ان اعادة صياغة وجدان المسلم المعاصر مهمة صعبة وشاقة وعسيرة وطويلة أيضا.

* والكلمة، وهي احدى ادوات هذه المهمة، هي بالتأكيد تقف وقفة الشموخ والكبرياء والسطوع في طليعة الدعوة والتمهيد للاضطلاع بتلك المهمة الاعلامية والروحية والفكرية الجسيمة.

ولكن، الى جانب ما تشكله الكلمة من سلاح ماض في موكب الدعوة الى نقاء الاسلام وصفائه وصدق منهجه واستقامة مقصده، هناك أيضا ما يطوق هذه الكلمة نفسها من امانة اعمق ورسالة اقوم، الا وهي الاصرار على الاستمرار، والتصميم على البقاء في غمرة المعركة - معركة المواجهة ضد الزيف والتحريف والتضليل والمغالطة -، والثبات على مبدأ استخدام الكلمة المؤمنة والشريفة في موضع يمد الانسان بالقوة الروحية من أجل الانتصار على تفاهة وزيف وسفاسف الحياة المادية.

ومن ذلك الموضع، بل ومن صميمه، كان انطلاق صوت « دعوة الحق » ودويها في آفاق اوسع وارحب واشمل، اوسع في المعنى، وارحب في المكان، واشمل في المفهـوم.

* وها هي ذي « دعوة الحق » تتأهب باذن الله وقوته لتسلخ - بعد شهرين من هذا العدد - خمسا وعشرين سنة من عمرها المديد بمشيئة الله ... قضتها في منبر الدفاع عن قيم الاسلام، ومقومات الامة، وشرف المواطن المغربي، وحرية الكلمة، وسيادة العقيدة، ... ... يعززها الايمان الوثيق بان معركة الكلمة ليست اقل شرفا ونبلا وقداسة من معركة السلاح ومعركة البناء في وطن يبني للحاضر والمستقبل كما بنى للماضي على نفس الطريق وعلى نفس السبيل ..

** لقد أثبتت « دعوة الحق » - وهذا من فضل الله - ان الاعلام الاسلامي في عصرنا امامه أكثر من باب للنجاح والفوز، ونحن نرجو أن تكون « دعوة الحق » قدوة ونموذجا ومثالا على هذا النجاح.

رئيس التحرير

الثمن : 5 دراهم

بسم الله الرحمن الرحيم

الشؤون

●● كانت السياسة الاستعمارية في البلاد العربية والاسلامية ترمي في مقدمة ما ترمي اليه ، الى فصل الدين عن الدولة في محاولة ماكرة لنقل النموذج الاوروبي الى أوطاننا . وقد قامت حركات التحرير الاسلامية ، سوآء في شقها العسكري والجهادي والمادي ، أو في مجالها الفكري والاصلاحي والمعنوي ، على أساس ابطال النظرية الاستعمارية وافساد الخطة الصليبية واحباط العمل التخريبي ، الذي اكتسح بلادنا .

واذا كانت تجربة الدولة العصرية في اواخر القرن التاسع عشر التي قامت في الشرق العربي ، قد وقعت فريسة هذا المخطط الذي يفصل بين الدين والدولة ، فان جهود العلماء والمفكرين والمصلحين ورجال الصحافة والكفاح الوطني انصرفت منذ وقت مبكر الى قطع الطريق على ما عرف آنذاك بالدولة العلمانية التي أريد لها ان تقوم على أساس المقولة الخاطئة (الدين لله والوطن للجميع) باعتبار ان الدين والوطن والانسان لله أولا وأخيرا ، وفي البدء والانتهاء ، وأن التصور الاسلامي يقضي بتلازم عنصري الحياة وامتزاج الاسباب المؤدية الى اسعاد الانسان وازدهاره ورفاهيته وتقدمه .

● لقد خاض الرواد الاوائل من أبناء امتنا في المشرق والمغرب جهادا شاقا من اجل اقرار المفاهيم الاسلامية في الحكم والسياسة ، وفي الثقافة والفكر ، وفي التربية والتعليم ، وفي التوعية والاعلام ، وفي التجارة والاقتصاد ، وفي الفلاحة والصناعة ، وفي كل منحى من مناحي الحياة ، وفي كل مرفق من مرافقها .

ومن قبيل المغالطة القول أن عصر الدولة الدينية قد ولى بلا رجعة ، ذلك أن مصطلح (الدولة الدينية) في أساسه وجوهره دخيل على الفكر الاسلامي . وهذا ما يحملنا على القول أن (دولة دينية) بهذا المفهوم المنحرف أمر مبتدع في ديننا . ولم تعرف الحضارة الاسلامية (دولة دينية) او (دولا دينية)لسبب بسيط غير معقد ، وهو أن الدولة في الاسلام هي دولة الاسلام ، وكفى ، وليست (دولة دينية)

افتتاحية



تتطلب في المقابل وجود (دولة دنيوية) . باعتبار شمولية الاسلام وواقعيته التي لا تعرف هذا الاغراق في الميتافيزيقيات والانغماس الى الاذقان في الغيبيات التي لا يقرها دين الله .

●● وأن لنا في الرسالة الملكية الى الامة الاسلامية بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري ما يشفي الغليل ويثلج الصدر ويطمئن النفس ، ويقطع دابر كل باطل ويدحض كل دعوى مغرضة . فلقد أوضحت الرسالة السامية الحقائق المتصلة برسالة الاسلام على نحو قاطع وحاسم .

ان التسليم بصلاحية الاسلام للحكم والادارة والتسيير وتدبير شؤون الافراد والجماعات والامم والشعوب والدول ، يجعلنا في موقع قوة ، ويحملنا على رفض كل ادعاء علماني ، وتفنيد كل زعم يفترى على الله الكذب .

والواقع أن الدولة الاسلامية التي هي غير الدولة الدينية حسب مدلول المصطلح الاوروبي الشائع تقتضي أن تصطبغ كل جهة حكومية بالصبغة الاسلامية وتتحمل قسطا من المسؤولية المقدسة التي يلزمها بها دستور البلاد باعتباره القانون الاسمى المستمد أساسا من الدين الاسلامي . وفي هذه الحالة نعطي (للشؤون الاسلامية) مدلولها الواسع ، أو بالاحرى مفهومها الحقيقي الذي يمتد ليشمل كل أوجه النشاط العام مسايرة لروح القوانين الجاري بها العمل في المغرب والتي تكتسب قداستها وحرمتها من النص الدستوري الذي يقول باسلامية الدولة .

ان كل شأن من شؤون المسلمين هو شأن اسلامي قطعا ، لان هذا ما يقتضيه مدلول الاسلام بحسبانه دين البشرية ومنهج الحياة وخاتم الرسالات . مما يجعل الفصل بين ما هو ديني وما هو غير ديني ضربا من العبث الذي يتنزه عنه العقلاء . بل ان تعبير (غير ديني) دخيل على وجودنا الفكري والحضاري . ولقد آن الاوان لتتحرر العقلية الاسلامية من رواسب عهود الاستعمار . وان النداء الخالص الذي وجهه جلالة الملك الى عقلاء هذه الامة واولي الامر فيها وناشدهم فيه العودة الى مصادر التشريع الاسلامي باقامة موازين القسط وتنفيذ حكم الله ، يتضمن المعنى الكبير الذي يدور حوله هذا القول ، ونعني به العمل على التحرر من مخلفات الفكر الوافد والغزو العقائدي ●●

عبد القادر الإدريسي

سلبُ المقوّمات الدّينية لإفريقية ليس سبيلاً أقوم

للأستاذ محمد الخطيب

كنت احاول دوما مجانبة الكتابة والخوض في موضوع لا استانس من نفسي اي استعداد للكتابة حوله او الخوض فيه ، وذلك لاسباب كثيرة وعوامل متعددة برغم تقديري لخطورة الموضوع والاقتناع التام بتأثيره المباشر وغير المباشر على نفس القضية المغربية سواء على اعتبار المغرب جزءا من القارة الافريقية او بما له من المشاكل فيها نظرا لذلك الانتماء .

وتناولي اليوم هذا الموضوع لمحاولة الكتابة فيه وملامسة بعض جوانبه فقط ، فذلك للدور الذي تلعبه القارة على مسرح الاحداث الدولية ، وارتباط حاضرها بماضيها ومستقبلها .

فقد اصبحت افريقية تكون حجر الزاوية بالنسبة للعلاقات الدولية ، خاصة على الصعيد السياسي الذي هو القصد مما نشاهده من احتكاكات بين الشرق والغرب وما تمر به من اوضاع تميل جانبا لمالاة طرف معين ، وتميل مرة اخرى لاتخاذ مواقف لصالح الجانب الآخر .

واعتقد ان الامر كان ممكنا ان يكون غير ذلك لو ان وحدة القارة وموجبات تلك الوحدة كانت تفرض وجودها وتجعل اعتبارات ذلك الوجود في حسابات الحالة الراهنة وحالتها الحاضرة .

اذ لا يكفي النظر فقط للوضع الجغرافي ، بل يفرض واقعا ووجودا حضاريا وتاريخيا لاتمام الانسجام بين الطرفين فى معادلة الواقع .

فالقارة الافريقية تخوض بالنسبة لتحديد مستقبلها معركة وجودية تجعلها موضوع المنافسة بين عملاقي الساعة اللذين يسعيان للاستئثار بها كموقع جغرافي لتقرير المصير (الاستراتيجي) تحسبا لبسط النفوذ وتحقيق الهيمنة .

وهذه ظاهرة ليست جديدة على اعتبار ما نشاهده من نزاع بين الطرفين تأكيدا للمصلحة المذهبية ، بل هي قديمة ترجع الى القرن الماضي وما قبله منذ بدات الانطلاقة التوسعية للبحث عن تقوية النفوذ الاستعماري وضمان موارد الرزق بالسطو على مقررات الحياة واستكمال وسائل الوصول لذلك .

كانت القارة الافريقية قبل نهاية الحرب العالمية الثانية تخضع كلها لذلك الاعتبار او لجملة تلك الاعتبارات التي تناوبت عليها دول ما قبل ذلك . واذا كان هذا الوضع قد تغير واصبحت بعد 1946 تكافح جميع الدول الافريقية لتحقيق استقلالها ، فان مؤثرات محاولة السطو ، وما طرأ من ظروف بعد الحرب العالمية الثانية ، لم تغير في شيء حقيقة

النظرة الى القارة وموجبات الانتفاع بها ، برغم تبدل النظام وتحول أساليب السطو .

نقول هذا على اعتبار المؤثرات القارية من جهة ، ومؤثرات الوضع من جهة اخرى . اذ ان تنافس فرنسا وانجلترا وبلجيكا وايطاليا والمانيا قد خلفه تنافس آخر جديد اضاف الى جميع تلك الاعتبارات اعتبارا آخر هو تقدير الناحية (الاستراتيجية) النابعة عن وضع القارة بالنسبة للكفاح المذهبي.

ان هذه الناحية الجديدة وان اضيفت الى جملة العوامل المؤثرة ، فان وجودها لم يكن بارزا بالشكل الذي يظهر الآن . فقد كانت هناك منافسات دولية ، لكنها كانت تتقمص فقط شكل محاولة السطو للانتفاع المادي . اما الآن فان محاولات ذلك السطو تتقمص ذلك وزادت عليه اعتبار الوجهة (الاديولوجية) وذلك ما اوجد هذه التيارات المذهبية الداخلية . وغدا لها المقام الاول فيما نشاهده من انواع الكفاحات . ووجدت بسبب ذلك هذه النزاعات التي جعلت لاعتبارات العهد الماضي مقاما ثانويا ، وأصبحت ملتقى مختلف التيارات الفكرية الداخلية مع ما يقابلها في الخارج .

وليس معنى هذا ان الجهات المتنازعة فيما بينها قد اغفلت جانب الانتفاع المادي ، لكنها لدعمه تستغل الجانب المذهبي لتفوز بتحقيق الغايتين معا وتدرك بهما ما تسعى له من نفوذ وهيمنة .

هذه حقيقة الكفاح المرير في القارة . واذا كانت الدول الافريقية تعطي الجانب الثاني مقاما أوليا من كفاحها ، ــ وذلك ما يثبته الواقع ــ فانها تدرك انها بذلك تسعى لتكييف الوجهة الاستغلالية تكييفا يتلاءم مع المشارب التي يميل اليها بعض زعمائها وقاداتها .

فالولايات المتحدة لا تعمل لغير ما ترى فيه مصلحتها الخاصة ، وروسيا بما تسعى له من تعميق مذهبيتها لا تريد غير الفوز بماتسعى اليه وتريده من نفوذ . فالتقاؤهما في الجوهر ومحاولات النفوذ بالمصلحة التي يعمل من اجلها كل من الطرفين هو ما يؤكد هذه المضاربة وهذا العنف في المواقف سواء في القارة الافريقية او غيرها من بقاع الدنيا المتنازع حولها بما في ذلك الشرق الاوسط والخليج العربي او ما يتجلى به النزاع بين الطرفين في الهند والباكستان وافغانستان وايران .

وقد يطول هذا النزاع او يقصر ، وقد يحد او يتشعب حسب قوة الطرفين ما يستعمل من الوسائل لذلك . الا انه نزاع قائم تدرك حقيقته كل الدول والشعوب المعنية وفي مقدمتها دول وشعوب القارة الافريقية .

والذي يعنينا هنا ان نتعرض لآثار ذلك النزاع في قارتنا الافريقية والذي برزت فيه وجوه مختلفة وأساليب متعددة ، فأصبحت افريقية مصدرا من مصادر المنافسة والكفاح بين العملاقين ، على اعتبار عدد سكانها وتكوينهم العضوي من جهة ، وموقعها الجغرافي من جهة أخرى .

وان ما نشاهده من قيام نزعات طائفية واختلافات مذهبية مرجعه الوحيد انفصال الدول الافريقية عن مسارها الطبيعي وانقطاعها عن الاستمرار في تقوية وجودها الذاتي وتأثرها بالعوامل والتكوينات الاجنبية .

نجد هذا في الشمال كما نجده يتمكن في الدول الاخرى للقارة مثل انكولا وزئير والشاد ، وفي الصومال والحبشة وغانة وغينية ، وكذلك نجيرية والنيجير وساحل العاج وغيرها من الدول التي هي الآن مسرحا للمنازعات الطائفية والتغييرات المذهبية.

وفي الوقت الذي لا ندعي فيه الاحاطة بجميع المقدرات التاريخية لكل دولة من هذه الدول وتكوينها التاريخي فاننا على يقين من الجهود المبذولة من الطرفين المتنازعين لتعميق الاختلافات السلالية والمذهبية ، وكذا استرجاع الحدود التاريخية . وذلك ارث ثقيل اوجده طغيان المصالح الاجنبية الماضية وورثه النزاع القائم حاضرا بين الدولتين المتنافستين على السيادة ، ومحاولة بسطها . ذلك

امر يلزم ان يكون في الحسبان عند معالجة كل حالة بالنسبة للذين يتعلق الامر بسلوكهم وتصرفاتهم . اذ ان تقييم الذاتية وارتباطاتها بالماضي امر تحتمه المصلحة وتوجيه الظروف . وكل تطور منشود يلزم ان يظل مرتبطا بالماضي البعيد لكونه الرصيد الاسمى في تقدير الحيثيات التي تشد كل جهة الى تكوينها الطبيعي . وهذا الرصيد هو ما تم الاعتداء عليه من طرف الدول الاستعمارية التي اشاعت ما عنى لها اشاعته من كون جميع الدول الافريقية لا تملك ما يربطها بالتاريخ الجامع لها . وليس التاريخ الجامع تشابه في النصيب التكويني وتطابقه هنا مع ما يمكن ان يكون هناك ، اذ ان التاريخ نفسه يرفض ذلك وهو لا يساير التطبيقات التطورية ، اذ ان كل دولة اصابت من اعتبارات التكوين الحضاري رصيدا جعلها تلعب دورها الاساسي في التكوين الخاص .

وهذا الشيء هو الذي لم تقع مراعاته من طرف الدول التي بسطت سيطرتها ، وهو الذي نشاهده الآن بالنسبة لجناحي النزاع القائم . فالدول الاجنبية التي غزت القارة بجحافل قوتها لم تقتصر على عدم اعتبار ما كان موجودا من حدود بين مختلف الكيانات، بل انها دابت على تزوير التاريخ نفسه وشطت في ذلك التزوير خاصة بالنسبة لما كان الاسلام قد سعى له وبشر به بين الناس . وبذلك قضت على الجوانب الحضارية التي كانت كثير من الشعوب الافريقية تتمتع بها . فكان التسلط الاستعماري يشمل التاريخ مثلما شمل ايضا الناحية الجغرافية . فكما تعاني الدول الافريقية الآن من أوضاعها الجغرافية ، تعاني كذلك مما وقع العدوان عليه من الناحية التاريخية . وهذا ما افقد القارة الرؤية الصحيحة لدورها الحضاري واسهاماتها في التكوين الهيكلي . وقد اشار لهذا واكده المؤرخ زربو عندما تناول هذا الموضوع بالبحث في معالجته لتاريخ افريقية ، حيث اثبت الاعتداءات التي وقعت على القارة بالنسبة لدورها الحضاري الذي اسهم الاسلام في ايجاده .

ولعل زربو يعتمد في حكمه هذا الى جانب الواقع الملموس ، على ما اثبته كل من ابن حوقل والمسعودي وابن بطوطة من ان المسلمين كانوا يتعاملون مع القارة الافريقية تعاملهم مع بقية أجزاء العالم الاسلامي حيث أثبتوا بذلك التعامل حقيقة التبشير الحضاري والدور الذي قام به الاسلام في اعطاء القارة تكوينا حضاريا يقوم على اعتبار للمجتمعات والفئات المختلفة من روابط تكمل الواحد منها الاخرى .

والاسلام ليست فيه اية شائبة من شوائب الاكتفاء بالغزو المادي ، وانما هو تبشير ومحاولة لربط كل الاعتمادات المناسبة لخلق المجتمع المتكيف مع المبادىء الصحيحة . فهو قد كان ولا يزال رغبة لخدمة المصالح الانسانية بالمعنى الكامل . وهذا ما ضمن الاقبال العظيم الذي اقبلت به الدول الافريقية على اعتناق الدين الذي جعل لها رصيدا حضاريا متميزا في حياتها .

وان الاستعمار الاجنبي الذي تسلط على القارة خلال القرن الماضي قد جعل هدفه الاول القضاء على ما كان موجودا من ثقافة وما كان للدول الافريقية من رصيد مرجعه تغلغل الفكرة الاسلامية فيها . وبقضائه على ذلك تم له بعد تفكيك الاوصال ما كان يميل اليه والى تثبيت القول به من كون الدول الافريقية ليس لها اي نصيب في التعاون الانساني وليس لها اي دور حضاري قامت به . فقضى على الدين اولا وعلى لغة الدين ثانيا . وجعل الاصالة الانسانية غير موجودة .

وليس في هذا حظ من المبالغة ، ولكنه استشعار بالحقيقة الواقعية . وان القارة الافريقية تعاني ما تمر به الآن في فترة حياتها الحاضرة بنتائج ذلك التغلب لمحو شخصيتها وتفكيك أوصالها في جو من الاضطرابات العقائدية والمذهبية وفي جميع الظواهر الحياتية لها .

فالاسلام قد قام بدور حضاري عظيم في القارة. واذا كانت الميولات السياسية تختلف من جهة لاخرى ، فذلك لا يضر في شيء اذا كان التقدير للمستقبل يساير عامل التاثر الديني الاسلامي الذي اثبت وجوده في حياة القارة منذ زمن طويل . اذ ان معظم سكان القارة قد تاثروا بنزعات حضارية اسلامية سواء

جاءت من شرق القارة او غربها حيث تساوت في ذلك كل الجهود التي بذلت في هذا السبيل ، واشعت اشعاعاتها داخل القارة نفسها .

وهذا ما يحدثنا به التاريخ ويؤكده كل العلماء الذين انكبوا على دراسة الاوضاع التي تلابس حياة القارة منذ عهودها الاولى .

والتمثيل على ذلك فقط نذكر الدور الذي لعبته مدينة تمبكتو في مجالات الازدهار الفكري والمعنوي اثناء القرن الرابع عشر حيث كان مأوى العلماء الذين خلفوا مآثر كبيرة سواء في مادة الفقه او الميدان اللغوي . والفقه واللغة لا يزدهران في غير المناخ المناسب لها وفي الوسط المقبل على اقتناء ذلك .

وكما كانت مدينة تمبكتو مصدرا اصيلا لذلك الاشعاع ، كانت اواسط القارة التي يؤكد التاريخ انها كانت مصدرا آخر اشع نور الفكر الحضاري .

والذين يريدون الاحاطة بما ذكرناه ، عليهم ان يرجعوا للكتابات الكثيرة في هذا الموضوع ، والتي تعتبر حجة لدعم هذا القول الذي ليس فيه اى ارهاص . اذ ان حياة محمد بن عبد الكريم المرخلي وعبد الرحمن السعدي والقاضي محمد كعت تشهد بأمثال على ذلك وعلى مدلولات التأثير الحضاري الفكري في الكيان الافريقي .

ويؤكد الدكتور زبادية في البحث الذي نشره لمجلة « شؤون عربية » حول العلاقات العربية الافريقية عبر التاريخ ، ان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد شاهدا الامتدادات الحضارية داخل القارة الافريقية ، وان تلك الامتدادات قد وصلت الى حوض نهر الكونغو نظرا لكون البلجيكيين انفسهم قد وجدوا حول البحيرات تجارة مزدهرة اسسها العرب وكانت نقطة انطلاقاتهم نحو الداخل .

والذي قرا ما كتبه الوزان وجاء في كتابه : « وصف افريقية » يدرك حقيقة هذا الامر خصوصا عند وصفه المجتمع بتفاصيل تقاليد القارة وما كان بها من مدن واسواق هي من نصيب وعادات الحضارة الاسلامية التي سعى لها المسلمون لنشرها في ربوع القـــارة .

واذا ما حاولنا ذكر القوافل ومرافقة الحجيج لها والزيارة المتعددة التي قام بها اولئك لدمشق وبغداد وبجاية وفاس سوف تجعل هذا البحث المختصر طويلا . الا انها تثبت مفعول التأثير الحضاري في جميع اولئك الذين كان لهم شغف بزيارة المراكز الحضارية الاسلامية الاولى .

على ان ما نقصد ذكره والتأكيد عليه هنا كون الاحتلال الاستعماري والغزو الاجنبي للقارة خلال القرن التاسع عشر قد كان يرمي لسلب سكان القارة جميع المؤهلات التي تجعلهم يستشعرون وجودهم الذاتي . فالاستعمار الى جانب عملهم السلبي المتمثل في محاربة الاسلام ومحاربة كل المعطيات الحضارية، قد مهد لتعميق أثر السيطرة وبسط النفوذ وتفكيك الوحدات الوطنية ، رغبة في استمرار وجودهم . فأورث بذلك التصرف ما تعاني منه القارة وتتكبده لاصلاح حالاتها . وليس أدل على ذلك من تفتيتهم وحدة اللغة التي هي الوسيلة لاستمرار الدين والحضارة التي تمسك اليها وتشد الوجود المعنوي والمادي .

كان ذلك عملا ممقوتا وجد في اوضاع الاسلام المرتبكة سبيلا لتحقيق غاياته الانانية ، ومحاولات الانقضاض على الاسلام وتفسير مذهبيته حسب الاهواء الدخيلة . وبهذا وحده يمكننا ان نفسر ما تتخبط فيه القارة التي تأثرت بعوامل البغي على المعنى الاصيل دون علم منها بأن المردود الوحيد لتلك الخطة هو القضاء على الجانب الحضاري الذي يتاتى مع ما كان الاستعمار يريده ويبغيه .

وليس الجانب الحضاري في الحياة هو المعنى الذي يفسر به ذلك الجانب غير عامة الناس ، بل الحضارة لا تتفق لغير شعوب تزكي بسلوكها وتصرفاتها التطابقات الانسانية التي تشكل الجانب الانساني في الحيـــاة .

فهناك سلوك وتصرفات ، وهناك مواقف لا بد لها ان تكون في معاملة الطوائف والاشخاص مع بعضهم بالخضوع لقانون يضمن تاكيد المعنى التواجدي بين البشر . وذلك هو الاساس الحضاري الذي نتحدث عنه والذي تكفله كل الكفالة تطبيقات الشرع الاسلامي .

وما موقع ما تحدثنا عنه من الارتباك الا بعد تخلف المسلمين عن التطبيقات القانونية التي نظمت علاقات الارض بالسماء كما نظمت علاقات سكان هذا الكوكب مع بعضهم وجعلت منهم أمة واحدة . وذلك ما اجهز عليه الاستعمار واصاب منه ما أراد .

فالتعطيل الحضاري الذي نقصد اليه ، والذي عانت منه كثير من الشعوب ، وفي مقدمتها شعوب القارة الافريقية هو الذي كان ولا يزال خطة ممقوتة في سلوك الاستعمار ازاء الرقعة الواسعة من أراض المسلمين .

وقد اصابت القارة الافريقية من اساليب ذلك التعطيل شيئا كثيرا حتى بالنسبة للامم التي اتخذت الاسلام دينا .

فالتاريخ الحديث يحدثنا بالكثير من مظاهر ومحاولات هذا التعطيل الذي اخطأ الطريق حيث اصبح بعد زوال الضغط الخارجي آئلا الى تضعضع ثم زوال .

فليس الحس الحضاري ما نشاهد عليه بعض الجهات والنواحي من افريقية من تنافس وعلو في البنايات والمنشئات وتشييد المدن الكبرى مثل ابيجان ولاكوس وداكار وغيرها من المدن الكبرى التي تزخر بها قارتنا ، بل هو التطبيق المسلكي في المعاملات كافراد وجماعات . وذلك ما قصدت اليه وحاولت القضاء عليه دول البغي الاستعماري فاوجدت هذا الفراغ الذي اصبح مشاهدا في ارتباطات الناس كلهم واوجد انحرافا عن طريق الحق والحكم بين الافراد وفي المعاملات القائمة على غير هدى وبصيرة .

فالاسلام بمحاولاته التغلغل في المجتمعات الافريقية ، كان يقصد انتشالها من الوهدات ، وتمكينها من نظام يربط بين افرادها وطوائفها في نطاق حسن انساني متكامل يضمن العيش الرغد والسعادة المثلى .

بهذا المعنى وحده يلزم تفسير كل الوسائل التي استعملت من طرف المسلمين لتوسيع رقعة الدين وشموليته .

وذلك ما اجهز عليه الاستعمار فوصل الى فصل بعض الجهات عن الاداة الاولى التي هي اللغة وكتابتها . مبتدأ بابدال الاحرف في الكتابة وجعلها لاتينية حتى يتسنى تعطيل الفهم وتحقيق عدم التذوق الذي هو الوسيلة الاولى والضمانة الاكيدة لنشر الدين كعقيدة وسلوك . فتمكن من زعزعة الاساس الاول والقضاء على الدعامة الكبرى لتحقيق وحدة الدين .

وهو ان حقق بعضا من ذلك بالنسبة لجهات معلومة ، فان الفوز به شموليا قد تعذر خصوصا بالنسبة لبعض الدول المكتملة الكيان .

وعدم تحقيقه بالنسبة لما ذكرناه من الجهات ، هو رصيد الانطلاقة الجديدة للمسلمين خصوصا مصر والمملكة العربية السعودية والمغرب نفسه . اذ ليست رغبة هذه الكيانات الاسلامية العربية ان تفوز ببسط سيطرتها وتحقيق ما تسعى اليه بعض الجهات الاخرى من نفوذ ، بل انه العمل المتواصل لتعميق الوعي الاسلامي من جهة والتمكين للحس الاسلامي بالفوز من جهة أخرى .

اننا لا ننكر ان تبدل الاوضاع السياسة قد اثر فيما يحدث من تحولات ، وان تنازع الشرق والغرب قد افسح المجال لهذه الانطلاقة . لكنها ظروف يجب ادراك حقيقتها ، والانكباب على استغلالها لصالح الرسالة التي هي قاعدة الاعتبار في التعامل بين الدول التي تعتنق الاسلام دينا وتسعى للتبشير به وتعميق مفهوماته بين الناس .

وان الجهود المبذولة برغم ما قد يعترض سبيلها من صعاب ، لا بد لها من ادراك غاياتها واصلاح ما افسده الاستعمار . وكل الممكنات لذلك الاصلاح متوفرة . وهو واقع لا سبيل لنكرانه برغم بعض المنازعات (الاديولوجية) التي يريد الطرفان المتنازعان ، وخصوصا الشرق الشيوعي استغلالها لصالح ما يدعو له .

وعلى الدول الاسلامية ان تقدم المثال لذلك من سلوكها وتصرفاتها ازاء نفسها . فاذا ما استثنينا المملكة العربية السعودية التي لا يطبق فيها غير قانون الاسلام بمدلولاته كلها ، نجد ان بعض الدول الاسلامية الاخرى مثل مصر تستحث السير لجعل كل المحاكم وقوانينها خاضعة لروح التشريع الاسلامي على اعتبار ذلك التشريع ضمانة لصون حقوق كل انسان مهما اختلفت جنسيته وكان انتماؤه الجغرافي .

ولا احد يعلم كم سيطول ذلك السير ، الا ان نهاية الوصول للغاية لا بد منها ، وبذلك يتم تحقيق نشر العدالة الانسانية بين الناس ويقضي على هذه النزعات التي هي ارث لما خلفته عهود ما مضى من احتلال اجنبي لرقعة واسعة من بلاد الاسلام .

واذا كانت للزيارات التي يقوم بها البابا لبعض الجهات مدلولات دينية بجانب المعنى السياسي لها ، فانها للتاكيد على ما اصبح للدين في عرف العمل السياسي من تاثير . ونحن ناخذه من جانبه الواقعي. فقد زار اخيرا ارض نجيرية ولا تزال في الاذن رنة ما دعا له من وجوب التآخي من الدين . وذلك امر مشروع اذا ما كفل حق الصدع بالدعوة وحق التنافس حولها .

وهو السبيل الوحيد لمقاومة الانحراف وفشو المعنى الالحادي وفرض نظام مادي يقضي على التمسكات الروحية .

واذا كانت لنا عودة الى تفصيل كل ما جاء في هذا المقال ، فلاننا نريد تناول كل جانب مما جاء فيه . وعلى الله قصد السبيل .

تطوان : محمد الخطيب





كفاح الجريمة والانحراف في التشريع الاسلامي

2

للدكتور ممدوح حقي

فهل نظر الاسلام الى الجريمة من هذه الزاوية، هذه النظرة التفصيلية ؟ نعم ، وما دام القرءان الكريم دستور الامة الاسلامية وقانونها الاساسي ، فانك لا تجد فيه هذا التفصيل والتفريع ، لكنك تجده مفرقا في الاحاديث الصحيحة والوقائع القضائية والاحكام والفتاوي كفتاوي قاضيخان مثلا. وما رمز اليه القرءان الكريم في موضوع التوبة ، يشير الى هذه الناحية بوضوح لا يقبل الشك . فقد تقبل التوبة ممن تراجع عن جريمته وهي في دور الاعداد : « انه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده واصلح فانه غفور رحيم » (الانعام 54) . « من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم ، انه بهم رؤوف رحيم » (التوبة 117) . « ومن تاب وعمل صالحا » (الفرقان 70 — 71) . « فان لم تفعلوا وتاب عليكم » (المجادلة 12) .

كما تقبل التوبة ممن تمت جريمته وثملت : « فان تابا واصلحا فاعرضوا عنهما ، ان الله كان توابا رحيما » (النساء 16) . « الا الذين تابوا من بعد ذلك واصلحوا » (آل عمران 81) . وفي موضوع التوبة على جميع صفحات الجريمة 98 آية في القرآن الكريم .

ولا بد هنا من الاشارة للتأكيد ، الى أن الله تعالى يعتبر الشرك والكفر اكبر الجرائم على الاطلاق، أما الجرائم الاخرى فهي دونها مرتبة ، لان الشرك يتعلق بحق الجماعة الاسلامية كلها ، وبالتسلسل التاريخي للاتجاه الاسلامي الانساني، بينما القتل يختص بفرد او بفئة قليلة ، وليس الكل كالجزء في الحسبان (14) . وفي ذلك توضيح لما يقوله فقهاء القانون ، من أن الجريمة قد تقع على شخص بعينه أو على فئة من المجتمع . اما الجريمة التي تقع على الامة كلها ، فلم يتحدثوا عنها كما تحدث عنها القرءان الكريم قبل اربعة عشر قرنا ، وان كانوا قد اشاروا نحوها بالقانون الدولي الخاص ، وبالقانون الدولي العام في العصور المتاخرة . لكن هل بحثوا اعتداء الحكومة على شعبها بالقتل والنفي والتشريد في سبيل توطيد حكم حزبي معين ؟ هل اشاروا الى جلد الحاكم كرامة أمته وشرفها وتطويعها لتحمل مذلة حكم أجنبي هو عميل له ؟ هل اشاروا الى اعتداء امة على امة بقوة السلاح لاستعمارها واستنزاف خيراتها ؟ هل اشاروا الى ضغط الدول القوية على الدول الضعيفة بمختلف الوسائل السياسية والاقتصادية لتهديم اقتصادها وتوقيف تقدمها وجعلها

---

(14) ينظر القرءان الى التسلسل التاريخي للاسلام فيعتبر خطه متماديا مستقيما منذ ان ارسل الله انبياءه لهداية البشر حتى آخر العنقود النبيل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما » (آل عمران 67) . « ملة ابراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل » (الحج 78) . ولذلك يعد الشرك تمزيقا لهذا الخط وتقطيعا لهذا التسلسل التاريخي ، فبمقدار الجرم العظيم يكون العقاب الشديد : « ان الشرك لظلم عظيم » ، (لقمان 13) .

تابعة لهم ، وهو ما يسمونه في هذا العصر « الامبريالية » ، واذا كانت الدول الاشتراكية تسمي الدول الراسمالية بالامبريالية والرجعية ، فان هذه ترد لها الصفعة مرتين حين تسميها بالامبريالية المدمرة للاخلاق والشرف والعقائد السماوية واستغلال اقتصادها لمنفعتها الخاصة ونشر العقيدة الشيوعية فيها بالقوة والتآمر والانقلابات العسكرية وغسل الادمغة ... اما نحن فنقول للفريقين معا : « ملة الكفر واحدة » .

كل هذا اشار اليه كتاب الله منذ اربعة عشر قرنا وحرم الاعتداء على الفرد : « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الارض ، فكانما قتل الناس جميعا » (المائدة 23) . والفساد في الارض يكون بالاعتداء على الحرمات الفردية والجماعية من ارواح واموال وافكار . ولذلك أباح قتل الباغين والمفسدين : « ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها » (الاعراف 56 – 85) . « هل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الارض » (محمد 22) . « اني اخاف ان يبدل دينكم او ان يظهر في الارض الفساد » (غافر 26) . « ولا تبغ الفساد في الارض » (القصص 77) . « فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي » (الحجرات 9) . « انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض » (الشورى 42) . وعدد الآيات التي تتحدث عن الفساد والمفسدين في القرءان الكريم 58 آية . والآيات التي تتحدث عن البغي 38 آية .

* * *

والعقوبة ارتكاس اجتماعي ضد الجريمة ، فهي نوع من الثأر والانتقام الاجتماعي الممثل بصورة قانونية ، ضد من هز امن المجتمع وقلقل هدوءه وزعزع سكينته بجريمته ، او هي نوع من التاديب للمجرم كي لا يعاود الجريمة ويندم على ما فعل . كما ان فيها عبرة لمن تحدثه نفسه باجرام مماثل .

ونحن نعلم انه لا يمكن تصور جريمة الا من مجرم ممتد ظالم ، وآخر مظلوم مجني عليه . ومعنى هذا : انه لا يمكن تصور جريمة الا ضمن مجتمع ، والمعروف ان الناس بطبعها تنفر من المجتمع القلق المضطرب ، فهي اما ان تسعى لتهدئته مما فيه من اضطراب ، او ان تهجره الى مجتمع آخر تنعم فيه بالهدوء والسكينة . والجريمة ، اذا حدثت في اي مجتمع ، تثير فيه قلقا وتبعث اضطرابا ، ويكثر تساؤل الناس عما فعل المجرم ، وعن الاسباب التي دفعته الى هذا الاجرام ، وعما فعلت السلطات في مقابلة هذا الجرم ... هل قبضت على المجرم ؟ هل استطاع الفرار ؟ وكيف قدر عليه ؟ والى أين كان مفره ؟ هل قدم الى المحاكمة ؟ هل حكم عليه بعقاب يناسب جرمه ؟ ... الخ . وتبقى هذه التساؤلات ثائرة حائرة متلاحقة ، غذاء للقلق الاجتماعي حتى صدور الحكم ضده . عند ذلك تعود الناس الى سكينتها وتستقر .

فالجريمة – كما رأيت – تعكر صفو المجتمع ، وتقلقل هدوءه ، وتشيع فيه الاضطراب ولا يستقر ويسكن حتى يصدر الحكم بالتجريم والعقاب .

والعقوبة – كما لاحظت – نوع من الانتقام الاجتماعي ، او هي ثأر المجتمع من الجاني ، سواء اكان فردا او جماعة . وفي القرءان الكريم عدد عديد من الآيات التي تصور هذه الفكرة . منها : « ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، وذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيئين بغير حق » (البقرة 61) . « ولكم في القصاص حياة يا اولي الالباب » (البقرة 179) . « واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، واخرجوهم من حيث اخرجوكم ، والفتنة اشد من القتل » (البقرة 191) . « ...والفتنة اكبر من القتل لو كانوا يعلمون » (البقرة 217) . « وان قاتلوكم فقاتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين » (البقرة 191) . « السارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالا » (المائدة 28) . « الزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تاخذكم بهم رافة » (النور 2) .

وقد تشتد العقوبة حتى تصبح استئصالية ، يقتل فيها الجاني جزاء ما قتل : « وكتبنا عليهم ان النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والانف بالانف ، والاذن بالاذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص » (المائدة 45) . « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا ، ان يقتلوا أو يصلبوا ، او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الارض ، ذلك خزي لهم في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم » (المائدة 22 – 23) . وسنعود الى بحث هذه العقوبة ، حينما نتحدث عن وجهة نظر الاسلام في حفظ النفس .

والعقوبات في الاسلام ترجع الى خمسة اصول هـــــي :

1 ـ حفــظ الديــن .
2 ـ حفــظ النـــفس .
3 ـ حفــظ العقـــل .
4 ـ حفــظ الـــنسل .
5 ـ حفــظ المـــال .

والملاحظ : أن الفقهاء الذين صنفــوا هــذا التصنيف متــلسلا بهذا النمط ، كانوا على وعــي كامل بما اراده الله تعالى ، فلو تتبعنا آيــات القرءان الكريم لوجدنا الكثرة الكاثرة منها تهتم بحفظ الدين ثم بحفظ النفس ... وهكذا دواليك حتى النهاية .
وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « بايعونــي الا تشــركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا اولادكم ، ولا تاتوا ببرهان تفترونه بين أيديكم وارجلكم ، ولا تعصوا في معروف » (15) . ويقول : « امرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا الــه الا الله وان محمدا رسول الله ، ويؤتوا الزكاة » (16) ، فانظروا كيف اتفق الحديث الشريف والقرءان الكريم على البدء بحفظ الدين ، ثم يمشي فتتلوه الامــور الاخرى تنازلا حتى تبلغ المال ، وهو أدنــى شيء في الاعتبار بعد الدين والنفس .

وفي العقاب ـ كما لاحظنا ـ صفتان هما :

أ ـ تأديب الجاني على ما اجترم كأنما يثــار منــه المجتمــع .

ب ـ جعل عقابه عبرة لسواه ممن تسول لــه نفسه اقتراف جرم مماثل . وقــد تعرضت هاتــان الصفتان لبعض النقد ، فقالوا : يجــب الا يكــون العقاب ثأرا وانتقاما . لان الجاني واقع بين امريــن : اما ان يقترف الجرم بدافع شخصــي ، أو بدافــع اجتماعي . وغالبا ما يكون الدافع الشخصي ناتجا عن اهتزاز او اضطراب في نفسية الجاني . اي قد يكون واقعا تحت تأثير خلل في تركيبه النفساني ، فكيف نثار من انسان هذه صفته ؟

اما الدافع الاجتماعي فناتج عن خلل في تركيب المجتمع الذي يضمه ، فكيف تنتقم من شخص واقــع تحت ضغط الدوامة ؟ ليس المجرم الا آلة اديــرت فدارت . فهو اذن : اجدر بالرأفة منه بالعقاب !!

وهذا منظور عجيب !! انهم يفترضــون المجرم آلة صماء ، وينســون انه بشر ذو عقل يفكــر ونفس تحس ، فلو قبلنا افتراضهم لانتفــت الفائدة مــن العقاب بتا . فالانتقام من المذنب تأديب له وعبــرة لسواه . هذا ما قبلته جميع الشرائع منــذ وجــد الانسان والجريمة ، قالوا : كيف يؤدب مذنب سفاك حكم عليه بالموت ، ان عقوبته استئصاليــة تختــم وجوده في الحياة نهائيا . قلنا : قد يبتر الطبيــب العضو المغنغر لانقاذ سائر الجسم من سريان المرض اليه ، وكما تدين تدان . الم يحذف بجريمتــه انسانا بريئا من الوجود ؟ !

قالوا : كيف نعاقب انسانا ليعتبر به سواه ممن لم يرتكب اثما بعد ؟ فبأي حق نرعبه ؟ قلنا : العبرة حاصلة على اي حال ، فهي موعظة تابعة للعقــاب لا اصيلة فيه ، والعاقل من اعتبر بسواه ، ولولا العقاب، لتفشي الاجرام تفشيا شنيعا في المجتمعات ، وجعله جحيمــا لا يطــاق .

قالوا : ومع كل قساوة العقاب ، ومع وجــود الحكم بالموت والسجن المؤبد وبالاشغــال الشاقة وبالنفي والتغريب وبمصادرة الامــوال ... الخ فان الاجرام لم يختف في المجتمعات حتى الراقية منها ، بل لعله تزايد تزايدا ملحوظا في جميع انحاء العالم .

قلنا : هذا حق ، ولكن له اسباب اقتصاديــة واجتماعية واخلاقية وسياسية ، علينا ان نتدارسها بعناية ، ونحن لا نحاول استئصال الجريمة بالعقاب ، فذاك مستحيل ، ولكننا نحاول التخفيف من حدتهــا والاقلال من شرورها . ولهذا وجدت المنظمات التي تدافع ضد الجريمة ، واتجهت اتجاها سليما لجعل السياسة الجنائية اجتماعية ، بعد أن كانــت صرف عقابيــــة .

---

(15) فتــح البــــاري جــزء 1 ص 64 .
(16) فتــح البــــاري جــزء 1 ص 64 .

ولو تتبعنا آيات العقاب في القرءان الكريم لوجدناها تتجه نحو هدفين اثنين في آن واحد ، الاول : عقابي تأديبي ، والثاني : محاولة لاستئصال الجريمة من أصولها . والاحكام – كما تعلم – اما آمرة واما ناهية . فعصيان الامر جريمة ، وفعل المنهي عنه جريمة كذلك . فالجريمة اذن ، تقع في احدى حالين ، اما امتناع عن امتثال امر ، او فعل ما هو منهي عنه ، اي قد تكون سلبية او ايجابية . واول ما يجب التنبيه اليه ؛ أن المذنب هو وحده المسؤول عن ذنب لا يجرم عنه احد سواه . جاء هذا المبدأ في عدد كبير من آيات القرءان الكريم لعل اشهرها قوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر اخرى » (الانعام 164 – الاسراء 15 – فاطر 18 – الزمر 7 – النجم 21) . وقوله : « واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا » (البقرة 48 – 122) . « لنا اعمالنا ولكم اعمالكم » (البقرة 129) « فكيف اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » (آل عمران 35 – 40 – 161) . « يايها الذين آمنوا عليكم انفسكم » (المائدة 105 – الانعام 108) . « كل انسان الزمناه طائره في عنقه » (الاسراء 13) « من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها » (الاسراء 15) . ومثلها كثير جدا مما لا يكاد يحصى . وعلى هذا فان الذنب والعقاب والعفو والتوبة . . . كلها متعلقة بشخص الجاني وحده، ولا يجوز في الاسلام أن يعاقب احد بذنب احد آخر، ولو كان اقرب الناس اليه ، وقد مر بنا أن الجريمة تمر بصفحات متعددة ، بعضها تمهيدي وبعضها تنفيذي ، فكيف يكافح الاسلام الجريمة خلال هذه الصفحات ؟ ايقاومها قبل وقوعها ؟ ام في اثناء مسيرتها نحو التنفيذ ؟ ام بعد التنفيذ والتمام ؟

1 – حفظ الدين :

الاسلام يعتبر الشرك أكبر انواع الاجرام ، كما تقدم ، فهو يحاول مكافحته ومنعه قبل وقوعه : بالتنبيه عليه والتخويف من عقباه . ويعرض صورا مما أصاب المشركين السابقين للاعتبار بهم : « والى ثمود اخاهم صالحا،قال يا قوم اعبدوا الله » (الاعراف 72) « فان أعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » (فصلت 12) .

ويصور لهم عقبى الكفر : عذاب جهنم ، تصويرا مخيفا مرعبا يخلع القلب : « فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ، يصب فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما ارادوا أن يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق » (الحج 19 – 12) . « انه من يات ربه مجرما ، فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا » (طـه 74) . والآيات التي وصفت جهنم في القرءان هذا الوصف المخيف المرعب 77 آيـة .

وفتح لهم باب التوبة قبل الوقوع في جريمة الكفر : « يايها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا » (التحريم 8) . « غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب » (غافر 3) .

وشجعهم على التوبة من الذنب بعد وقوعهم فيه : « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح ، فان الله يتوب عليه » (المائدة 29) .

سألني بعضهم فقال : لماذا جعل الله تعالى جريمة الكفر والشرك اكبر الذنوب ؟ ! أليس القتل مثلا اكبر منه ؟ ! قلت : ان الاسلام ينظر الى التوحيد نظرة أصيلة ، يوحد المؤمنين جميعا على صعيد واحد . فالقوم المتفقون على فكرة عقائدية واحدة ، تقل فيهم الجرائم ، عن القوم المتفرقين على آراء متعددة . والاسلام ذو هدف بعيد جدا ، وغاية سحيقة لا حدود لها . ينظر الى توحيد العالم كله حول فكرة واحدة ، هي وحدانية الله تعالى ، فاذا اتفقت عقيدتهم على ذلك قل فيهم الاجرام لشعور الفرد منهم بأن المجني عليه اخوه فيكف يده عنه . اما قتل النفس فاقل كثيرا من الكفر لانه يفقد المجتمع فردا واحدا . واما الكفر ، فمن نتائجه تمزق المجتمع، وقتل النفوس ، وتبديد القوى ، وتشتيت النشاط العام ، واضعاف الانتاج الاجتماعي . الا ترى البدوي المسلم (*) يقابل في البرية رجلا اعزل يحمل مالا وهما وحدهما في فلاة لا رقيب عليهما الا الله ، فلا يمسه بسوء . ولو اراد قتله وسلبه ماله لما شهد عليه احد ، ولنجا من عقاب الحكومة ، اذ لا دليل عليه ولا شهيد .. فما الذي يمنعه من الاعتداء عليه؟

(*) رايت هذا في المملكة العربية السعودية وفي المملكة المغربية وفي ليبيا زمن حكم الملك ادريس . ورايت ضده على خط مستقيم في البلاد الوثنية امثال : كينيا واوغنده وتنزانيا وروديسيا .

ليس هناك الا ايمانه بالله وخوفه من عقاب الآخرة لا عقاب الدنيا . وطمعه فوق ذلك بالجنة !!

وكما جعل الله تعالى الترهيب وسيلة لكف المجرم عن الاذية ، جعل مقابله الترغيب بالجنة ، ووصفها وصفا رائعا جميلا محببا مرغبا : « جنات عدن تجري من تحتها الانهار » (البقرة 25 — آل عمران 15 — 126 — 195 — 198 — النساء 12 — 57 — 122 ... الخ) . « ان للمتقين مفازا حدائق واعنابا » (النبأ 32) . « يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ ولباسهم فيها حرير » (الحج 27 — فاطر 33) . « في جنات النعيم على سرر متقابلين » (الصافات 44) . « متكئين على سرر مصفوفة ، وزوجناهم بحور عين » (الطور 20) .

ان فكرة الوحدانية ايمان بالغيب ، ولذلك جعل الله ثوابها وعقابها غيبا مثلها : جعل ثواب المؤمنين الجنة وعقاب الكافرين النار : « الذين يؤمنون بالغيب » (البقرة 2 — 3) . « جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب » (مريم 61) . « الذين يخشون ربهم بالغيب » (فاطر 18) . « انما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب » (يس 11) . « ان الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة واجر كبير » (الملك 12) ... الخ . وفتح بعد ذلك باب التوبة على مصراعيه ، تشجيعا للتائبين ، واستكثارا لعدد المؤمنين الموحدين ، وتقليلا لعدد المشركين وتخفيفا لجريمة الشرك والكفر ، وما يتبعها من انواع الاجرام كالقتل والسرقة وقول الزور والفحش والربا (17) ... الخ .

2 — حفظ النفس :

شدد الله تعالى كثيرا على جريمة ازهاق الروح : « من قتل نفسا بغير حق او فساد في الارض ، فكأنما قتل الناس جميعا » (المائدة 32) . وجعل جزاء القتل عقابين في آن واحد : احدهما اخروي غيبي : « ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ، فبشرهم بعذاب اليم » (آل عمران 21) . والآخر دنيوي : « فمن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل » (الاسراء 33) . وولي الدم هنا ليس القريب عصبة او رحما على اطلاقه ، بل السلطان الذي بيده الحكم ، شريك رئيسي في هذه الولاية . وهو الذي يقوم مقام اقرباء المجني عليه بتطبيق حد الله على الجاني ، ويبقى للاقرباء حق طلب التخفيف او التشديد او العفو .

قد يسقط الاقرباء حقهم في دم القتيل ، لكن يبقى للسلطان حق الله فيه ، وهو حق المجتمع الذي فقده الى الابد . والا ، اي لو ترك أمر تطبيق العقوبة وتنفيذها بالاقرباء ، لا نتقل الحكم من مركز المجتمع الى حاشيته . واصبح المجتمع فوضويا بدويا كل واحد فيه يدعي الحق فيقتل بحجة الثار !! والاسلام يرفض مجتمعا هذه صورته ، ويريده مجتمعا حضريا متقدما . جاء في الحديث الشريف : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك اضعف الايمان » ، ومعنى هذا الحديث أن المجتمع المسلم بقضه وقضيضه مسؤول عن المنكرات ، ويتقاسم المسؤولية فيه فئات : فالذي عليه أن يدفع المنكر بيده ، هو السلطان ، لانه الوحيد القادر على ذلك بما يملك من قوة الشرطة والدرك والجند والتنظيم السياسي والاجتماعي من وزارات وادارات ... الخ . والذي عليه أن يدفع المنكر بلسانه ، هم العلماء واصحاب الفكر والكتاب والساسة والمجالس النيابية والبلدية والنقابات والصحفيون والاساتيذ ... ينبهون السلطة الى المنكر ، ويشيرون عليها بطريقة كفاحه ، وعلى السلطان ان يأخذ آراءهم بعين الاعتبار فيدرسها ويتقبل منها المصيب الممكن ، ويسعى الى تطبيقه خدمة لصالح المجتمع . فاذا استبد السلطان بالحكم وأصبح ديكتاتورا ظالما يسوس الناس بالقوة والقهر والعنف ، أخرس الالسنة الناطقة باسم الشعب واغلق الصحف وسد أبواب المنابر ... فعلى أفراد الشعب المؤمنين أن يمتنعوا هم انفسهم عن المنكرات بقلوبهم ، لانهم لا يستطيعون غير ذلك ، ريثما يقيض الله لهم مخلصا من محنتهم ، وذلك اضعف الايمان حقا ، اما صاحب الايمان القوي فيثور ولو قتل في سبيل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، او يتدبر الامر بحكمة وتعقل . وفي قصة داود والملكين نموذج ممتاز لردع الحاكم الطاغي ورده الى الصراط المستقيم : « هل أتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب؟ اذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا : لا تخف .

---

(17) في القرءان الكريم 515 آية تتحدث عن الكفر بجميع مشتقات المادة ، و 168 آية تتحدث عن الشرك

خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا الى سواء الصراط ، ان هذا اخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ، فقال : اكفلنيها وعزني في الخطاب ، قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وان كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم !! وظنا داود انا فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا واناب ففغرنا له ذلك » (ص 21 — 25) .

ذلك هو معنى الحديث الشريف ، انه تضامن اجتماعي تعاوني ضد الجريمة ، والمنكر بنفسه جريمة . قال تعالى : « كانوا لا يتناهون عن منكر » (المائدة 39) . « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون » (البقرة 42) . « ذروا ظاهر الاثم وباطنه » (الانعام 120 — الاعراف 33) . « كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الارض مفسدين » (البقرة 60) .

هكذا اتخذ الاسلام موقفا مناضلا ضد الجريمة قبل وقوعها : « ادفع بالتي هي احسن ، فاذا الذي بينك وبينه عداوة ، كانه ولي حميم » (فصلت 24). كافحها أثناء وقوعها أو بعد تمامها بالاستغفار وبالتوبة وبالعفو . قال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ... فمن عفي له شيء من اخيه فاتباع بالمعروف ، واداء اليه باحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة » (الشورى 40) . « وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا ، فان الله غفور رحيم » (التغابن 14) .

وكاني المح في هذه الآية الاخيرة وما ماثلها من التفريق بين العفو والغفران ، ما يشبه العفو الخاص والعفو العام . فالعفو يمسح العقاب وتبقى الجريمة ماثلة . اما الغفران فيمسح الجريمة والعقاب معا ، ولا يبقى لهما من اثر . وهذا التفريق له اهميته في تصنيف الجرائم والعقاب . تشير اليه اشارة عابرة في هذا البحث ، ونعود اليه — ان شاء الله — في فرصة اخرى .

ولئن قال تعالى : « ومن اعتدى عليكم ، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (البقرة 194) ، واستخدم كلمة « فاعتدوا » ولم يستخدم تعبير « رد الاعتداء بالمثل » لسبب بلاغي لا يخفى : وللتفريق بين موقف الدفاع الضعيف وموقف استرداد الحق بالقوة ، فقد نظر الى النفس الانسانية في حالتها الطبيعية الشائعة بين البشر . ثم ارتفع بهم في سلم الخلق والنبالة درجات في العفو والصفح والاحسان فقال : « والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » (آل عمران 134). ففي الدرجة الاولى يرد الاعتداء بمثله . ويرتفع الى الدرجة الثانية فيكظم غيظه ويخنق حقده ، ثم يرقى الى الدرجة الثالثة فيصفي قلبه من الضغينة ويعفو عن الجاني ويتناسى اساءته ، ويسمو في الدرجة الرابعة الى الذروة من الخلق الكريم فلا يكتفي بالعفو عنه ، بل يغفر له ذنبه ويمد اليه يد الاحسان ويساعده على نسيان ذنبه والعودة به الى حياة طيبة جديرة بالاحترام .

هكذا يدافع الاسلام ضد الجريمة ويصلح المجرم ويسمو باخلاق المجتمع ويربيه تربية تعاونية متقابلة ويذكره دائما بقول الله تعالى : « ادفع بالتي هي احسن » (المؤمنون 96 — فصلت 34) . ولقد ورد في القرءان الكريم من مادة العفو ومشتقاتها 35 آية ، ومن مادة الغفران 241 آية .

3 — حفظ العقل :

اهتم القرءان الكريم بالعقل والفكر اهتماما عظيما جدا ، ودعا الى التعقل والتفكير وحسن التدبير في 68 آية ، منها قوله تعالى : « اتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون » (البقرة 14) . « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » (البقرة 242) . « كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » (يونس 24) . « ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (الزمر 42 — الجاثية 12) .

واهتمام القرءان الكريم بذلك ، مبني على مبدأ المسؤولية ، فلم يحملها الا الحر العاقل المفكر . ولذلك عد الاعتداء على الحريات الفردية والجماعية العامة جرما كبيرا . من ذلك قوله : « واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة وهم لا ينصرون » (البقرة 122) . « فكيف اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ، ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » (آل عمران 32 — 40 — 111) .

فالعقل نعمة كبرى من انعم الاله على عبـــاده . قال : « الم نجعل له عينين ؟ ولســانــا وشفتيـــن ؟ وهديناه النجدين ؟ » (البلد 8 – 9 – 10) ولذلك عد كل تلاعب بعقول الناس او عبث بافكارهم جريمـــة ، كالكذب والبهتان والدعايات المغرضة وغسل الادمغة وكتمان الحقائق ... وما شاكلها . وقد كافح هـذه الجريمة بالايمان والصدق والاسلام الصحيح والتوبة والاستغفـــــار .

ونستطيع ان نقيس عليها ما نـراه في عالمنـــا المعاصر من حكام مستبدين يوحون الى شعوبهـــم بانهم في انعم نعيم ، وهم في الحقيقـة في جحيـم مقيم . والساسة الدجالين والصحفيين المرتشيـن وشركات الانباء المنحازة ، كما نقيس عليها سارقـي الافكار من مؤلفات اصحابها الاصليـــين وادعائهـا لانفسهم ... وكثيرا من امثال هذه الجرائم الفكرية والاقتصادية والعقائدية ...

4 – حفـــظ النســـل :

يبدو ان الغريزة الجنسية من اقوى الغرائز في الانسان ، او هي اقواها على الاطـلاق كما يدعـي فرويـــد Freud (18) يستديـم بهـــا البشر جنسهم ونوعهم . ولقد كانت الجريمة الاولى في حياة البشرية جريمة جنسية حين عرف آدم امرأته حواء جنسيا وكانت محرمة عليه : « وقلنا يا آدم اسكــن انت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتمـــا ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه » (البقرة 35– 36) . « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما » (طـــه 115) . « فأكلا منها فبدت لهمـا سوءاتهما وطفقا يخصفان عليها من ورق الجنـــة » (طـــه 121) . وكانت الجريمة الثانيـــة جنسيـــة كذلك ، اذ قتل قابل اخاه هابيل من اجل امراة . وما زالت المراة حتى اليوم سببا في كثير من الجرائم ، كما قال نابليون : « فتش عن المراة » .

فهذه الغريزة القوية العنيفة ، لم يتركهـــا الله تعالى هملا تعبث بالناس وعلاقاتهم كما تشاء . بـــل نظمها في قيود ، وسلك بها سبلا واضحة ، لو احترمها البشر لتخلصوا من كثير من جرائمها . قيدها اللـه تعالى مبدئيا بقيدين اثنين هما : التشجيع على الزواج الشرعي ، وتحريم الزنا تحريما شديدا ، بقصد صيانة النسل وانتماء الابنـاء الى آبائهـــم الحقيقيـــين لا المزعومين ، فبحصانة الذكر والانثى بالزواج ، تخف جرائم الجنس في المجتمعات الى ادنى الدرجات . وجعل جزاء الزاني المحصن الرجم : لان لديه مـــا يطفىء به وقد غريزته ، فلماذا يتعـــدى على عرض غيره ؟ اما الزاني غير المحصن ، فقد عاقبه بالجلـد واستبقاه حيا وفتح له باب التوبة وسمح له بالزواج والاحصان من بعد عقابه وتربيته .

لقد وقف الاسلام من موضوع العلاقة الجنسية موقفا صريحا واضحا جدا . نظمها تنظيمـا دقيقـا بالزواج قبل ان يقع المرء في جريمة الزنى . وسمح بتعدد الزوجات لاسباب اجتماعية ، لكـي لا تبقـى امراة من غير رجل يحرسها ويحميها ويصون عرضها بالاحصان : فقد ثبت بنتيجة الاحصاء ان النساء في مختلف انواع المجتمعات اكثر عددا من الرجـــال . وتلك طريقة مثلى في منع المخادنة والحفـــاظ على الشرف ، فاذا زلت بالزاني قدمه ، وارتكب الجريمة الشنعاء فله عقابان : دنيوي واخروي معا .

راينا كثيرا من الملوك والسلاطين والامراء ممن جمعوا عددا من النساء في قصورهـــم ، بعضهـــن زوجات ، وبعضهن الآخر مـــن السراري والجواري . قيل كان للمعتصم منهن مئات وللمتوكل آلاف .. !! ومهما كان في هذا العدد من مبالغة ، فان الباقي كثير على اي حال . بل كان لبعض الانبياء عـــدد ضخـــم كذلك ، فالنبي داود كان له تسع وتسعون امـــراة ، وحاول الاعتداء على احد رعاياه وضم زوجتـــه الى سراريه ليتم العدد بها مائة . لولا ان انقذه الله مـــن الوقوع في الجريمة بواسطة الملكين المستخفيـــين بصفة خصمين . ذكر القرآن الكريم ذلك في سورة (ص) اعتبارا من آية (21) .

ولما كانت آثار الزنى عظيمة جدا في الشرف وفي حفظ النسب قال تعالى : « ولا تقربوا الزنى ، انه كان فاحشة وساء سبيلا » (الاسراء 32) ، وامر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يبايـع النساء على

---

(18) انظر الاحلام لفرويد Les rèves الباب الاول . وخمس محاضرات في التحليل النفسي لـــه ايضـــا la Cinq leçons sur psychanalyse ترجمة الدكتور ممدوح حقـــي .

شروط جمع فيها الزنى الى السرقة والشرك والقتل وافتراء الزور والبهتان . ولزها جميعا في قرن واحد قال : « يبايعنك على الا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه ... » (الممتحنة 12) . فانظر كيف قدم الزنى على القتل لاهميته !! واوجب لاثباته اربعة شهود بينما ترك لجميع العلاقات الاجتماعية شاهدين وحسب : « فاستشهدوا عليهن اربعة منكم » (النساء 15) .

لقد سهل الاسلام الزواج فأمر بالتبكير به ، وشجع على معقولية المهور وخفضها ، وفتح باب الطلاق عند انعدام الوفق ، وحدده باللجوء الى التحكيم اولا : « وان خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكما من اهله وحكما من أهلها ، اذ يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما » (النساء 35) ، وجعله على درجتين ، ونسقه رجعيا وبائنا .

وحدد الايلاء باربعة اشهر اطوله ، على أمل التوبة والرجوع الى الصلح ، وامر المراة ان تعتد لثلاثة قروء استبراءا لرحمها وحفظا لحق الوالد في ابوة المولود ، وللولد في البنوة . ونهى عن امساك المطلقة وعضلها (اي منعها عن الزواج) حذرا من وقوعها في جريمة الزنى : « واذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فلا تعضلوهن » (البقرة 232) . « ولا تمسكوهن ضررا لتعتدوا » (البقرة 231) . ولو طبق المسلمون أوامر الاسلام بحق وانتهوا عن نواهيه، في العلاقات الجنسية ، لخفت جريمة الزنى حتما . وكانت تلك الطريقة خير ما يلجأ اليه في كفاحها وتلطيف شرتها والتخفيف من حدتها .

5 ـ حفظ المال :

قال تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا» (الكهف 46) . وقال : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ، ذلك متاع الدنيا والله عنده حسن المآب » (آل عمران 14) على ان الله تعالى ، وان قال : ان المال زينة الحياة الدنيا ، فانه لم يمنعه عن عباده ولم يحرم عليهم جمعه والسعي الى كسبه بالطريق الحلال ، وسمح لهم أن يتمتعوا به كما يشتهون ضمن حدود معقولة : « قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ ! » (الاعراف 32) لكنه قيد هذه المتعة المستحبة بقيود واضحة لعل أهمها ما يلي :

أ ـ التمتع بالمال حق لكن من غير اسراف ولا بخل : « ولا تجعل يديك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » (الاسراء 29) . « ولا تسرفوا » (الانعام 131 ـ الاعراف 31 ـ الاسراء 26 ـ 27 ـ 29)

ب ـ عدم المباهاة بهذه النعمة والغرور بها ، حذرا من اثارة الحسد والحقد في نفوس الفقراء : « ولا تمش في الارض مرحا » (الاسراء 37 ـ لقمان 18) .

ج ـ حل المتاجر وتحريم السحت والتشديد على منع الربا : « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، واحل الله البيع وحرم الربا » (البقرة 275) . « يمحق الله الربا ويربي الصدقات » (البقرة 371) .

د ـ التشجيع على الصدقة والزكاة ومشاركة الفقير بالعطف عليه : « وفي أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم » (الذاريات 19 ـ المعارج 35) . ولا تكاد تجد الامر بالصلاة الا مقرونا بالزكاة (19) . فالصلاة ، وهي شكر الله تعالى على نعمائه . لا تتم الا بالزكاة معها . فشكر الله تعالى باللسان وحده ، لا يكفي ، بل لا بد من عمل يؤدى معها ، وهذا العمل هو دفع المال للفقراء ومساعدتهم على العيش الكريم ، وحفظ المجتمع من رذيلتي الحسد والسرقة ، والتقريب ما بين طبقات الشعب : « كي لا يكون [المال] دولة بين الاغنياء منكم » (الحشر 7).

ان أولى آيات القرءان الكريم مفتتحة بالحض على المشاركة الاجتماعية بالمال . قال تعالى : « الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » (البقرة 2 ـ 3) . حدد الله فيها صفات

---

(19) مجموع آيات الزكاة في القرءان 32 آية ، منها 25 آية قرنت فيها الصلاة بالزكاة .

المؤمن فكانت أولاها الايمان بالغيب ، وثانيها الصلاة، وهي عماد الدين شكرا على انعم المولى الكريم ، وثالثها الانفاق مما رزقهم الله . ومعنى هذا : ان الدين الاسلامي دين اجتماعي واضح ، ربط الانسان بخالقه من جهة ، وبمجتمعه من جهة اخرى في آن واحد ، للتعادل والتعاضد والتكاتف . ولقد ثبت ان اكثر السرقات تعود الى سبب رئيسي اصيل ، هو الحاجة والجوع . فلو عطف الغني على الفقير بماله ، لانتفت السرقات او قلت . وهذا نمط اجتماعي ممتاز للدفاع عن المجتمع ضد جرائم السرقات العادية والسرقات الموصوفة وما قد يتبعها من هدر اموال وازهاق ارواح . « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله نبشرهم بعذاب اليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » (التوبة 34 ـ 35) .

نعم ، لقد دار الزمن وتطورت المجتمعات من شكل مجتمع بدوي الى زراعي الى صناعي ، وتطورت الصناعة نفسها كذلك من ورشات صغيرة الى معامل ضخمة ومصانع عظيمة تضم عشرات الآلاف من العمال ، واصبحت الصدقات والزكوات وحدها عاجزة عن ترميم ما خلفه التطور الحضاري المعاصر من خراب في النفوس والعقول ، ومن تمزق العلاقات الاجتماعية القديمة وتزعزع القيم ، ونجوم علاقات اجتماعية جديدة ، يتسارع فيها البنيان والهدم مع تسارع وسائل انتقال الاشخاص في انحاء المعمورة حتى اصبحوا يسبقون سرعة الصوت ، وتسارع انتقال الافكار عبر الصحف والمجلات والكتب والنشرات والمذياع والتلفاز ، حتى لم يبق في العالم فكر مفحص ولا عقيدة مخفية ... كل ذلك زاد المجتمعات سرعة في التقلب والاضطراب والتقلقل ، وزاد معه الاجرام حدة وتنوعا واتساعا ، مما حدا المفكرين والساسة والمصلحين الى التعمق في دراستها ، ووضع الحلول لاعادة الامور الى هدوئها وسكينتها .. فرأى بعضهم الحل في سيادة الاشتراكية ، ورأى بعضهم الحل في الشيوعية ، ورأى آخرون الحل في تأميم الصناعات الكبرى والتجارة الخارجية والمصارف . ورأى سواهم الحل في ترك رأس المال يجاهد وحده ويعمل بجدية ضمن تنافس مشروع . وانقسم العالم بسبب ذلك الى فريقين : يميني ويساري . كلاهما يقوم على اسس مادية لا علاقة للروح ولا للاخلاق بها مطلقا . ولم يتنبه منهم احد ـ مع الاسف ـ الى ان هناك حلا آخر غير هذين الاتجاهين المتناقضين المتناحرين ، لم يتنبهوا الى الحل الوسط بينهما وهو الاسلام . فيه وحده تعود الحياة الى سكينتها وتقل حوادث الاجرام الى اقل حد ممكن . فهل اعد المسلمون انفسهم للقيام بهذا الدور ، دور العلم والاخلاق ؟ !

خلاصة :

ولنلخص البحث تمهيدا لختامه ولملمة لاطرافه المسهبة ووضعه في اطاره :

وجدت الجريمة مع الانسان وليس الى حذفها من سبيل ، لكن يمكن معالجتها ومكافحتها وتخفيفها الى اقل حد ممكن اذا اتبعنا الاسلوب الاسلامي في بناء المجتمع وتنسيقه .

نحن المسلمون نؤمن بأن الله واحد احد لا شريك له وانه أوحى بالقرءان الكريم الى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ليرشد الامة الى الصراط المستقيم ، فالقرءان هو المصدر الرئيسي للتشريع ولاستخراج الاحكام بالطرق المعروفة لدى الفقهاء والاصوليين من علماء الاسلام . يليه الحديث الشريف ، غير ان الامة الاسلامية انقسمت الى عدة اقسام وافترقت الى عدد من الفرق اهمها فريقان هما : السنة والشيعة . فما قبلته السنة من احاديث رفضته الشيعة ، وعلى هذا فقد كان اتكاؤنا عليه نادرا ، الا ما اتفق عليه الفريقان معا وانطبق على ظاهر القرءان من غير تأويل . يلي ذلك الاجماع وقد اختلف في حجيته اختلافا كبيرا حتى لقد رفضه الامام احمد وانكر وجوده كما انكره كثير ممن هم من طبقته ، ولهذا السبب لم نلجأ اليه في بحثنا هذا . ويأتي بعده القياس وما يتفرع عنه كالمصالح المرسلة والاستحسان ... وهو باب حسن جيد ، لكن لا يمكن فتحه على مصراعيه ، ولابد من الحذر خوف الوقوع في فوضى .

ووقفنا على القرءان الكريم وحده ، ووجدنا فيه الكفاية الكافية لبحثنا واستشهدنا بعدد عديد من الآيات في كل باب منه .

ولما كانت الجريمة والعقاب اهم ما في هذا البحث ، فقد نظرنا اليها نظر الباحثين من السلف

الصالح بالعقل والحكمة والحذر ، وحصرنا العقاب في خمسة أصول هي : حفظ الدين وحفظ النفس وحفظ العقل وحفظ النسل وحفظ المال . وبحثنا كل موضوع منها على حدة وبرهنا على ان الاسلام يعتبر الشرك والكفر راس الجرائم لما ينتج عنه من خلافات وخصومات وقتال ، ولانه يمزق التسلسل التاريخي لرسالات الانبياء بالاسلام . وان التوحيد وسيلة مهمة جدا لجمع الامة على فكرة واحدة تخف فيها الخصومات ، وتكافح الجريمة بحسن الايمان ونبل الاخلاق ، وبالتعاون المتبادل بين جميع طبقات المجتمع بالمال والمجهود والعمل . ورأينا ان فكرة الثواب والعقاب متداخلة مع المبدا الاخلاقي والدين كله أخلاق . فاذا حسنت الاخلاق خفت حدة الجرائم وهبطت شرتها الى ادنى حد . والعقوبات في الاسلام على نوعين دنيوية واخروية ، تقوم السلطة الحاكمة بتنفيذ الدنيوية منها وتكل الاخروية الى الله .

يصف القرءان المؤمنين فيقول : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفا وطمعا » (السجدة 16) . فالعقاب بايلامه رادع ضد ارتكاب الجريمة ومهذب للاخلاق . وتنفيذه في الدنيا على يد السلطان هو المؤيد له Sanction ماديا . والوعيد بالعذاب الاخروي هو المؤيد له في الدار الآخرة . والخلق وحده هو المستند لكليهما في اي حال . وصف الله تعالى نبيه الكريم ، بأنه على خلق عظيم ، « وانك لعلى خلق عظيم » (القلم 4) ، ولم يصفه بأنه قوي شديد عنيف . فالخلق الحسن وحده هو المانع من ارتكاب الجرائم ، لا العقاب ولا العتاب ولا السجن ولا العذاب .

د. ممدوح حقي

بعض منجزات

السلطان محمد بن عبد الله

للدكتور ابراهيم حركات

بويع السلطان سيدي محمد بن عبد الله قبل متم صفر 1171 هـ موافق 7 يوليوز 1757 م ، وكان عمره حينئذ ، ثمانا وثلاثين سنة . وتميز عهده بمميزات سياسية واصلاحية كثيرة ، تستعرض هذه الدراسة ما يمس الجانب الوطني منها :

قضية الثغور المحتلة والمهددة :

قام السلطان سيدي محمد بن عبد الله بجولة لتفقد الثغور سنة 1173 هـ - 1759 م ، فانطلق من مراكش الى مكناس ، ومنها الى تطوان ، حيث أشرف على بناء برج مارتيل ؛ ومن ثم عرج على سبتة ، ليتعرف على أحوالها عن كثب ، ويقرر ما يمكن ان يتخذ من تدابير بشأنها ؛ الا ان مناعة تحصينها ، وكونها في لسان بحري وليس لها من البر الا منفذ واحد ، جعل العاهل يستبعد امكانية استردادها بالوسائل المتوفرة لدى الجيش المغربي ، فاكتفى بأن امر المدفعية باطلاق دفعة بارود ليتعرف على رد الفعل من الاسبان ، فرد هؤلاء باطلاق المدافع « حتى تزلزلت الجبال » (2) ثم انتدب مجموعة من رماة انجرة المقيمين حولها ، لمراقبة حدودها وتحركات الاسبان بها ، ويبدو ان الرغبة الشعبية كانت شديدة في أن يقوم المخزن بمحاولة فعالة لاسترداد سبتة ، ولكن هذا المركز المغتصب كان يتوفر على حماية برية وبحرية قوية من الجانب الاسباني ، وهو الى ذلك على مرمى البصر من التراب الاسباني نفسه ، وهكذا ولى العاهل المغربي وجهته شطر البريجة اولا ، ومليلية ثانيا . وفي جولته المذكورة ، مر بضواحي طنجة لاستقبال وفودها وسلطاتها ، وزار العرائش التي كانت خالية من السكان تقريبا ، مع حاجتها الى حامية كافية ، فقام بتزويدها بمائة من جيش مكناس ، وعين عليها واليا ، هو عبد السلام بن علي وعدي (3) . ثم توجه نحو الرباط وسلا حيث أمر ببناء برج بكل منهما ، وبانشاء سفينة لكل منهما وضعتا تحت تصرف مجاهدي البحر الذين كانوا ينطلقون لاعتراض سفن الدول الاوروبية المعادية ، وكانت العرائش وسلا من الثغور التي تعرضت غير ما مرة لانتقام هذه الدول .

---

(1) صفحات من كتاب « المغرب عبر التاريخ » (العصر العلوي قبل الحماية) ، لصاحب هذه الدراسة، وهو يقترب من نهاية تحريره .

(2) ناصري ، استقصا 8 - 11 .

(3) ن. م. ص. 12 ، الضعيف ، تاريخ الدولة السعيدة (م. خزانة عامة - الرباط) ص 171 .

التجار الاوروبيين بآسفي (25) . كذلك انشئت سفينة جهادية بسلا من طابقين سنة 1174 هـ ، واسندت قيادتها للرايس سالم (26) ، وكانت تركيا وانجلترا والسويد مزودين رئيسيين للمغرب ، بالتجهيزات التقنية للاسطول ، وقد ترمم السفن المغربية خارج المغرب كما هو الشأن في سفينة المستاري التي رممت بانجلترا وجهزت بالمدافع في عين المكان (27) .

وقامت سلا والرباط بجهد كبير في عمليات بناء السفن وترميمها ، كما كادتا تستأثران في هذه الحقبة بعمليات الجهاد البحري ، حتى ان العاهل الذي كان يفكر في مصادرة الاراضي التي يستغلها اهل الرباط ، على انها ملك للدولة ، تراجع عن ذلك ، لانه لم يكن له ان يستغني عن اهل الرباط لخبرتهم البحرية والحربية ، بالرغم من ان الجيش خرب جنائنهم ، لما كان لهم من موقف عدائي سابق ضد اخيه مولاي احمد (28) .

ومن البديهي ان الاستيلاء على السفن الاجنبية واسر بحارتها وضباطها كان يثير احيانا ردود فعل قوية ، كما هو الشأن في ضرب الاسطول الفرنسي للعرائش وسلا . وفي الغالب كانت المفاوضات خير وسيلة للوصول الى حل مرض للاطراف المعنية . وكان من الصدف ان احدى السفن الامريكية قد تم الاستيلاء عليها بعد سنوات قليلة من اعتراف المغرب باستقلال الولايات المتحدة الذي اعلن في رابع يوليوز 1776 م . وهكذا وقعت السفينة في قبضة المغاربة سنة 1784 م ، واحتاج الامريكيون الى تدخل اسبانيا وفرنسا لدى المغرب لتسوية المشكل ، وحرر الاسرى ، واسترجع الامريكيون السفينة ، ثم عين اول قنصل عام للولايات المتحدة بالمغرب ، وعقدت معاهدة اولى للصلح في 16 يوليوز 1786 م (1199 هـ) . وقد رفض الامريكيون اداء الجزية ، كما كان يرفضها الانجليز والفرنسيون (29) .

وذكر الناصري ان السفن المغربية في هذا العهد بلغت خمسين ، منها عشرون باخرة كبيرة . كما بلغ عدد ربابنة السفن ستين ، وجيش البحرية الفا من المشارقة (خصوصا الاتراك) ، وثلاثة آلاف مغربي ، بالاضافة الى الفين من رماة المدفعية (30) .

ويرى طيراس ان المخزن قد تمكن برغم هذه الوسائل المحدودة ، وبقيادة سيدي محمد بن عبد الله ، من اقرار الامن والنظام في البلاد التي اتجهت نحو العمل وحتى الثراء (31) .

2 ـ في الميدان الاقتصادي والمالي :

كان من الاجراءات الاولى التي اتخذت مباشرة بعد بيعة السلطان محمد بن عبد الله ، توظيف المكس على الابواب والسلع والمنتجات الفلاحية ؛ واستصدر السلطان لذلك فتوى من فقهاء فاس وغيرهم (32) ، كذلك اعتمد على فتوى هؤلاء الفقهاء في تبادل المنتجات الزراعية الفائضة عن الاستهلاك المحلي ، بالاسلحة والمواد الحربية ، وهكذا اصبح القمح تارة يتبادل بهذه المواد ، وطورا يباع نقدا للخارج ، حتى ان الفلاحين بفضل هذا التبادل تمكنوا من اداء ضرائبهم (33) وتكاثرت المراكز التجارية باكادير والصويرة وآسفي والرباط والعرائش .

وبرهن المخزن عن فعالية نادرة في سنة المجاعة التي امتدت فيما بين 1190 ـ 1197 هـ (1776 ـ 1782 م) واضطر السكان الى ان ياكلوا في بعض الجهات ، الميتة والدم ولحم الخنزير ، وهلك عدد كبير من السكان ، وظل الجيش يتقاضى رواتبه بكيفية عادية ، ورتب الخبز في مختلف المدن يفرق على المحتاجين في كل حي ، وتقاضى سكان البوادي سلفات طائلة من الدولة ، ولم يطالبوا بردها

(25) جـيش ، ص 138 ـ 139 .
(26) الضعيـف ، ص 168 .
(27) جـيش ، ص 144 .
(28) الضعيـف ، ص 176 ـ 177 .
(29) Caillé, la petite histoire du Maroc, 2 118
(30) استقصا ، 8 ، 70 .
(31) Terrasse, Op. Cit. p. 294
(32) استقصا ، 8 ، 7 .

بدا القتل في السكان والهدم في المباني يهدد بفناء البلد ، ولم يجد شيئا استجداء السكان سلطات بلادهم ، فقد وردت التعليمات باخلاء المدينة وانتقال السكان في وحدات النقل التي بعثت بها الحكومة البرتغالية ، وقال صاحب « الحلل البهيجة » انها كانت احدى عشرة سفينة جاءت لنصرة الكفار ، وليس الامر كذلك ، وبعد اخذ ورد ، اعطيت مهلة للسكان لا تتجاوز ثلاثة ايام للجلاء ، وعندئذ عمد البرتغال الى تحطيم المباني والاجهزة الدفاعية بالقنابل ، وزرعوا المتفجرات في مختلف جهاتها ، واتلفوا كل ما عجزوا عن نقله الى بلادهم ، ثم انتهى الجلاء ، في ثاني ذي القعدة 1182 ، وهو يوافق 28 فبراير 1769 حسب مصدر نقل عنه الناصري (12) ، وتولى متطوع برتغالي ابقاء المتفجرات بمجرد دخول المغاربة الذين تسرعوا في اقتحامها رغم تحذيرات العاهل ، فقتلت منهم عدة مئات ، وفي بعض التقديرات خمسة آلاف (13) ثم اسكن العاهل بالمدينة المحررة اسرا من دكالة ، وقد اطلق على المدينة منذ ذلك الوقت اسم المهدومة ، الى حوالي منتصف القرن 13 هـ - 19 م (أوائل حكم مولاي عبد الرحمن) ، فرممت اسوارها ومنشآتها ، واطلق عليها اسم الجديدة .

على أن المقاومة المحلية للاحتلال البرتغالي الحقت به اضرارا بشرية واقتصادية في عدة فترات قبل التحرير النهائي ، وذلك حسب التقارير البرتغالية نفسها (14) .

وشجع تحرير الجديدة ، العاهل المغربي على القيام بمحاولة لتحرير مليلية ، بعد الجهود المتوالية التي بذلها المغاربة حكومة وشعبا منذ استيلاء الاسبان عليها سنة 903 هـ/1497 م وعلى الاخص فى عهد مولاي اسماعيل وعلى فترات من حكمه خلال خمسين سنة حتى 1734 - 1721 م ، وهكذا ففي اواخر 1184 هـ - 1770 م بدات محاولة استرجاعها في عهد سيدي محمد بن عبد الله ، فنصبت المدافع حولها ، وبدا اطلاقها في أول السنة الهجرية 1185 ، ثم قام العاهل سنة 1188 هـ - 1774 م بقيادة جيش عسكر بقرب الناظور ، واطلقت المدافع التي حطمت قنابلها عدة منشآت . ويظهر ان مليلية كانت مهددة فعلا بالسقوط . ولذلك بادر العاهل الاسباني شارل الثالث (1759 - 1788) بتذكير نظيره المغربي بشروط عقد صلح تم بين الطرفين على يد وقد تولى قيادته الكاتب الغزال سنة 1179 هـ - 1765 م ، وكان ضمن بنوده ان المهادنة تنعقد بينهما بحرا لا برا ، لكن الاسبان كشطوا (لا) وعوضوها بواو ، وقدمت الوثيقة الى العاهل المغربي مزورة ، وكان ذلك سبب ابعاد الغزال عن الوظيف المخزني نظرا لعدم احتياطه في تحرير المعاهدة ، ثم انسحب الجيش المغربي ، وتولى الاسطول الاسباني نقل المعدات الحربية المغربية الى تطوان والصويرة ، كما اشترط ذلك السلطان ، ويعزو الضعيف فشل المغرب في تحرير مليلية سنة 1188 هـ - 1774 م الى عامل قلعية الذي بدت خيانته في هذه العملية ، فاستحق حكم الاعدام الذي نفذ فيه ، ثم عقدت معاهدة صلح جديدة في 30 مايو 1780 م ، وقد كان لها وقع سلبي لدى سكان المنطقة (15) .

الاصلاحات والسياسة الداخلية :

ان استقرار الوضع الداخلي في هذه الحقبة بوجه عام واكبته تطورات واصلاحات او تغييرات تتفاوت أهمية ، سواء على صعيد السياسة الداخلية، او بالنسبة للعلاقات الخارجية :

1 - في الميدان العسكري :

ان الطموحات التي كانت تذكي مولاي اسماعيل لضم المغرب الاوسط ، واقصاء الاتراك عنه بسبب الرغبة التي كانت لدى القبائل الجزائرية بهذا الشان، اقتضت انشاء جيش كبير ساهم ايضا في بسط نفوذ المغرب على أجزاء نائية فيما وراء ترابه الحالي، وهذه الطموحات العسكرية خمدت بعده لفترة طويلة،

---

(12) استقصا ، 8 ، 37 ، وحسب Hœfer, Empire du Maroc, p. 368 ، كان الفتح في مارس من نفس السنة ، وهو يتفق تقريبا مع المصدر الذي نقل عنه الناصري .

(13) المراكشي ، الحلل البهيجة ، 9 . 14 اكنسوس ، جيش ، ص 149 ، المشرفي ، الحلل البهية ، م. خ. ع. الرباط ، ص 162 ، الاستقصا ، 8، 37 ، السليماني ، اللسان المعرب ، ص 79 .

(14) Robert Ricard, la place de Mazagan au début du 17 siècle, pp. 66,67,75

(15) الضعيف ، ص 170 ، اكنسوس ، ص 150 ، ناصري ، استقصا ، 8 ، 24 و 40 .
Hœfer op. cit. p. 369 Ouaraichi (étude dactylogrphiée sur Malilia p. 9

ومن اجل ذلك ، وبالنظر لحركات التمرد التي ظهرت غير ما مرة في صفوف جيش البخاري ، وما نشأ عن ذلك من توزيع بقاياه عدة مرات ، على جهات متفرقة من المملكة ، قد اضعف هذا العنصر الافريقي الاصل، الى حد كبير .

وانضم الى الجيش النظامي مجموعات من حراطين الصحراء بالرتب وتافيلالت سنة 1173 هـ ـ 1759 م ونقلوا الى معسكرات مكناس وفاس (16) . وفي 1179 هـ ـ 1765 م انشىء فريق جديد من الليكشارية جمعوا من حوز مراكش وعددهم 4500 ، وكان اختيارهم من بين المرشحين العزاب ، على يد القائد عبد النبي المنبهي . وقد تم تسريحهم فيما بعد (17) ، وذلك على اثر تجاوزاتهم في المناطق التي كانوا يحلون بها ، حيث كانوا يكلفون السكان ما لا يطيقون من تموين ، كما نسبت اليهم اعتداءات على الاموال والاعراض (18) وكانوا يؤلفون على الخصوص فرق المشاة ، ولم يتجاوز الجيش النظامي خمسة عشر الفا في مجموعه ، ومع ذلك فقد خضع للتنقل والتبادل الداخلي عدة مرات ، وصرف جيش البخاري احيانا عن الجندية (19) .

كذلك اعتمد المخزن على بعض القبائل التي كانت تستخدم على الخصوص في حملات التاديب ضد قبائل اخرى . وقد يحدث أن تعاد الكرة بشكل معاكس عن طريق عملية اللف (20) . ومن هذه القبائل آيت ادراسن وجروان وآيت يمور وغيرها .

واخيرا ، فان الجيش يعزز بالمتطوعة المجاهدين الذين ساهموا في مقاومة الاحتلال الاجنبي للثغور .

واختصت مدينة الصويرة بحامية فرنسية من 250 جندي استقدمهم سيدي محمد بن عبد الله سنة 1784 ، وكان الاشراف عليهم يعود مباشرة الى العاهل الذي تاثر بلاطه بعد بيعته ملكا ، بالتقاليد الفرنسية (21) .

وعززت حاميات الثغور بالابراج والصقائل والمدفعية ، كما هو الشأن في تطوان والعرائش وسلا والرباط وآنفا ، واستقدم الى المغرب عدد من الخبراء الاتراك لصهر المدافع وتدريب رماة المدفعية .

وواصل المغاربة كاخوانهم في سائر الشمال الافريقي عمليات الجهاد البحري ، بالاستيلاء في عرض البحر على سفن أوروبية من جنسيات مختلفة (22) . ففي 1172 هـ ـ 1758 م غنم السلاويان محمد عواد مانطو ومحمد عواد قنديل ، والرباطي العربي المستاري سفينة سويدية ، فأنعم عليهم السلطان بمكافآت ثمينة ، كما كافأ النوتية ، ثم غنم المستاري سفينتين برتغالية وسويدية (23). وامر السلطان ببناء سفينة جهادية للرايس العربي حكم من الرباط (24) . كما أمر ببناء مجموعة من السفن في تطوان التي اصبحت ذات اهمية كبيرة في تزويد البلاد بالاسلحة ، وكان ذلك سنة 1173 هـ ـ 1759 م . وتم استيراد الاجهزة التقنية عن طريق

---

(16) استقصا ، 8 ، 12 . Terrasse, Histoire du Maroc, 2, 293,

(17) استقصا ، ن. ج. و ص . اكنسوس ، جيش ، ص 147 .

(18) أكنسوس ، ص 152 ، ناصري ، استقصا ، 8،44 .

(19) يراجع الضعيف ، ص 183 ـ 185 . زياني ، بستان ، ص 112 ـ 114 . اكنسوس ، ص 147 و 152 ـ 155 و 172 . وبشأن الاودايا : زياني ، بستان ، ص 100 ـ 101 . أكنسوس ، ص 139 . استقصا ، 8 ، 13 Hœfer, op. cit. p. 369

(20) Terrasse op. cit.

(21) Hœter, op. cit. pp. : 369 - 370

(22) يراجع : D. Herbelot, Histoire des Etats Barbaresques, Paris, 1757, Jacques Caillé, Hespéris, 1960, Ramon Lourido, Hespéris 1969, Rabat.

(23) الضعيف ، م. س. ص 164 .

(24) انظر اسماء عدد من ضباط البحرية : م. س. ص 168 .

وهكذا هوجمت سلا سنة 1178 هـ — 1764 م من قبل الاسطول الفرنسي ، وقتبلت بشدة ، وقامت المدفعية المغربية بالتصدي للهجوم ، لكن الخسائر المادية لدى السكان كانت كبيرة .

وتابع الاسطول الفرنسي طريقه نحو العرائش في أوائل 1179 هـ — 1765 م ، فقنبلها بشكل اشد، حتى خرب دورها ومساجدها ، واحرق سفينة بالميناء ، كانت مما غنمه المجاهدون من السفن الفرنسية ، كما حطم سفينة اخرى ايضا ، ولكن السكان وافراد الحامية تمكنوا في النهاية من تحطيم هجومهم والاستيلاء على احدى عشرة قطعة من اسطولهم البالغ خمس عشرة قطعة ، واسروا منهم نحو الخمسين تمت مفاداتهم فيما بعد (4) ، وكان للقائد حبيب المالكي دور اساسي في سحق هجوم الاسطول المذكور .

وعلى اثر حادثة العرائش ، قام العاهل بزيارة هذا الثغر ، واقام به شهرا يشرف على ترميمه وبناء ابراجه الدفاعية ، ثم زوده في نفس السنة المذكورة بالمدافع والمهاريس التي تعاونت القبائل ورجال المدفعية على جرها من فاس الجديد ومكناس بقيادة الامير اليزيد (5) .

وبعد سنوات قليلة على هذه الاحداث ، تم فتح البريجة التي حملت فيما بعد اسم « الجديدة ». وكانت البريجة قد خضعت للاحتلال البرتغالي منذ 907 هـ — 1502 م ، وذلك ضمن سلسلة احتلالات قاموا بها للثغور المغربية ، ثم شرعوا في بناء المنشآت الاولى لمدينة الجديدة (6) .

وكان من ذكاء السلطان محمد بن عبد الله ، ان عمل جديا على تحرير البريجة ، لانها بعيدة نسبيا عن مراكز الامدادات البرتغالية ، كما أن البرتغال كانت تجتاز ظروفا صعبة في ظل حكم يوسف الاول (7) الذي كان قليل الاهتمام بشؤون الدولة ، حتى انه ترك ادارة شؤون البلاد لوزيره المركيز دي بومبال (باء اولى مثلثة) الذي اشتغل قبل كل شيء بالقضايا الداخليــة .

وقبل ان يقوم العاهل المغربي بالتهيؤ لحصار البريجة ، وجه الى حاكمها خطابا شديد اللهجة يدعوه الى اداء الجزية او تحمل عواقب الحرب (8) ، وكان جواب الحاكم هو الصمود للحرب ، وعندئذ استشار السلطان مجلسه الحربي بشان المجابهة ، فاتفقوا على ضرورة حصار البريجة برا وبحرا . واستنفر المتطوعون من مراكش والحوز والسوس ومختلف الجهات ، بما فيهم خمسمائة من متطوعي الصحراء الغربية وشنقيط ، وكانوا كما قال الضعيف (9) يلبسون الجلد ويركبون الابل ، وشعورهم مسللة (10) ، ثم حشد الجيش النظامي والمتطوعة بقرب الجديدة في اوائل رمضان (11) 1182 هـ — 1769 م ، ولم يلتحق السلطان بالحشود الا في منتصف الشهر ، بعد ان زار ضريح ابي العباس السبتي تبركا، وحول البريجة (او مازيغان ، كما سماها البرتغال ، وهو اسم وطني قديم ذكره البكري في القرن 5 هـ — 11 م) حفر خندق ، ونصبت 35 مدفعا ، واستعمل الجيش القنابل التي دخل في تركيبها سبعة معادن ووزن كل قنبلة اكثر من قنطار ، وكان برفقة الملك وزراؤه والامراء ، وقد لبس الجنود دروعهم ، ودقت الطبول لتحميس المحاربين ، ونصبت المدافع من جهة البحر ايضا ، وكان يتولى قيادة المدفعية الضابط التركي الحاج سليمان الذي قام بجهد رائع في ضبط عمليات المدفعية ، يساعده رماة وطنيون لا يقلون عنه مهارة ، وحاول البرتغال الرد على المدفعية بطلقات مدافعهم التي كانت لا تصل الى المغاربة ، ثم

---

(4) اكنسوس ، الجيش العرمرم ، طبع حجري ، فاس ، ص 145 ، ناصري ، استقصا 8 ، 21 .

(5) جيش ، ص 145 — 146 ، استقصا ، 8 ، 26 ، زياني ، بستان ، ص 104 ، ضعيف ، ص 171 ، السليماني ، اللسان المعرب ، ص 78 — 79 .

(6) حركات ، المغرب عبر التاريخ ، 2 ، 199 .

(7) توفي سنة 1777 م .

(8) المراكشي محمد بن ابي القاسم ، الحلل البهيجة ، م. خ. ع. الرباط ، و. 30 .

(9) ضعيف ، م. س. ص 172 .

(10) ن. م. وص .

(11) استقصا ، 8 ، 36 .

بعد ان اخصبوا ورغبوا في ردها ، بل اسقطت عنهم حتى الضرائب والمغارم عن السنين المذكورة .

وكان التجار أيضا ، يتقاضون سلعات لجلب المواد الغذائية من اوروبا ، على أن يبيعوها بثمن التكلفة (34) . واستقرت الاحوال بعد ذلك ، وعاد المغرب الى تصدير القمح ، حتى لقد سجل سنة 1202 هـ - 1789 م تزايد ملحوظ في السفن التي تشحن القمح الى اسبانيا من مدينة الدار البيضاء (35).

ولاول مرة في ظل الحكم العلوي يرتبط المغرب بمعاهدات مع دول كثيرة في آن واحد ؛ وقد تناول اكثرها العلاقات التجارية والاقتصادية بالاضافة الى الشؤون الدبلوماسية وقضايا الاسرى . وكانت انجلترا والدنمارك والسويد ضمن هذه الدول . وعلى سبيل المثال فقد عقدت معاهدة مع الدنمارك سنة 1751 م في عهد مولاي عبد الله ، سمح بموجبها للدنمارك بانشاء شركة تجارية اصبح لها حق احتكار التجار في مراكز الساحل الاطلسي للمغرب عن مدة اربعين سنة . وتأكدت المعاهدة بضمانات جديدة سنة 1753 م ثم سنة 1757 م (36) . وهكذا انهالت على المغرب بضائع تستوردها الشركة كالشاي والسكر والاسلحة بأثمان مربحة ، في الوقت الذي تصدر من المغرب الصوف والزيت والشمع والجلد واللوز وسائر المنتجات الوطنية التي كانت تعرضها الشركة في الخارج ، بأرباح قد تصل الى 70 في المائة. واستمرت الشركة في توسيع نشاطها لهذا العهد ، فكانت تعقد صفقات تجارية بتطوان وطنجة ومراكز الشمال . وكان الملك فريديريك الدنماركي يملك اكثر أسهم هذه الشركة . وبالنظر لنشوب الحرب بين انجلترا وفرنسا ، ولانعدام النزاهة لدى بعض امناء المراسي ، فقد قلت موارد الجمرك الوطني من هذه الشركة التي دعيت الى تقديم مبلغ سنوي مقرر لبيت المال ، عوض وساطة الامناء . وكان مقر الشركة بآسفي ؛ الا ان انشاء الصويرة كميناء جديد ومدينة مستحدثة ، مع الزام قناصل الدول بالتجمع فيها ، وتركيز الحركة التجارية عبر البحر بها ، اضعف من أهمية مراكز اخرى ، كأكادير وآسفي وسلا ، وهكذا قررت الشركة تصفية اعمالها بأمر من دولتها سنة 1767 م .

ثم عقدت معاهدة جديدة مع الدنمارك في 28 يوليوز من نفس السنة (28 صفر 1181) وتنص على تزويد المغرب بالمدافع والخشب والاشرعة والحبال سنويا ، مع تحديد مقادير هذه المواد التي كانت تدفع كجزية سنوية ، على ان يسمح للتجار الدنماركيين بمزاولة نشاطهم التجاري بصفة حرة . ومعلوم ان عدة دول اوروبية اخرى كانت تدفع الجزية للمغرب ، لنفس الغرض ، حتى سنة 1845 م (37) ، على ان بعض الدول حصلت على ترخيص بفتح قنصلياتها خارج آسفي ، كما هو الشان في فرنسا التي استقر قنصلها شينيي بسلا (38) ، ومع ذلك لم تكن العلاقات التجارية مع فرنسا في المستوى الملائم . وكان توقيع هذه المعاهدة في 28 مايو 1767 م .

واذا كانت الشركة الدنماركية قد خضعت لتحديد مقدم لالتزاماتها الجبائية ، فان نظام بيع المكس على صعيد التجارة الداخلية قد عمل به المخزن في نفس الفترة ، وهو نظام عرف من عهد طويل في انظمة شعوب البحر المتوسط ، وتنقصه الضمانات على اموال الملزمين بالضرائب . وهكذا فقد ابتاع الصغار مكوس فاس باثني عشر الف مثقال (39) ، وكان المكس المرتب معمولا به خاصة لدى الدولة العثمانية ، ولذلك كان الجور واستغلال السلطة رديفه في كثير من الحالات .

---

(33) Hœfer, Empire du Maoc, 368

(34) الزياني بستان ، ص 114 .

(35) الضعيف ، تاريخ الدولة السعيدة ، ص 213.

(36) De Castries, le Danemark, in ; Hespéris, fas. 4 - 1926; pp. 327 - 349 Terrasse, Histoire, 2, 297. Hœfer, Op. Cit. p. 289

(37) مصادر سابقة .

(38) Pierre De Cenival, in Hespéris, fas 1 - 1928, pp. 23 - 35

(39) جيش ، ص 141 .

3 ــ السياسة الدينيــة :

ارتبط النشاط الديني في هذه الحقبة كلهـا ارتباطا متينا بالسياسة التي نهجها السلطان محمد بن عبد الله . فهو من جهة ، معجب بالحضارة الغربية ، ويتعامل معها في زواياها الاقتصاديـة والعسكريـة والعمرانية ، ومن جهة اخرى يكـره التقليـد فـي التشريع ، والارتباط المبالغ فيه بفروع المذهـب المالكي ، واذا كان لم يعمل على وضع مدونة تحـدد فيها التشريعات فقد عمـل بالمقابـل على تدويـن مجموعات من الاحاديث النبوية ، وقام هـو نفسـه بعمل شخصي في هذا المجال ، وظهرت على يـده حركة حديثة واسعة النطاق لم يعرف نظيرهـا في ماضي المغرب الاسلامي الا في العهد الموحدي .

وحيث ان التعليم عملية تندرج في المفاهيـم الدينية الاسلامية بنصيب كبير ، فقد حظي باهتمـام الدولة والامة ، وعرف انتعاشا حقيقيا ، لكن من غير ان تكون هناك حركة تطوير لبرامج التعليم في اتجاه العلوم الحديثة وطرق التدريس واماكنه ، كمـا ان الفكر الاجتماعي ظل مرتبطا بالتقاليد التي كان الكثير منها ضارا بالمجتمع نفسه .

حقا ، لقد كانت سياسة المخـزن جديـة في تشييد المساجد والمدارس والكتاتيب وتوزيع الكتب على الخزائن والعناية عموما بكل ما يحبذه الديـن أو يحض عليه ، وهذه امور لا يمكن الا ان تنال رضـى الشعب المتمسك في غالبيته العظمى بتعاليم الدين ، والذي ليس غريبا على كل حال عن التقدم التقنـي والعلمي والخبرات الحديثة التي يلمسها في اعمـال المهندسين الاجانب ومنجزات الخبـراء الغربييـن أسرى وغيرهم ، ومصنوعات الغرب فيما يهم الحياة اليومية والعسكرية وتقنياته الادارية فـي التعامـل وتأسيس الشركات وغير ذلك . لكن المجتمع كان في جل الاحوال ، في موقف المتفرج على معرض لم ينجز هو فيه شيئا ، وليس له الا الفرجة او الاستهلاك .

ومع ذلك كله ، فهناك خطوة كبيـرة لصالـح الانفتاح على الغرب لم يشهدها المغرب منذ وفـاة رجل الدولة الكبير احمد المنصور الذهبي . وهـذا الانفتاح الذي يعتبر السلطان محمد بن عبـد الله ، مخططه وصانعه بالنسبة للعصر العلـوي ، يسايـر تماما سياسة الانفتاح الاسلامـي على الحضـارات الاخرى ، والتي اختطها من زمن بعيد رسول الاسلام نفسه صلى الله عليه وسلم ؛ ثم بلغـت اوجهـا على النطاق العالمي في القرن الرابع هـ ــ العاشر م .

وهكذا تأثر القضاء ايضا بالروح التنظيمية التي شملت نشاط المخزن في هذه الحقبة بوجه عـام ، والتفت المخزن الى الفئات الضعيفة والفقيرة ، والى المراة التي تعيش في رهبة من زوجهـا القاسـي ، واليتيم الذي يتوزع حقوقه الوصي وحماتـه مـن السلطة والقضاء ، وبوجه عام ، كل اولئك الذيـن يعيشون في دهاليز الظلم والحرمان ، ولا يحميهـم نصير في ظل القهر والبطش ، فصـدرت نصـوص تشريعية في شكل ظهائر متتابعة تحـدد التزامـات السلطات القضائية والتنفيذية ومسطرة الحكـم في مجموعة من المعاملات الاساسية (40) . وجل هـذه الظهائر تقر بوجود الظلم وبعضها ينذر القضاة بالعزل والمتابعـــة .

على ان السلطة المركزية لم تكن تتهـاود مـع جبابرة الولاة ، كما هو الشان في نكبة فنيش عامـل سلا ، لانعدام مرونته ولياقته ، واغلاقه ابواب سلا في وجه العاهل ، وكنكبة القائد الحبيب المالكي الـذي بدا مناضلا كبيرا ، ثم تحول الى الانحراف الاجتماعي والديني ، فقد كان قصره يضم 18 امراة من غيـر صداق ، وكان يتصرف في « دوار » ليس فيـه الا النساء ولا يدخله الا هو ، وبعد اعتقاله أضرب عـن الطعـام حتى هلك (41) .

واذا كان المحدثون والفقهاء قد نالـوا مقـام الشرف ، وحظوا بامتيازات سياسية ومادية بحسب تقربهم من السلطة ، فان طبقة الصوفية التي اعتادت في جلها أن تنعزل عن دواليب الدولة ومسيريها قـد تقلصت هيمنتها بشكل ملموس عما كانت عليه . ذلك ان بعض الزوايا التي حاولت ان تجعل من حرمهـا ماوى للاجئين الذين تتعقبهم الدولة لسبب او لآخر ،

---

(40) عباس المراكشي ، اعلام ، 6 ، 120 ــ 128 (المطبعـة الملكية ــ الرباط) .

(41) الضعيف ، ص 171 ــ 172 . استقصا ، 8 ، 29 ــ 30 .

قد كانت موضع ريبة المخزن ، حتى ان السلطان قرر في مروره من الرباط الى مراكش عن طريق تادلا سنة 1199 هـ ـ 1784 م ان يهدم زاوية ابي الجعد التي كان على راسها الشيخ محمد العربي بن المعطي الشرقاوي ، ونقل هذا المرابط الى مراكش مع اسرته ، ثم أعيد الى ابي الجعد في عهد مولاي هشام، واخذت عليه تجاوزات بعد ذلك ، فنقل الى فاس ، ثم ارجع الى ابي الجعد من جديد ، واذا كانت الزاوية تحظى باقبال جموع السكان فان المثقفين بعد هذا العهد تفاوتت آراؤهم بشأنها ، بين عاطف كأكنسوس والناصري ، ومنتقد كالزياني (42) .

وكادت الزاوية الناصرية ان تلقى مصيرا مشابها سنة 1203 هـ ـ 1788 م ، لكن مجرى الاحداث حال دون ذلك ، وكانت الزوايا الكبرى تتمتع في الغالب باعفاءات ضرائبية مع توفرها على مستغلات واوقاف وموارد ذات اهمية من الزكوات . واذا اضيف الى ذلك اعفاء الاشراف الذين اندس بينهم العديد من الادعياء من الضرائب أيضا ، ثم ما كان للزوايا من ضغط سياسي يضايق سلطة الولاة والمخزن ويضر في كثير من الحالات بالوحدة السياسية للبلاد ، أمكننا ان نفهم موقف السلطان محمد بن عبد الله تجاه عدد قليل من الزوايا .

لقد كان سيدي محمد بن عبد الله موجها سياسيا قديرا ، بقدر ما كان ذا شخصية قوية في الميدان الديني . وفي الجانبين ، السياسي والديني فرض شخصيته بكفاءة قلما توفر عليها نظراؤه المعاصرون في العالم الاسلامي .

ابراهيم حركات

---

(42) اكنسوس ، جيش ، ص 171 . ناصري ، ا ستقصا ، 8 ، 59 .

من رجالات سبتة المغمورين :

أبو عبد الله بن حمادة البرنسي

العالم المؤرخ

للأستاذ سعيد أعراب

(1)

الحقيقة اننا ما انصفنا مدينتنا – سبتة – السليبة ، هذه المدينة العريقة في المجد والحضارة؛ فالى جانب ما ابتليت به – وهي في ريعان شبابها – من جرثومة الاستعمار ، فان ابناءها اهملوا امجادها ، ولم يكتبوا تاريخها حتى اليوم ! وقد انجبت علماء افذاذا ، لا تكاد نعرف عنهم شيئا ، فهذا ابو عبد الله ابن حمادة البرنسي – وهو العالم المؤرخ – نجهل عنه كل شيء ، وكل ما نعرف أنه سبتي ، من تلاميذ عياض ، ولكن متى ولد ؟ واين نشأ ؟ وكيف ؟ ومتى توفي ؟ وما هي اسرته ؟ ومن هم شيوخه ؟ واين سمع منهم ؟ ومن هم تلاميذه – ان كان له تلاميذ ... ؟ .

تلك اسئلة لا نجد لها جوابا ، وكتب التراجم مطبقة بالصمت عنه ، وسواء منها القديم او الحديث، وحتى الدراسات التي طلعت علينا اخيرا من سبتة ، لم تعرج عليه ، لا من قريب ولا من بعيد ... ! (1) .

وقد دفعتني ضرورة البحث – وانا احقق الاجزاء الاخيرة من موسوعة عياض : « ترتيب المدارك، لمعرفة اعلام مذهب مالك » – الى التعرف على من اختصروا الكتاب ، وكان من بينهم بن حمادة – مترجمنا ، بل هو أول من تصدى لذلك – فيما نعلم ، والذين اتوا بعده ، انما هم تبع له ، يقفون اثره، وينهجون نهجه ، وقد زاد على الاصل زيادات ، واستدرك عليه استدراكات – على ما سنذكره بعد .

وتوجد نسخة من مختصره بالخزانة الملكية تحت رقم (672) ، وهي غير مرتبة ، اضطربت اكثر اوراقها ، وهي كذلك غفل من اسم مؤلفها ، ولقد عدت الى فهرس قسم التاريخ الذي اخرجته الخزانة اخيرا ، وهو من وضع الاستاذ الكبير محمد عبد الله عنان ، لعلني اجد فيه ما يزيح الستار عن المخطوط واسم مؤلفه ، ولشد ما كانت دهشتي ! اذ وجدت ان المخطوط لا ذكر له – البتة – في الفهرس ، بينما هو ثابت في الجذاذات الاولية : (الفيش) ، ولكن بدون تعليق ، فلم يبق امامي الا ان اعود الى المخطوط ، واقرا ما في السطور ، وما بين السطور – كما يقولون ، فاتضحت لدي العلامات التالية :

1 – من صنيع صاحب الاختصار ، ان يرمز الى عياض – صاحب الاصل – بحرف (ض) ، ويقول عن نفسه : (قال محمد) .

2 – تردد في مواضع من الكتاب قوله : (وممن استدركنا عليه من اهل بلدنا – يعني سبتة ..) .

---

(1) انظر مجلة المناهل : ع. 22 ، س 9 ، وهو حافل بالدراسات القيمة عن سبتة .

3 ــ في جملة من استدركهم على عيــاض ، بعض شيوخه الاندلسيين ، وتشير عبارته الى انــه شارك عياض في الاخذ عنهم .

وهذه الصفات لا تتوفر الا في ابن حمادة الذي نسوق عنه هذا الحديث ، وهو ابو عبد الله محمد بن حمادة البرنسي السبتي ، هكذا أورد اسمه ونسبه صاحب الكوكب الوقاد ، وذكر انه خال أبيه لامــه ؛ وانه انشد في شأن سبتة البيتين التاليين :

فكل جبار ، اذا ما طغــــى
وكان في طغيانــه يسـرف

ارسلــه الله الى سبتـــة
فكل جبار بها يقصـــف (2)

وله رواية عن شيخه عياض في هـذا الصدد ، تمجد سبتة ، وتذكر من فضائلها ، تحدثت عنها فـي غير هــذا الموضع (3) .

وسماه صاحب مفاخر البربر بابن حمادة (4) ، واقتصر في روض القرطاس على لقب البرنسي (5) ، ولعلها النسبة التي اشتهر بها في ذلك العصر .

ولد أبو عبد الله بن حماده بمدينة سبتة ، وبها نشأ وتعلم ، أخذ عن جملة من مشايخ بلــده ، وفـي مقدمتهم عياض بن موسى اليحصبي السبتي ، الامام الشهير ، ولا بد انه تجول في بلاد الاندلس ، وسمع من مشيختها ، ويشير في مختصره الى انــه شارك عياضا في بعض شيوخه ، ولعله يعني بذلك ابا القاسم احمد بن بقي بن مخلد ، وابا علي الحسين بن محمـد الغساني المعروف بالجياني ، وأبا عبد الله محمد بن حمدين ، والشيخ الشهيد ابا علي الصدفي ، وأبـا محمد عبد الله بن ابي جعفر المرسي ، وأبـا بحـر سفيان بن العاصي ، وابا عبد الله هشام بن احمـد الهلالي ــ في آخرين .

وابن حمادة من اهل القرن السادس الهجري ، عاش النصف الاول منه ، وطرفا من النصف الآخر ــ كما توحي بذلك عبارته في تراجم السبتيين الذيـن ختم بهم الكتاب ، وسنتحدث عنهم بعد .

آثـــــــاره :

خلف ابو عبد الله بن حمادة آثارا علمية قيمة ، منهــــا :

1 ــ كتابه « المقتبس ، في تاريخ المغــرب وفاس والاندلس » ، ذكره صاحب الكوكب الوقـاد ، وأفاد منه (6) ، واعتمده صاحب مفاخر البربر (7) ، ونقل عنه ابن ابي زرع في روض القرطاس ــ عنـد حديثه عن الادارسة (8) ، وهو من المصادر الاولـى لابن عذاري في « البيان المغرب » . واليك مثالا من اخبار ذلك التاريخ ، قال ــ وهو يتحدث عن حروب ابن زيري الصنهاجي ، مع محمد بن الخيــر أميـر زناتة : (... وفي ربيع الآخر من سنة 360 هـ) ، التقى يوسف بن زيري الصنهاجي ، المشتهر اسمـه ببلقين مع محمد بن الخير امير زناتة ، فهزمه بلقين بن زيري ، وقتل جماعة من اهله ورجاله ، فلما أيقـن سيفه ، فذبح نفسـه ــ انفة من أن يملكه بلقين ، فأتى محمد بن الخير ، ان عدوه قد احاط به ، اتكــا على بامر عظيم ، ساد ذكره بأرض المغرب ، وملك بلقين بن زيري اثر ذلك الغرب ، وقتل زناتة ، وهدم البصرة وغيرها من مدن المغرب ، ولم يثن عنانا عن مدينــة سبتة ، ومنها رجع ، واليها كان انتهاؤه ، وصـــدر ــ عاجزا عنها ــ ...) (9) .

(2) انظر ازهار الرياض ج 1 ص 36 .
(3) وانتهيت الى القول بانه حديث موضـــوع لا أهل له ، تبرا منه عياض نفسه ــ كمــا في الغنيــة ص 183 ، وانظر بحث كاتب هذه السطور المنشور بهذه المجلة س 21 ع 2 ص 28 .
(4) ص 43 ــ 46 .
(5) ج 1 ص 27 ــ 50 .
(6) انظر ازهار الرياض 1 / 36 .
(7) ص 43 ــ 46 .
(8) ج 1 / 27 ــ 50 .
(9) انظر البيان المغرب 2 / 243 .

اوردت هذا النص بطوله ، لنعرف منهجـــه في التاريخ ـ وقد جمع بين الحوليات ، وسرد الاحداث، واسلوبه رصين ، وتحليلاته في غاية الدقة .

وينقل عنه الذهبي في ترجمة عياض ، وابـــن حمادة أحق من يتحدث عن عياض ـ وهو تلميـــذه ، وابن بلده ـ ، قال : (... جلس (أي عيـــاض) ـ للمناظرة ـ وله نحو من ثمان وعشرين سنة ، وولـي القضاء ـ وله خمس وثلاثين سنـــة ، فسار بأحسن سيرة ، كان هينا من غير ضعف ، صليبا في الحق ، تفقه على ابي عبد الله التميمي ، وصحب ابا اسحاق ابن جعفر الفقيه ، ولم يكن احد بسبتة ـ في عصره ـ اكثر تواليف منه ، ... وله كتاب « جامع التاريخ » الذي اربى على جميع المؤلفات ، جمع فيه اخبـــار ملوك الاندلس والمغرب ، واستوعب فيـــه اخبـــار سبتة وعلمائها ، ـ الى ان يقول : وحاز من الرئاسة في بلده ، ومن الرفعة ـ ما لم يصل اليه احد قط من اهل بلده ، وما زاده ذلك الا تواضعا ، وخشية مـــن الله ...) (10) .

وهذا لون آخر من كتابة التراجـــم ، وكأنـــه مذكرات يومية ، ويبدو ان ابا عبد الله بن حمادة في كتابه « المقتبس » ، لم يقتصر على سرد الاحداث ، بل تعرض لتراجم اعلام كل عصر ، وكل بلـــد مـــن البلدان التي ارخ لها ، على نهج ابن حيان في كتابـــه « المقتبس » وهو متأثر به ، ولعله الذي أوحى اليه بعنوان الكتاب .

2 ـ « مختصر المدارك » ـ ذكره صاحـــب الدر النفيس ، وقال : انه زاد فيه زوائد مهمة (11)، وهو من مصادر ابن فرحون في الديبـــاج ، ونسب ـ خطأ ـ الزيادات التي زادها على الاصل ـ لمحمد ابن عتيق (12) ، ومر بنا أنه توجد نسخه من مختصره بالخزانة الملكية ، ويلاحظ ان نسخة « الاصـــل » ـ التي اختصرها أبو عبد الله بن حمادة فيها زيادات ، ومنها الطبقة الحادية عشرة ، وهي ساقطة في سائر النسخ التي بين ايدينا ، واستـــدرك على الاصـــل استدراكات ، سنتحدث عنها بشيء من التفصيل في مقدمة الجزء الثامن والاخير من « ترتيب المدارك »، الذي سيرى النور ـ قريبا ـ بحول الله .

والذي يهمنا في هذه العجالة ، الطبقة الثانية عشرة التي أضافها ابن حمادة ، واختصهـــا بأعلام سبتة ـ بلده ، وهم كما يلي :

1 ـ القاضي أبو عبـــد الله محمد بن عبـــد الله الاموي (ت 517 هـ) (13) .

2 ـ القاضي عبود بن سعيد التنوخي ، المعروف بابن العطـــــار (14) .

3 ـ القاضي أبو القاسم عبد الرحمان بن محمد ، يعرف بالخطيب (ت 502 هـ) (15) .

4 ـ القاضي أبو اسحاق ابراهيم بن احمد البصري (ت 513 هـ) (16) .

5 ـ القاضي الامام أبو عبد الله محمد بـــن عيسى التميمـــي (ت 505 هـ) (17) .

6 ـ القاضي أبـــو محمد عبـــد الله المسيلـــي (ت 473 هـ) (18) .

---

(10) انظـــر تذكرة الحفاظ 4 /1305 .
(11) ص 12 .
(12) انظـــــر ص 61 3.
(13) ترجمته في الغنية ص 230 ـ 231 .
(14) لم اقف على ترجمته ، ذكره محمد بن عياض في نوازل الاحكام ـ مخطوط الخزانة الملكية رقـــم (2052) ورقة (23 ـ أ) .
(15) ترجمته في الغنية ص 226 ـ 227 ، والتعريف بالقاضي عياض ـ تحقيـــق د. ابـــن شريفـــة ص 128 .
(16) انظر الغنية ص 191 ، والتعريف ص 121 .
(17) ترجمته في الغنية ص 99 ـ 100 .
(18) ترجمته في الصلة 1 / 287 .

7 ــ قاضي الجماعة ابو محمد عبد الله بن محمد بن منظــور (ت 469 هـ) (19) .

8 ــ الفقيه المشاور ابو اسحاق ابراهيم بن جعفر اللواتي (ت 513 هـ) (20) .

9 ــ ابو القاسم عبد الرحمان بن محمد بن عبــد الرحمان بن العجوز ، قال فيه : (تقدم ذكــر سلفهم ــ على ترتيب طبقاتهم ، وجلالتهم فــي العلــم ..) (ت 522 هـ) (21) .

10 ــ الفقيه ابو علي الحسن بن سهل الخشني ، من اصحاب ابي عيسى وعلائقهم ، اخذ عن ابــي عيسى ، وابي اسحاق ، ابراهيم بن احمد بن عبد الله ، ورحل فاخذ عن الصدفي ، وسمع عليه كتبه ، وعن ابي جعفر ، واستحسن اهل مرسية عقله وصيانته ، قدمه القاضي ابــو الفضل ــ يعني عياضــا ــ للشورى ، ودرس المدونة وكان مجلسه من احسن المجــالس واوعاها بخلاف المذهب ، جمع ما وقــع في المدونة من اقوال ابن القاسم وغيره ، وتكلم عليها ــ فيما اتفق واختلف ــ بكلام دقيــق ، حسن المعنى ، وكان حسن الطبع في الفتيا، حسن الخلق ، استحسنه النــاس لسعــة اخلاقه ، لم يزل على ذلك في الدرس والفتيا الى وقتنــا هــذا (22) .

واقتصر ابن حمادة من هــذه الطبقــة ، على الصفوة المختارة من اعلام سبتة ، واكثرهم ممن ولوا قضاءها ، وكان لهم فيها شأن وشأن !

وابن حمادة ــ في كتابة التراجم ــ له اسلــوب مشرق ، عليه مسحة الادب ، مع ايجاز في التعبير ، ودقة في المعنى ، بالاضافة ، الى ما يعطينا من الوان عن الحياة الفكرية والاجتماعية بسبتة في القرنين : الخامس والسادس للهجرة ، الحادي عشر والثاني عشر الميــلادي .

وبعد : فهذه صورة تعكس بعض اضواء عــن حياة مؤرخ اهمله التاريخ ، وعالم فذ انجبته مدينــة سبتة السليبة ، اقتبستها من مختصره ، الذي كان ، الى الامس القريب في حكم المفقود ، والامل يراودنا في العثور على كتابه الكبير « المقتبس في تاريــخ المغرب والاندلس » ــ ببعض خزائن البادية ، والدهر كفيل بذلك ، والله الموفق ، والهــادي الى اقــوم طريــــق .

سعيــد أعــراب

---

(19) انظر الصلــة 2 /518 .

(20) ترجمته في الغنية 286 ، والتعريف ص 121.

(21) ترجمته في الغنية ص 230 ــ 231 .

(22) يعني الى حدود منتصف القرن السادس الهجري ، وهو التاريخ الذي الف فيه ابن حمادة مختصره هذا . وقد ترجم ابن الابار لابي علي الحسن بن سهل الخشني في معجم أصحاب الصدفــي ، وذكر انه توفي في حدود (560 هـ) . انظر ص 75 .



صلاة

للأستاذ علال الهاشمي الخياري

يا الهي ... اضاء نـورك نـفـسي ... ان روحي في كـل حيـن تراكـا
لـك مني دقات قلبي نـداء ... يتسامى ... يدق بـاب حماكـا
وبعمقي نجـوى صـلاة تجلـت ... موكبا للضيـاء صـوب لقاكـا
ليس حـب الجمـال في القلـب ، الا ... من بهـاك اقتبستـه وهـواكـا
واذا ما سعيت ـ والعيش جهـد ـ ... انني قاصد بسعيي رضاكـا
انت الهمتني ... فغنـاك قلبـي ... اين مني ، ومن غنائـي ، مداكـا ؟

* * *

يا الهي ... ابصرت حكمك عـدلا ... وتلمست في ضميري صداكـا
انت ان شئت فالحيـاة سـلام ... يغمر العالمين فيـض سناكـا
ما لهذا الانسان يسكنـه الحقـ ... ـد ، ويزداد للحقـوق انتهاكـا ؟
حبك السامي ... لو يكون شعـارا ... ما راينـا تناحـرا وهـلاكـا
تتجلـى آيـات ملكـك تهـدي ... كـل نفس الى طريـق هداكـا
غمرتنا هبـات فضلـك ، انـا ... ما خلقنـا الا لشكـر نداكـا
واذا حـاد عن هـداك جحـود ... وتمـادى مؤلهـا ما سواكـا
واذا مـا السراب غـر عقـولا ... فتنـزت ... والعقل بعض عطاكـا
واذا ما الهـوى تحكـم في النفـ ... ـس ، فهامت تحيرا وارتباكـا
رب سامح سلالة الطيـن ، واغفـر ... انت ، يا رب ، واحد في علاكـا

وحدة المسلمين ، يا رب ، أسمى … أمل ، كي تجث كيد عداكا
ويعود القدس الشريف . وتعلو … راية الحق في جميع ثراكا
ويعم السلام والعدل في الار … ض ، ولا يستجاب الا نداكا
في سناك المضيء تنمو روابينـ … ـا ، فيا فرحة الذي قد رجاكا
نحن ندعو الى سبيلك بالحـ … ـق ، ولسنا نريد غير رضاكا
لا نبالي ، وانت تمنحنا الامـ … ـن ، نخاخا منصوبة وشباكا

* * *

رب فالمومنون يرجون عفوا … لا تواخذ بذنبه من عصاكا
نحن ندري بان نصرك حق … وارنا عيش الحياة عراكا
غدنا في يديك ، ثبت خطانا … وانر دربنا بفيض ضياكا

علال الهاشمي الخياري

آراء وابحاث علمية عن :

يوم القيامة

للأستاذ الحسن السائح

الايمان باليوم الآخر وبيوم الدين وبالقيامة جزء لا يتجزأ من الايمان .. فمن انكره او شك فيه او ارتاب فهو كافر ... ولكن يجب ان تعطي الدليل والبرهان العقلي بجانب الدليل الشرعي زيادة في الاطمئنان ، فما احسن ان يولد العقل ونفهم ما جاء في الشرع من نصوص لانه العقل يجب ان يناقش النص الشرعي الثابت ، ولكن لان العقل يجب ان يفهم ويدرك والايمان هو ادراك بالحدس والبصيرة . فاذا ايد العلم الدين وان ذلك زيادة في الاطمئنان وساقتبس من آراء بعض العلماء المختصين المعاصرين ما يؤيد البعث والنشور واليوم الآخر .

وقد سلف ان كتبت عن مشاهد القيامة في الاحاديث والسنة وفي دلالة الكلمات والتعابير الحديثية عن وصف لمشاهدة القيامة ما يساند مشاهدة القيامة في القرءان الكريم كما كتبها السيد قطب ... واللغة العربية في وصفها للجنة والنار وكل ما يصل بالقيامة دالة على واقع موصوف لا شك فيه ... والحقيقة ، قد تصل اليها عن طريق اللغة نفسها حين تعبر بصدق عن واقع صادق لا ريب فيه، وقد كتب الشاعر ابو العلاء المعري (رسالة الغفران) مستوحيا من القرءان الكريم صورة ادبية بديعة كانت اساسا ما كتبه ابن شهيد في التوابع والزوابع لا ما كتبه (دانتي) في المهزاة الالاهية . ان دلائل (البعث) والقيامة في شأن التفكير الحديث من الفزارة والقوة حتى ليصعب حصرها .. وان العلم الذي يقرر ما جاء في القرءان الكريم (وما كنا لاعبين) هي أن العمل الانساني هادف لغاية ولذلك عاشت الفلسفة في البحث عن الشمولية والكلية .

ان البحث العلمي لموضوع (القيامة) يفتقر الى تعريف حقيقة الموت ما هي ... فلقد فصل القرءان الكلام في (موضوع الموت) وعما اذا كان الانسان يعيش حياتين والموت ميتين والسؤال العلمي دائما يبحث عن الموت عما اذا كانت هناك ما يقرب من مائتي اجابة عن هذا السؤال الخطير ، الذي كثيرا ما يطرح في المجالس العلمية منها :

(فقدان الجسم لفاعليته) ، انتهاء عملية الاجزاء التركيبية) ، (تجمد الانسجة العصبية) ، (حلول المواد الزلالية القليلة الحركة محل الكثيرة الحركة منها) ، (ضعف الانسجة الرابطة) ، (انتشار سموم « بكتريا » الامعاء في الجسم) ... وما الى ذلك من الاجابات التي تتردد كثيرا حول ظاهرة الموت .

يقول الماديون لا حياة بعد الموت ، لان الحياة التي اعرفها لا توجد الا في ظروف معينة من تركيب العناصر المادية . وهذا التركيب الكيماوي لا يوجد بعد الموت ، اذن : فلا حياة بعد الموت) .

ويعتقد (ت. ر. مايلز) بأن : « البعث بعد الموت حقيقة تمثيلية ، وليس بحقيقة لفظية » . ثم

يضيف قائلا : « انها قضية قوية عندي ان الانسان يبقى حيا بعد الموت ، وهذه القضية من الممكن – لفظيا – أن تكون حقيقة ، وهي قابلة لاختبار صحتها او بطلانها بالتجربة ، ولكن المسألة الرئيسية في طريقنا هي اننا لا نملك وسيلة لمعرفة الاجابة القطعية عن هذا السؤال الا بعد الموت ، ولذلك يمكننا ان « نقيس » وحيث ان قياسه لا يصدق هذه القضية فهي ليست بحقيقة لفظية . وقياسه كما يلي : بناء على علم الاعصاب لا يمكن معرفة العالم الخارجي ، والاتصال به ، الا عند ما يعمل الذهن الانساني في حالته العادية ، واما بعد الموت فهذا الادراك مستحيل نظرا الى بعثرة تركيب النظام الذهني » .

ولكن هناك قياسات اخرى اقوى من هذا القياس ، وهي تؤكد ان بعثرة الذرات المادية في الجسم الانساني لا تقضي على الحياة ، فان « الحياة» شيء آخر ، وهي مستقلة بذاتها ، باقية بعد فناء الذرات المادية وتغيرها . ومن المعلوم ان الجسم الانساني يتألف من أجزاء (ذرات) تسمى (الخلايا) ومفردها خلية وهي ذرات صغيرة جدا ومتعددة ، يزيد عددها في الجسم الانساني العادي على : 260.000.000.000.000.000 خلية . ويبدو ان هذه الخلايا مثل الطوب الصغير ينبني منه هيكل اجسامنا . ولكن الفرق بين طوب اجسامنا والطوب الطيني شاسع جدا .. فطوب الطين الذي يستخدم في العمارات يبقى كما هو نفس الطوب الذي صنع في المصنع واستخدم في البناء للمرة الاولى ، بينما يتغير طوب هياكلنا في كل دقيقة ، بل في كل ثانية ، ان خلايا اجسامنا تنقص بسرعة ، كالآلات التي تتآكل باحتكاكها واستهلاكها ، ولكن هذا النقص يعوضه الغذاء ، فهو يهيء للجسم قوالب الطوب التي يحتاج اليها بعد نقص خلاياه واستهلاكها . فالجسم الانساني يغير نفسه بنفسه بصفة مستمرة ، وهو كالنهر الجاري المملوء دائما بالمياه ، لا يمكن ان نجد به نفس الماء الذي كان يجري فيه منذ برهة ، لانه لا يستقر ، فالنهر يغير نفسه بنفسه دائما ، ومع ذلك فهو نفس النهر الذي وجد منذ زمن طويل ولكن الماء لا يبقى ، بل يتغير .

وجسمنا مثل النهر الجاري ، يخضع لعملية مستمرة ، حتى انه يأتي وقت لا تبقى فيه اية خلية قديمة في الجسم ، لان الخلايا الجديدة اخذت مكانها هذه العملية تتكرر في الطفولة والشباب بسرعة ، ثم تستمر بهدوء ملحوظ في الكهولة ، ولو حسبنا معدل التجدد في هذه العملية فسوف نخرج بأنها تحدث مرة كل عشر سنين . ان عملية فناء الجسم المادي الظاهري تستمر ، ولكن الانسان في الداخل لا يتغير بل يبقى كما كان : علمه ، وعادته ، وحافظته ، وامانيه، وافكاره ، تبقى كلها كما كانت . انه يشعر في جميع مراحل حياته بانه هو الانسان السابق الذي وجد منذ عشرات السنين ، ولكنه لا يحس بأن شيئا من أعضائه قد تغير ، ابتداء من اظافر رجليه حتى شعر رأسه .

ولو كان الانسان يفنى بفناء الجسم ، لكان لازما ان يتأثر على الاقل بفناء الخلايا وتغيرها الكامل ، ولكننا نعرف جيدا ان هذا لا يحدث ، وهذا الواقع يؤكد ان « الانسان » أو « الحياة الانسانية » شيء آخر غير الجسم ، وهي باقية رغم تغير الجسم وفنائه ، وهو كنهر مستمر فيه سفر الخلايا بصفة دائمة ، وهذا هو الامر الذي دعا عالما ان يصف الانسان : بشيء مستقل بذاته ، وباقي غير متغير ، رغم التغيرات المتسلسلة . فهو يعتقد : « ان الشخصية هي عدم التغير في عالم التغيرات » ولو كان الموت فناء « الانسان » ، فمن الممكن ان نقول بعد كل مرحلة من مراحل حدوث هذا التغير الكيماوي الذي يجري في الجسم ان الانسان قد مات ، وانه يعيش حياة اخرى جديدة بعد موته ! ومعناه ان الرجل الذي أراه في الخمسين من عمره ، وهو يمشي في الشارع على رجليه ، قد مات خمس مرات في هذه الحياة القصيرة ، فاذا لم يمت هذا الانسان بعد فناء اجزاء جسمه المادية خمس مرات ، فكيف أستطيع ان اعتقد بانه مات في المرة السادسة على وجه اليقين ؟ ولا سبيل له الآن الا الحياة ؟

ان بعض الناس لن يسلموا بهذا الاستدلال ، وسيقولون : ان العقل او الوجود الداخلي الذي نسميه ((انسانا)) ، ليس بشيء آخر ، ولم يوجد الا نتيجة علاقة الجسم بالعالم الخارجي ، وان الافكار والاماني لا توجد خلال العمل المادي الا كالحرارة التي توجد نتيجة احتكاك قطعتين من حديد !

ان الفلسفة الحديثة تنكر (الروح) بشدة ، ويعتقد السيد جيمز : ان (الشعور) لا يوجد كوحدة وانما هو وظيفة ، وتفاعل وتنسيق .

وقد اصر الكثيرون من فلاسفتنا المحدثين على ان (الشعور) في ذاته ليس الا التفاعل والرد العصبي لما يحدث من حركة ونشاط في العالم الخارجي . وبناء على هذه النظرية لا مجال للتساؤل عن امكان الحياة بعد الموت ، نظرا للتحليل النظامي الجسماني، ولان المركز العصبي في الجسم لم يعد له وجود ، وهو الذي كان يتفاعل وينسق مع العالم الخارجي ، وهم يعتقدون بناء على هذا ان نظرية الحياة بعد الموت اصبحت غير ذات اساس عقلي او واقعي سوف اقوله : انه لو كانت هذه هي حقيقة الانسان ، فلنجرب ان نخلق انسانا حيا ذا شعور ، ونحن ـ اليوم ـ نعرف بكل وضوح جميع العناصر التي يتالف منها جسم الانسان وهذه العناصر توجد في الارض وفي الفضاء الخارجي ، بحيث يمكننا الحصول عليها ، وقد علمنا دقائق بناء النظام الجسماني ، وعرفنا هيكله وانسجته ، ولدينا فنانون مهرة يستطيعون ان يصنعوا اجساما كجسم الانسان ، بكل مواصفاته ، فلنجرب ـ لو كان معارضوا الروح يصرون على حقيقة مبدئهم ـ ولصنع مئات من امثال هذه الاجسام ، ولنضعها في شتى الميادين ، في بقعة الارض الفسيحة ثم لننتظر ذلك الوقت الذي تمشي فيه هذه الاجسام وتتكلم وتاكل « بناء على تاثيرات العالم الخارجي » ! ؟ فهذا عن امكان بقاء الحياة بعد الموت .

فما الذي جعلنا ننظر الى الكائن الحي ككل وليس كمجموعة من الافراد المكونة له ؛ يحاول الكاتب سوليفان في كتابه حدود العلم الذي ترجع فقرات منه الى عماد الدين خليل ان يحلل ذلك فيقول : ما الذي يجعلنا ننظر الى الكائن الحي ككل وليس كمجموعة من الاجزاء المكونة له فحسب ؟ ما الذي تعنيه تلك الفكرة الغامضة التي نعبر عنها (بالكل) او (التفرد) حتى لو امكن تفسير كل فعالية او نشاط يقوم به الجسم الحي عن طريق التغييرات الفيزيائية التي يحدثها ، فان ذلك لا يعطينا الاجابة المطلوبة ما لم يؤخذ بعين الاعتبار (النظام الفائق) لتلك التغييرات . على ان (الغرض) او (الغاية) في حد ذاتها ليست فكرة علمية بمعنى انها لا تستخدم في علوم الفيزياء والكيمياء ، وان غالبية المشتغلين في علوم الاحياء ، او على الاقل في علم الفيزياء الحيوية ، لا يستسيغون ادخال اية افكار لم تثبت ضرورتها بالنسبة لتلك العلوم . ان مثل هذا العمل هو بلا شك اجراء جيد فيما يتعلق بمعالجة اصناف محدودة ومعينة من المشكلات او القضايا . لكنه يبدو ايضا وكأنه يقودنا الى نتيجة مؤداها ان اهم قضايا علم الاحياء واشدها بروزا لم يتناوله الدرس والتحليل بعد . لقد كان البروفيسور (وايت هيد) منصفا عندما أشار الى هذه الحالة في معرض حديثه عن تطبيق افكار الفيزياء والكيمياء على الحياة حيث قال : (لا بد من الاعتراف بان هذا الاسلوب ـ يقصد تطبيق أفكار الفيزياء والكيمياء على الظواهر الحية ـ قد لاقى نجاحا مرموقا . لكن المشكلة وهي هنا تفهم العمليات التي يقوم بها الجسم الحي ، لا يمكن ان تحدد بواسطة الاسلوب الذي تعالج به . ومن الواضح تماما ان هناك عمليات معينة تقوم بها بعض الاجسام الحية بناء على تصور مسبق لغاية ما ، وتصور طريقة معينة لبلوغها وتحقيقها . ولا يمكن حل المشكلة اذا جرى تجاهل فكرة الغاية لمجرد ان هناك عمليات اخرى يقوم بها الجسم الحي ويمكن تفسيرها في نطاق قوانين الفيزياء والكيمياء . ان وجود المشكلة في حد ذاته لم يعترف به ، بل جرى رفضه باصرار. لقد اجرى العالم ماني تجارب طويلة بقصد تعزيز اعتقاده بان العمليات التي يقوم بها الجسم الحي ليست مستوحاة من فكرة الغاية . وامضى العالم المذكور الكثير من وقته لكتابة المقالات التي اراد من ورائها ان يثبت ان فكرة الغرض او الغاية غير ذات موضوع فيما يتعلق بتفسير النشاط الجسدي للكائنات البشرية ، شأن بقية أنواع الحيوانات ؛ وذلك بما فيه اعمال هذا العالم نفسه ومقالاته . ان ملاحظة أولئك العلماء الذين يعملون للتدليل على ان اعمالهم لا مغزى لها ؛ ولا غرض من ورائها ، لامر جدير بالدراسة والاهتمام .

ويرى علماء الاحياء ان هناك مفاهيم اساسية من الظواهر الفيزيائية تبرز وجود الصلة النهائية ولكن عقولنا لم تدركها بعد . اذا فان الاتهامات التي تنطوي عليها اقوال وايت هيد لها ما يبررها بالتأكيد. اننا نحس المرة تلو المرة بان المفاهيم الاساسية التي يستخدمها علماء الاحياء ليست كافية لمعالجة اهم المشاكل التي تواجههم . ان نظرية الانتقاء او الاصطفاء الطبيعي على سبيل المثال ، لتبدو مليئة بالفجوات عندما تدرس بالتفصيل. ان المرء ليتقبل بسهولة ، وبشكل عادي ، التفسيرات الفيزيائية المحضة على سبيل المثال ، ولكن لا بد له

من بذل مجهود عظيم حتى يستطيع الاعتقاد ، ولو مؤقتا ، بأن جميع التطورات التي حدثت للكائنات الحية على ظهر هذا الكوكب جاءت نتيجة (لتغييرات عشوائية) وللصراع من أجل البقاء ، ان نظرية الاصطفاء الطبيعي لا تفسر ولو من جانب بعيد أكثر الحقائق وضوحا فيما يتعلق بالعملية كلها ، ونعني بذلك اتجاه الكائنات الحية نحو الارتقاء. فلو ان مجرد البقاء كان المطلب الوحيد ، فان نوعا من الحياة البدائية يبدو لنا كافيا ليوفي بالفرض . ويبدو لنا في هذه الحالة ايضا انه لن يكون هناك ما يستدعي حتما ظهور هذا النوع من الحياة البدائية ، لان مثل هذه الحياة لا يجري لها منافسة الصخور والجمادات في الاستمرار والبقاء ، ان الانطباع الذي يراودنا بين وقت وآخر ، هو ان علماء الحياة لا يستطيعون الافتراض بأن التقدم الفعلي للاحياء يمكن ان يفسر ضمن شروطهم التي يتمسكون بها ، اللهم الا من قبيل الايمان الخارق . ويوجد بالطبع بين علماء الحياة من ينكر ان مثل هذا النوع من التفسير امر ممكن ، وقد ادخل هؤلاء بعض الافكار الجديدة مثل (القوة الحيوية) و (قوة التحقق) او (الروح) وما الى ذلك. لكنهم لن ينجحوا في تعريف هذه المصطلحات وتحديد مضامينها بحيث يمكن استخدامها في الاغراض العلمية . وبقيت المصطلحات شاهدا على ان المفاهيم الاساسية الحاضرة لعلم الحياة غير كافية .

فهاهنا نجد :

اولا : صعوبة تفسير النشاط الحيوي بعيدا عن النظام الغائي ، الذي يضبط انشطته ويسيرها الى هدفها المرسوم .. ومحاولة غير مجدية من علماء الحياة لاستبعاد الغائية واعتماد اساليب العمل في حقول الفيزياء والكيمياء والتي ترفض الاتكاء عليها .. تلك الاساليب التي قد تحقق بعض النجاح ولكنها لا تحل المشكلة من اساسها .. اذ يبقى التعامل مع الحياة هو غيره مع الذرات والجزئيات ، ومن ثم يطرح (وايت هيد) تحفظه حول ضرورة الاعتراف، بشكل او بآخر ، بوجود تصور مسبق لغاية ما يفسر العملية الحيوية.

لقد اراد هولدن وهو من العلماء المشهورين في (علوم الاحياء) ان يرى بجانب تطور الحياة قوة خصبة ملازمة له كملازمة العقل للدماغ فقال :

ونلتقي بمحاولة اخرى يقوم بها ج. ب. س. هملدن احد المع علماء الحياة المحدثين ، في احدى مقالاته : (انني لاتصور وجود قوة تلازم خط تطور الحياة ملازمة العقل للدماغ . لقد حاول رويس في عام 1901 اعطاء صورة محددة لهذه القوة ، وذلك كعقل ذي ابعاد زمانية هائلة . وذكر ان الاحساس القوي الذي يلازم عملية التجدد موجود في ذلك العقل ووجوده في عقولنا . واذا كانت هذه الاقوال تنطوي على عنصر من عناصر الحقيقة ، فانني اشك في ان تكون تلك القوة ذات طبيعة مشابهة لطبيعة العقل . ان شكي في امكانية وجود نوع من الكائن المجهول يلازم عملية التطور يعود الى الاعتراف بجمال مثل هذا الكائن وبغرابته التي لا تنقضي ، تلك الغرابة التي تشكل الميزة التي ظللت استشعرها خلال عشرين عاما قضيتها في العمل العلمي الدائب : (ص 9 — 10) .

فكأنه ، وهو العالم يتحدث بلسان هيغل الفيلسوف ، الذي تقود محصلة فلسفته الى القول بالعقل الكلي للعالم ، والذي يتحرك التاريخ وفق توجيهه ، وتعبر الدول والحضارات عن مشيئته ، ويغدو الابطال ادوات بيديه .. والصيرورة التاريخية هدفها تحقيق ما يسميه هيغل بتجلي المتوحد .. الانطباق الهندسي الباهر بين التاريخ وبين مشيئة العقل الكلي هذا .

ما هي طبيعة هذا العقل ؟ اين يقع ؟ كيف يعمل ؟ لا احد يدري ... تماما كما ان هولدن نفسه لا يدري طبيعة العقل (الذي يتميز بالغرابة) التي استشعرها طيلة عشرين عاما من العمل العلمي المتواصل .. وهكذا وصفت فلسفة هيغل المثالية بانها تمشي على راسها .. ولا ندري بماذا يمكن ان توصف فكرة هولدن هذه .

والامر في حقيقته ليس بهذه البساطة التي يريد هيغل (متعمدا) ان يصور بها قضية خطيرة كالغائية .. انه بهذا المثال ، يقتطع من وقائع العالم جزئية صغيرة يريد بها ان يفسر كنه العالم ولا غائيته باسلوب كاريكاتيري ساخر .. ومعروف منطقيا ان الحكم على الكل من خلال جزئية من جزئياته امر يجانب الصواب ، انه كمن يقتطع شريحة من لحم مخلوق ما يريد بها ان يفسر بها نشاطه البيولوجي الوظيفي وحتى العقلي ، او كالذي يقتطع

تعبيرا من قصيدة أو مساحة من عمل فني لكي يحكم من خلاله على مجمل العمل وملامحه النهائية .

ان البداية التاريخية نفسها ، توام الديالكتيكية تجد نفسها مسحوقة الى نوع من الغائية يتحرك من خلالها التاريخ نحو الاحسن ، وهي لو اعطت الجماعة البشرية ، او الطبقة ، الحرية المطلقة في صياغة ظروفها التاريخية وصنع مستقبلها لذهبا معها الى رفض الغائية ، ولكنها تمنح مساحة واسعة في امداد التاريخ لما تسميه بالضرورة التاريخية ... الحتمية التاريخية .. وما دام الامر كذلك .. ما دام ان هناك شيئا ما خارج وعي الانسان وارادته يتحرك بعقلانية صوب الاحسن فلا بد ان في الامر غاية ما ، قوة ما ، هي التي تسير التاريخ ، وفق المادية التاريخية حتى بالنظريات والرؤى التي تطرحها المناهج العلمية ، فالفردية في الوقت ما كان التشكيك بها يعد كفرا بواحا ومروقا عن حظيرة العلم ، والمادية التاريخية اليوم يعد نقدها بالنسبة لقطاع واسع من المثقفين المقلدين ، خروجا عن الاسلوب العلمي وضربا في الخرافة ، هذا بالنسبة لنتائج البحث فكيف بالنسبة للمنهج نفسه ؟ .

الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى

●● تعززت المكتبة الادبية المغربية بصدور الجزء الاول من كتاب (الوافي بالادب العربي في المغرب الاقصى) للاستاذ الكبير السيد محمد بن تاويت الاستاذ بكلية الآداب بجامعة محمد الخامس . يقع هذا الجزء في 358 صفحة من الحجم الكبير . وصدر عن دار الثقافة بالدار البيضاء ●

الخطوات الحسنية
في سبيل إحياء القيم الاسلامية

للدكتور يوسف الكتاني

ان المؤرخ لحياة الحسن الثاني ، والدارس لسيرته ، والمتتبع لخطواته ، واسلوب حكمه ، يلاحظ في جلاء ووضوح ، أن خط سيره مستقيم ، على سنن واضح ، سار عليه الآباء بعد الاجداد ، مع تحديث وتجديد ، ومراعاة لظروف العصر وامكاناته واحداثه .

ان هذا الخط الواضح المستقيم ، يمتد على معالم اسلامية ، ومراحل تجديدية ، هدفها قيام الاسلام واحياء معالمه ، وبناء نظام الدولة على هديه وتوجيهاته ، لانه أساس المنطلق الصحيح والغاية المثلى ، وهو الملاذ الوحيد من كل ادواء العصر وماديانه ، وشواغله وملهياته ، التي تصد عن الهدف، وتعترض السبيل ، وذلك ظاهر بين من جهود هذا الملك وخطواته ، ومراميه واهدافه .

ولنبدا معه المسيرة منذ ان ولاه الله امر هذه الامة ، واختاره لقيادتها والسير بها في مدارج الكمال ، وقد احببت في هذه المناسبة ان اتحدث عن بعض جهوده واعماله في هذا الميدان ، تدليلا على ما قلت ، وتمثيلا لما رميت .

1 ـ الدستور والاسلام :

لم يكد الحسن الثاني يتسلم مقاليد الحكم ، حتى بادر باتخاذ دستور للبلاد ، ينظم ممارسة السلطة ويشرك الشعب في الحكم ، وكان أول ما افتتح به الدستور ، هو النص على ان المملكة المغربية دولة اسلامية (1) كما نص الدستور على ان الاسلام دين الدولة (2) تأكيدا لواقعنا الحي ، واقرارا وتسجيلا للحقيقة الازلية التي اختارها الله لصلاح خلقه ، حينما قرر أن الدين عند الله الاسلام .

ولعل بعض الناس في المغرب يعجبون من اعتبار الاسلام دين الدولة في الدستور ، ميزة مغربية وريادة اسلامية ، ولكن الدارسين للقانون الدستوري في البلاد العربية ، والمطلعين على دساتيرها وقوانينها ، يجدون أغلب تلك الدساتير تفقد هذه المزية ، اذ ان اغلب واضعي دساتيرها لم يجدوا الشجاعة لاقرار هذا الفصل وهذا النص ، ذلك أن دساتير بعض الدول لم ينص على دين الدولة لاعتبار او آخر ، وبعضها اكتفى باعتبار الاسلام احد مصادر التشريع ، وهو اجحاف كبير بحق المسلمين ، وغمط

(1) جاء هذا في تصدير كل الدساتير المغربية الثلاثة : 1962 ـ 1970 ـ 1972 .
(2) الفصل السادس في كل من الدساتير الثلاثة .

لحقيقة شعوبنا المسلمة لا يكاد يغير من الحقيقة القائمة شيئا .

اما عندنا في المغرب ، وفي الجناح المغربي من دولة الاسلام ، فلم يشذ دستور من دساتيرنا ، عن التشبث بهويتنا ، والتنصيص على اسلامية الدولة والنظام ، وطبعهما بطابعه الخاص ، وآية ذلك اننا الدولة الاسلامية الوحيدة التي سمى دستورها ملك البلاد امير المؤمنين (3) وهو لقب اسلامي كان اول من سمى به الخليفة عمر الفاروق واحياه المغرب وحافظ عليه بكل مظاهره واعتباراته .

2 ـ انشاء دار الحديث الحسنية :

لقد اسس الحسن الثاني دار الحديث الحسنية سنة 1964 في اولى سنوات حكمه ، على تقوى من الله ورضوان ، وشرفها باسمه الكريم ، تحقيقا لامنية عزيزة عليه ، وشعورا منه بالدور العظيم والرائد الذي قامت به جامعة القرويين طوال تاريخ بلادنا ، مما جعلها وجه المغرب المشرق ، وعنوان حضارته ومظهر كماله .

ولذلك رمى من تاسيسها تحصين مقوماتنا الروحية ، وصون تراثنا الاسلامي واستمرار عطائه ومدده ، حتى يتخرج منها علماء يكونون الاطر العليا في العلوم الاسلامية ، وتواكب دار الحديث فجر النهضة المغربية ، وتكون مركزا علميا جديدا ، وعاملا من عوامل التقدم العلمي في بلادنا ، ومنارا يهتدى به المسلمون في كافة ارجاء العالم الاسلامي (4) .

لقد حققت دار الحديث الحسنية نتائج باهرة ، وقدمت للمغرب والمسلمين عطاء رائعا ، رغم انها ما تزال في بداية حياتها ، وفي اولى خطوات مسيرتها ، فخرجت اكثر من ثلاثمائة اطار علمي عال ، وقدمت للامة سبعين من حملة ديبلوم الدراسات العليا في العلوم الاسلامية ، وتسعة من حملة دكتوراه الدولة .

لقد كان تأسيس دار الحديث الحسنية خطوة جبارة من الخطوات الحسنية ، وحدثا عظيما في تاريخ الاسلام المعاصر تفردت به بلادنا ، وهي الآن في مسيس الحاجة الى الدعم العظيم من مؤسسها وراعيها لتامن العراقل وتتخطى الحواجز .

3 ـ المسيرة الخضراء :

لقد كانت سنة 1975 فتحا في تاريخ المغرب والمسلمين ، وذلك عندما دعا الحسن الثاني شعبه الى مسيرة خضراء ، لتحرير الصحراء بالطرق السلمية ، كانت طريق الكرامة والنصر والاعتزاز بمغربيتنا وتحقيق وحدتنا الوطنية .

لقد كانت المسيرة زحفا مقدسا لم يشهد له التاريخ مثيلا ، خلقت مغربا جديدا في حدوده وسياسته وسلوكه الدولي ، فقد كان قوامها الايمان والتضحية والجهاد والتطوع والتعبئة والتنظيم .

لقد تاسى الحسن الثاني ، في المسيرة الخضراء بالرسول عليه الصلاة والسلام ، عندما خرج في السنة السادسة للهجرة ، على راس المهاجرين والانصار عام الحديبية قاصدا مكة المكرمة لاداء المناسك واقامة المشاعر ، وساق معه الهدى ، واحرم بالهجرة ليأمن الناس من حربه ، وليعلموا انه انما خرج زائرا للبيت الحرام ، ومعظما له قائلا في تصميم : « فو الله لا أزال أجاهد على الذي بعثني به، حتى يظهره الله ـ أي الاسلام ـ وتنفرد هذه السالفة» فكان صلح الحديبية ، وكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة . وانزل الله عليه عند منصرفه من مكة آتيا المدينة ، « انا فتحنا لك فتحا مبينا » الآية .

وعند ما قام المغاربة بمسيرتهم الخضراء بقيادة ملكهم ، انما صدروا عن راي الاسلام ، وسنة الاسلام، وتوجيهات الاسلام ، الذي عرف طوال تاريخه المجيد بانه دين سلم ومسالمة ، وان المسلمين لم يجأوا الى الحرب الا اضطرارا ، وفي حالة الدفاع عن النفس ، وعندما تنعدم الوسائل السلمية ، او لا يبقى لها جدوى خصوصا وان الاسلام في جميع ادوار تاريخه ، سواء في مكة او في المدينة او في غيرهما ، لم يعول الا على الحجة ، ولم يلجا الى السيف الا دفاعا ، وهذا تاريخ انتشار الدعوة الاسلامية ، شاهد قائم ، بأن الحرب في الاسلام طارئة عارضة ، وأن السلم قاعدة

(3) الباب الثاني من الدساتير الثلاثة في الفصل 19 من كل منها .
(4) بيان جمعية العلماء خريجي دار الحديث الحسنية الصادر بتاريخ دجنبر 1981 .

دائمة ، ولذلك قامت العلاقات الدولية بين الدولة الاسلامية وغيرها من الدول ، على اسس السلام الدائم بين البشر لا ينقصه الا العدوان وحده ، والغدر ونقض المواثيق والعهود .

لقد كان قرار المسيرة الخضراء اختيارا أساسيا وخطة حكيمة ، أثارت دهشة العالم واعجابه، واكدت العبقرية المغربية والتوفيق الحسني ، في انتهاج هذه الخطة السياسية السليمة الرائعة ، فـي مثل هذه الظروف وفي هذا العصر ، الذي مل الناس فيه الحرب والاضطراب والفتن ، وبذلك ستبقى مسيرتنا الخضراء ، حدث العصر وملحمة القرن، سواء في اختيارها وتنظيمها ونظامها ، واعجاب المجتمع الانساني بها ، والتفاف الشعوب والدول من حولها ، رغم كيد الكائدين وحسد الحاسدين (5) .

ولقد جاءت صلاة الشكر التي ادتها جموع المسيرة الزاحفة ، بمجرد ما وطئت أقدامهم ارض الصحراء ، فتحا كريما واعلانا مبينا ، بأن الشعب المغربي شعب مسلم ، يتأسى برسوله وبنبيه ، سننه وتعاليمه .

وإذا الحسن بدا فانظر له

فصلاة الشكر فرض يا اخي (6)

4 ــ المجالس العلمية :

من هذه الخطوات الرائعة ، والجهود الكريمة ، في سبيل احياء القيم الاسلامية ، والعودة الى تطبيق الشريعة الاسلامية ومزيد التعلق بها ، احتفل الحسن الثاني بمطلع القرن الجديد ، واستقبله باصدار ظهير تجديد وتنظيم المجالس العلمية ، وتحديد اختصاصها :

1 ــ باحياء كراسي الوعظ والارشاد والتثقيف الشعبي بالمساجد والسهر على سيرها .

2 ــ وتوعية الفئات الشعبية بمقومات الامة الروحية والاخلاقية والتاريخية وذلك بتنظيم محاضرات وندوات ولقاءات تربوية .

3 ــ والاسهام في الابقاء على وحدة البلاد في العقيدة والمذهب في اطار التمسك بكتاب الله وسنة رسوله .

4 ــ والعمل على تنفيذ توجيهات المجلس العلمي الاعلى الذي يتولى رئاسته بنفسه (7)

وعندما قام الملك بتعيين اعضاء تلك المجالس ورؤسائها ، وجههم الى ما ينبغي لهم عمله ، ودلهم على الخطة السديدة التي يلتزمونها ويتوخونها ، وقد كان في توجيهاته وتنبيهاته مجددا ورائدا ، رمى فيها الى اشعار الرؤساء والاعضاء ، الى انه ينبغي لهم أن يبادروا الى القيام بما أسند اليهم من عمل ومهام ، ولكن بأسلوب العصر وحركته وتطوره وظروفه ، حتى لا تصاب المجالس بالجمود والركود حيث خاطبهم بقوله :

« فعلى مجالسنا العلمية أن لا تبقى منحصرة في نواقض الوضوء وموجبات الغسل ، عليها أن تواجه الغزو الخارجي والغزو المادي وحتى تعرف بالاسلام وخصاله وفضائله وتساهله ، أقول تساهله . لان الدين يسر وليس بعسر ولن يشاد أحدكم هذا الدين الا غلبه فبشروا ولا تنفروا وافتحوا قلوبكم لكل سائل وافتحوا ادمغتكم حتى تجلسوا معه على مستواه الاجتماعي والفكري والسني .

فاذا انتم ــ رعاكم الله ــ تحصنتم بهذا وتحليتم بهذه الفضائل سوف ان شاء الله يظهر لنا من مجالسنا العلمية سواء التي كانت في القدم او التي

---

(5) المسيرة الخضراء سنة اسلامية للكاتب ــ مجلة الفنون ــ العدد الخاص بالمسيرة ص : 166 ــ 167 سنة 1975 .

(6) جاء هذا البيت في الخطاب الملكي الموجه للشعب في اثناء المسيرة لاعلان الشكر لله .

(7) الفصل الثامن من ظهير المجلس العلمي الاعلى والمجالس العلمية الاقليمية بتاريخ 3 جمادى الاخرة 1401 ــ 8 ابريل 1981 .

الشئث او التي ستنشأ ان شاء الله في القريب سيكون من هذه المجالس العلمية ما يكون » (8) .

لقد اراد الملك بهذه الخطوة العظيمة ، ان يستقبل المغرب القرن الهجري الجديد ، بعزيمة قوية ، وتوجه متوثب نحو دينه ومقوماته ، ليجدد مجتمعه ويعود به الى اصله كي تعود السيادة الكاملة للاسلام في جميع المجالات المغربية كعهده منذ القديم وطوال مراحل تاريخه الاصيل .

ان المهمة العاجلة للمجالس العلمية تتمثل في ملء الفراغ ، في عقول شبابنا وناشئتنا ورجالنا ، هذا الفراغ الذي كان يملؤه الاسلام بتعاليمه وتوجيهاته ، ونوره وضيائه ، واشراقه واسماحه ، والذي كانت المجالس العلمية عن طريق المسجد وحلقاته وكراسيه، تنشر العلم والمعرفة ، والايمان والنور ، والتوجيه والتسديد وخاصة في اوساط الصناع والتجار والحرفيين وارباب المهن ، وسائر الطبقات التي لم تسعفها الظروف للتعلم والتفقه في دينها .

ان ملء الفراغ الذي حلت محله هذه الايديولوجيات الغربية ، والافكار الاجنبية البعيدة عن بيئتنا وتربيتنا وعاداتنا ومقوماتنا ، وذلك بسبب الاستعمار الذي لم يستطع بكل وسائله وتآمره ، ان يقضي على الاسلام في هذه الديار ، وظلت عقيدتنا وديننا بفضل القرءان قائمة ثابتة ، لذلك كان ملء الفراغ في العقول والتوعية الصحيحة ، وبعث القيم الاسلامية الاصيلة ، وبعث الهمم للعودة الى سالف عهدها وماضيها المجيد ، كما كانت في جميع المجالس ، حتى تعود للمساجد حياتها وصولتها ، ويعود للعقيدة سيادتها ونهضتها في جميع مجالات حياتنا .

5 ـ الرسالة الحسنية في مطلع القرن الجديد :

من جميل المصادفات وبديع الموافقات ، ان يصدر الحسن الاول في مطلع القرن السالف رسالته التوجيهية الى الامة ، وان يوفق الله الحسن الثاني وينعم عليه ، فيصدر في مطلع هذا القرن الخامس عشر الهجري رسالته الملكية الى الامة المغربية والاسلامية جمعاء .

ولذلك اعتبر أن من حظ هذا الجيل ونعم الله عليه ، أن اتاح له ان يحيا ويطول عمره ، ليشهد نهاية قرن مضى بما كان مليئا به من مكائد ومغامرات، ومطلع قرن اقبل بما يحمل من مفاجآت التحديات ، وكل هذا يدعونا للتأمل والتدبر في الماضي القريب والبعيد ، والنظر بتفاؤل وعمق ، والتطلع الى آفاق المستقبل ، واستشراق احداثه ، والعمل بما يعود على الاسلام وحياة المسلمين بكل خير (9) .

لقد رسمت هذه الرسالة الملكية الخطوط العريضة لمستقبل المسلمين ، وما ينبغي لهم عمله ، والخطوات التي ينبغي ان يخطوها والجهود التي ينبغي أن يروموها ويسعوا في سبيلها من أجل بناء مجتمعهم من جديد على هدى الاسلام قرآنا وسنة متأسين بالرسول ، ومستلهمين سيرته الكريمة التي هي السلوك الاقوم الذي ينبغي ان تقوم عليه وأن تسير على هديه ، ولذلك نبه جميع المسلمين ، من باب النصح الواجب لهم ، بان عليهم أن يقدروا مسؤولياتهم جميعا ، كل في حدود اختصاصه وواجبه، ومن اجل هذا وتقديرا لهذه المسؤولية ، وجه رسالته الى ابنائه المغاربة ، والى اخوانه المؤمنين في سائر بلاد الاسلام باعتباره اميرا للمؤمنين وحامي حمى الملة والدين ، وقائدا من قادة المسلمين (10).

ان الاسلام أوجب على المسلمين ، من باب الاهتمام بامورهم ، والعناية بشؤونهم ، التناصح فيما بينهم ، لكون النصيحة هي الشرط الاساسي في صحة الانتماء الى الدين ، والتواصي بالصبر ، حتى يواجهوا بعزم وحزم ، جميع التحديات والازمات ، ويبذلوا اقصى الجهود واعظم التضحيات .

واذا كان الله بعث سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، بخاتمة الرسالات ودين الحق ، فهدى الى المحجة البيضاء ، فأدى الرسالة وبلغ الامانة ، فان على خلفاء المسلمين وملوكهم وأمرائهم وحكامهم ، ان يقوموا بالامانة التي طوق الله بها اعناقهم ، ووضعها

(8) من الخطاب الملكي الذي حدد فيه أهداف ومقاصد المجالس العلمية في عاشر رمضان 1401 .

(9) انظر الرسالة الملكية ص 2 .

(10) المصدر السابق ص 3 .

على عاتقيم ، وهي الذود عن الشريعة ، والحفاظ على الدين ، وحماية المجتمع الاسلامي من كل زيغ او ضلال (11) . وان هذه المسؤولية لتعظم في هذا القرن وتزداد ، بسبب ما اصاب المسلمين من استعمار وتسلط ، وما احاط به من تكالب وائتمار ، ولكن الله بالغ امره ومظهر دينه ، بحوله وقوته ومشيئته .

ولذلك اكدت الرسالة الملكية ، ان ملوك المغرب حافظوا على هذه الامانة ، ورعوها حق رعايتها ، سواء فيما وراء البحار ، او ما جاوره من الاقطار ، فنشروا دين الله ، وثبتوا معالمه ، ونشروا تعاليمه .

ذلك لان الاسلام دين الله الى البشرية جمعاء ، ولانه صالح لكل زمان ومكان ، ولان شعائره وشرائعه مؤسسة على تقوى من الله ورضوان ، فهو يقرر كرامة الانسان ، ولا يرضى له بالتعرض للذل والهوان ، وهو دين العلم والحرية ، والعدل والمسؤولية ، والشورى بين الراعي والراعية ، والوفاء بالعهود والمساواة والتيسير ، ومجافاة كل جمود وتكسير ، وهو دين الوحدة والعمل ، والتوحيد والامل ، وهو دين يلائم الفطرة السليمة وتنسجم مبادئه مع الطباع والعقول السليمة ، لذلك فهو يحل جميع الطيبات ، ويحرم كل الخبائث والمقوتات ، ويكفي هذا الدين كمالا وجمالا ، ان هدفه خدمة الفرد والجماعة وتبادل الافادة والاستفادة (12) .

ان من شان تعاليم هذا الدين وسمو اهدافه وغاياته ، ان تحقق لامة الاسلام كل عز وتطور ، وكمال وسمو ، ان هم التزموا مبادىء الدين واحكامه ، وطبقوا اوامره وتعاليمه ، لان فيها الخير للمسلمين ، وقد جعلها الله مناط تقدمهم ورفعتهم ، ان هم استوعبوها ، وادركوا مقاصدها وتفهموا اسرارها .

ان هذا يقتضي من الامة الاسلامية ، ان تعد العلماء الاكفاء ، والمفكرين الهداة ، المستوفين لشروط الاجتهاد ، وتكريس الجهود ، لاحياء تراث الاسلام ، وصياغته صياغة جديدة ، تجعله في خدمة جماهير المسلمين ، ومن اجل ذلك على الدعاة ، والعلماء ان يوحدوا الجهود والصفوف ، وعلى القادة والحكام ، والمسؤولين ان يفتحوا الطريق امام العلماء والدعاة ويشملوهم بالرعاية الكافية .

وعلى هؤلاء واولئك ان يعطوا القدوة الحسنة لمجتمعاتهم ورعيتهم ، بالعمل المفيد والقول السديد ، واسناد المسؤولية الى مستحقيها ، ومحاسبة كل من يخرج على حدودها ، وبالتمسك بالخلق الكريم ، والسلوك القويم ، واقامة معالم الخير والبر ، ونشر الفضيلة والمروءة ، وضمان العدل والاحسان ، تحقيقا لخيرية هذه الامة والفضل العظيم الذي حباها الله به (13) .

ان على الامة الاسلامية والمسؤولين فيها خاصة ، ان يحسنوا التصرف فيما وهب الله هذه الامة من مركز ممتاز ، وما حباها من ثروات وخيرات ، وان يصرف ذلك كله فيما يعود بالنفع والفائدة على مجتمعاتهم والتقدم والتطور والخير .

وعلى المسلمين مواصلة الدور الحضاري الذي القاه الاسلام على عواتقهم ، وقام بواجبه سلفنا الصالح خير قيام ، وذلك على نحو جديد يتناسب مع معطيات العصر وظروفه .

لقد لخص الحسن الثاني نصحه لشعبه ولامته في عبارة موجزة مركزة بقوله :

« ولعل اجمع وانفع وصية ، يوصي بها كل مسلم اخاه في بداية القرن الجديد ، هي ان نطبع فكرنا وحياتنا وسلوكنا الخاص والعام ، بالطابع المميز لحضارتنا الاسلامية ، الذي ارتضاه الله لنا ، الا وهو طابع الاعتدال والوسط ، المنافي لكل سرف وشطط ، والمترفع عن كل تهريج ولغط ، ففي نطاق المبدا الاسلامي « الوسط » والحد الفطري « الوسط » لا كبت ولا اباحة ، وانما علاقات شرعية اخلاقية ، وفي نطاق المبدا الاسلامي « الوسط » لا محل للاسراف والتبذير ، كما أنه لا محل للشح والتقتير ، ولا محل للغنى الفاحش ، كما انه لا محل للفقر المنقع ،

---

(11) الرسالة الملكية ص 4 و 5 .
(12) المصدر السابق ص 6 و 7 و 8 .
(13) الرسالة الملكية ص 11 و 12 .

ولا محل للفوضى ، كما انه لا محل للاستبداد ، ولا محل للغو في الدين ، كما انه لا محل للتطـــاول على قداسة الدين ، ولا محل لطغيان مطالــب الروح على مطالب الجسد ، كما انه لا محل لطغيان الجسد على مطالـــــب الـــروح » (14) .

لقد جاءت الرسالة الملكية التي وجهها الحسن الثاني الى شعبه في المغرب وامته الاسلامية جمعاء، اعلانا لفترة حاسمة في تاريخ المسلمين ، وهي فترة مواجهة التحديات والمفاجآت التي يتعرض لها ديننا وشعوبنا ، ومواجهتها بكل حزم وعـــزم ، وتحمـــل مسؤولياتنا التاريخية ، حتى نعود الى حظيرة الاسلام الصحيح ، وربط الماضي بالحاضر ، ونعد الحاضر للمستقبل ، وذلك بجعل القرءان دستورا ورائـــدا ، واتخاذ الرسول المصطفى اماما وقائدا ، فذلك وحده طريق وحدتنا وانتصارنا وقوتنا وعزتنا .

(14) الرســـــالة الملكيــــــة ص 19 .

برنامج المجاري

●● اهدانا الباحث التونسي الدكتور محمد أبو الاجفان كتاب (برنامج المجاري لابي عبد الله محمد المجاري الاندلسي المتوفى سنة 862 هـ) وقد صدر عن دار الغرب الاسلامي ببيروت . ويقـع الكتـــاب في 200 صفحـــــة ●●

حوار العلماء مع الشباب

للأستاذ حسين جوزو (يوغسلافيا)

جاء في مجلة (منبر الاسلام) التي يصدرها المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية بوزارة الاوقاف المصرية ان الرئيس حسني المبارك في لقائه مع علماء الازهر واعضاء مجمع البحوث الاسلامية طلب عقد لقاءات متجددة مع الشباب لتوضيح المفاهيم الاسلامية لهم ، والرد على كل ما يعترضهم من مشكلات . وقال الرئيس ـ كما ورد في نفس الخبر ـ ان هذه اللقاءات لا بد ان تعقد سواء في جامعة الازهر أو غيرها من الجامعات .

وبالفعل بدأ الحوار بين أساتذة جامعة الازهر وبين شباب الجامعات ، وعين 18 استاذا في 6 مجموعات يديرون الحوار مع الشباب .

ولا شك ان هذا الخبر قد أسر كل مسلم غيور على دينه ومستقبله ، واثار اهتمامه ولفت نظره ، واني أعتقد ان ما قام به الرئيس المصري الجديد من عنايته البالغة بالشباب ، وفتح به عهده من خير اعماله وافضل جهوده ومساعيه في سبيل مستقبل قومه ووطنه ، لان الشباب يكون قاعدة اساسية لكل عمل وحركة ولكل تقدم وتطور . انك ترى ان كل نظام وعلى وجه الخصوص الايديولوجيات الحديثة تولي اهتماما عظيما وعناية كبيرة بتوجيه الشباب وتنظيمه في منظمات مختلفة . ان القائمين بتنفيذ النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، والمسؤولين عن تحقيق مبادىء الايديولوجيات المعينة يدركون تمام الادراك ما للشباب من دور خطير في كل أمر . انهم بلا ريب حملة التقدم والمستقبل الافضل . فكل من يريد ايجاد أي تغير في سبيل تقدم وتنمية بلاده يتحتم عليه الاعتماد على الشباب لانهم يمثلون جيل المستقبل في كل أمة ويحملون في ثناياهم الجديد والتقدمية وينظرون الى الامام بخلاف الجيل القديم الذي يتصل بالماضي وغالبا ما ينظر الى الوراء ويحاول ان يحتفظ بالقديم بقطع النظر هل هذا القديم قد قضي عليه الزمن أو هو لا يزال حي وصالح .

ومما لا ينكر ان دور الشباب في تاريخ الاسلام كان في منتهى الاهمية . وقد لعب الشباب في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم افضل دور ، وكان الرسول عليه السلام يعتمد عليهم ويثق بهم في كل امر ويوكل لهم مهام خطيرة جدا ؛ ليس هذا مكان تفاصيلها ، انها معلومة قد سجلها التاريخ .

ولكن الشباب اليوم عامة والشباب الاسلامي خاصة في حيرة شديدة وفي فراغ وضياع وتيه ، يعاني من شدة القلق والاضطراب ما يجعله لا يستقر في حال ولا يثبت في راي وانما يتقلب ويذهب مذاهب مختلفة يتجلى فيها التطرف . ويقول الباحثون من علماء الاجتماع والنفس ان كل ذلك ناتج عن عدم رضاء الشباب بالواقع الحالي ، فيريدون ان يتخلصوا منه فرارا من واقع الحياة الى التطرف .

فظاهرة الخنافس ـ هيبيك ـ وغيرها من حركـات الشباب المتطرفة لا معنى لها سوى الاحتجـاج على الواقع الحالـي .

ويجدر بنا ان نذكر ان هذا السلوك من الفرار من الواقع الراهن ومن الاحتجاج عليه لم يات صدفة بدون قصد وغاية وانما جاء نتيجة لنضج الشبـاب وادراكهم ان طغيان الماديات وسيطرتها وسيادتهـا حطت من قيمة الانسان ، وان العلم بوصفه التكنولوجي والانتاجي جعل الانسان عبدا للآلة واحتلـت الآلـة مكان الانسان واخذت تقوم مقامـه وتؤدي مهمتـه الانتاجية ، فكاد الانسان ان يصبح امرا مهملا لا قيمة فيـه .

ومن هنا لا يمكن ان نحكم على هـذا التطرف بانه امر مذموم ، ان له بدون شك في هذا السيـاق معنى ايجابيا ، اذ يشير الى ضرورة تغيير الواقـع الذي اصبح بالتاكيد غير متحمل .

وفيما يتعلق بالشباب المسلم الذي نحن بصدد قضيتهم فان الحيرة والقلق والاضطـراب تشتـد وتزداد لان هذا الشباب يختص بظـروف وملابسات تجعل المزيد من التعقيد في الحيرة .

ان العالم الاسلامي عاش فتـرة طويلـة مـن الجمود والركود والتخلف امتازت بتحجـر عقليـة الفقهاء وتجمد كل فكر وابداع وابتكار ، وساد فيهـا التقليد والاستكانة ، فكان مـا كـان من استعمـار واستعباد وصارت معظم البلاد الاسلامية تحت نير الظلم والطغيان والاستغلال البشع فامتد عهد التخلف وازداد الجمود والركود .

ثم جاءت النهضة واليقظة الحديثة فتحركـت البلاد الاسلامية وتحررت من الاحتلال الاجنبي شكلا وظاهرا ، لكن الاستعمار الفكري والاقتصادي ما زال قائـم .

ولكن التحرك ليس كل شيء وليس هو غايـة لنفسه . المهم هو الاتجاه الذي يتجهه هذا التحرك .

واذا نظرنا الى القضية من هذه الزاوية نلاحظ انه يوجد هنا عنصران مختلفان : عنصر الدين وعنصـر الحكم والسلطة . وقد تبلور اتجـاه كل منهمـا .

فالعنصر الاول مرتبط ارتباطا وثيقـا بالماضـي . والعنصر الثاني له اتصال قوي بالمستقبل .

ومن هنا تعقدت الحيرة وادرك الشباب بانهم على مفترق الطرق وبين عرضين مختلفين . يعرض عليهم رجال الدين صورة الاسلام التي تكونت قبل اكثر من الف سنة ، وكان هذا التكون نتيجة للاجتهادات التي قام بها العلماء من الفقهاء المجتهديـن والمتكلميـن والفلاسفة حسب زمانهم وامكاناتهم وحاجات حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصاديـة والعلميـة . ويا ليت لوبقيت هذه الصورة على وضعها الاصلـي الاول ، ولكن دخلت فيها خلال عصور الانحطـاط والتاخر خرافات وضلالات واباطيل من الاسرائيليات والنصرانيات والوثنيـات الاغريقيـة والفارسيـة والهندوكية لا سيما عن طريق الطـرق الصوفيـة والفلسفة اليونانية التي استعملها ـ مـع الاسف ـ المتكلمون ، فصارت هذه الصورة محرفة تحريفا كليا لا صلة لها بالاسلام الصحيح .

اما رجال الحكم واعني بهم القائميـن بجميـع مجالات الحياة العامة من العلم والثقافة والسياسة والاجتماع والاقتصاد ، فان ما يجب ان نعلم عنهـم قبل كل شيء هو انهم تلاميذ الفكر الاوروبي بشقيه العلماني والماركسي (الغربي والشرقي) وان معظمهم تثقفوا وتربوا على هذا الفكر . ومن المعلوم انهـم لا يعرضون على الشباب من الحلول والنظم والآراء الا ما ينبثق من هذا الفكر . ومما يعرضونه عليهـم على وجه الخصوص مفهوم الدين في المنظور الاوروبي . فالدين في هذا المنظور عبارة عن طقوس وشعائـر ورسوم . وهذا المفهوم للدين هو في الواقع مفهوم المسيحية وهو طبعا لا ينطبق على مفهوم الدين فـي المنظور الاسلامي . وقد اتخذت الماركسية مفهـوم الدين في المنظور الاوروبي المسيحي واستعملتـه كدليل في فصل الدين عن الدولة وابعاده عن الحياة العامـة .

ونستطيع القول بدون مبالغة ان معظم الشباب المسلم رفضوا بكل عزم وحزم هذه العروض المشبوهة والموهومة وهذه الحلول المستوردة : رفضوا صورة الاسلام المحرفة التي من عناصرها التقليد الاعمى والجمود والتواكل وفقدان الثقة بالنفس ، والاعتماد على الغير وانتظار نزول عيسى وظهور المهدي الذين سيملآن الارض عدلا كما ملئت جورا . ولكـن بدون

جهودنا وتضحياتنا ، كما رفض الشباب مفهوم العلم بمعناه التكنولوجي الذي تنحصر مهمته في مجرد الانتاج ، وعلى ذلك تنحصر وظيفة الانسان في الانتاج والاستهلاك . ومن ثم سميت الحضارة المعاصرة بالحضارة الاستهلاكية . وكذلك رفضوا مفهوم الدين في المنظور الاوروبي المسيحي ، ذلك المفهوم الضيق الذي يجعل الدين في عزلة تامة ليس له علاقة ما بالحياة .

وخلاصة القول ان الشباب غير راض بالواقع الراهن الذي يعتمد على المادة والعلم فحسب ويتنكر للفضيلة وللقيم الروحية ، ان الشباب يتطلع الى جديد يقوم على العلم والفضيلة وبالاحرى على القيم المادية والقيم الروحية سواء بسواء .

وعلى علماء الازهر الشريف ان يلبوا دعوة الرئيس حسني المبارك وان يؤدوا اماناتهم الملقاة على عاتقهم في هذه اللحظة التاريخية الهامة . عليهم في اول الامر القيام بتصحيح المفاهيم الخاطئة في صورة الاسلام المحرفة وتوضيح الفكر الاسلامي توضيحا يناسب مستوى العصر وحاجات المجتمع المعاصر بحيث يتجلى فيه ما في الفكر الاسلامي من مميزاته وخصائصه من شانها تقديم الحلول الصحيحة للمشاكل المعاصرة التي يواجهها ويعاني منها المجتمع الحالي الذي اختل فيه التوازن بين العلم والدين وبين الفضيلة والقيم المادية .

ولا يخفى على احد ان ما نيط بعلماء الازهر وبغيرهم من علماء البلاد الاسلامية ليشكل مهمة كبيرة جدا . وقد نبه الى اهمية وجدية هذه المهمة باعثو النهضة الاسلامية الحديثة السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد اقبال وغيرهم من تلاميذهم مثل الشيخ رشيد رضا والشيخ مصطفى المراغي والشيخ محمود شلتوت . وهؤلاء كلهم قاموا بالدعوة الى نبذ التقليد والرجوع الى الاسلام الصحيح الذي يبني المصنع ومعه المسجد ويشيد الجامع مع الجامعة ويقيم الدنيا على ركائز الدين على حد قول الدكتور يوسف القرضاوي ، واضيف : ويجمع بين الايمان والعلم ويقيم التوازن بين المادة والروح لان كل هذه الامور تناسب وتلائم فطرة الله التي فطر الناس عليها ولا تبديل لفطرته ، اذ خلق الله الانسان من تراب ثم نفخ فيه من روحه فهو اذن ذو عنصرين مختلفين مادي وروحي ، والدين الاسلامي يراعي هذه الحقيقة فيولي اهتمامه بكل ما من شانه تقوية الجسم والروح معا وتمكين كل منهما من اداء وظيفته ومهمته .

ومن واجب العلماء في سبيل تصحيح المفاهيم الخاطئة اثناء لقاءاتهم مع الشباب تعرية الفكر الاوروبي الذي ينظر الى الانسان من مجرد ناحيته المادية ويحدد مهمته في الانتاج والاستهلاك .

ولا شك ان من بين العلماء في العالم الاسلامي ولا سيما من بين علماء الازهر الشريف من يفهم ويدرك حقيقة الاسلام وحقيقة الحياة المعاصرة بكل ما يجري فيها من تيارات وافكار ونظم وفلسفات ونظريات مختلفة ، انهم على مقدرة ان يجروا الحوار مع الشباب ويبرزوا ما في الاسلام مما يحتاج اليه المجتمع الانساني المعاصر لحل قضاياه ومشاكله المعقدة .

ولا بد ان نعترف بان القائمين بالشؤون الاسلامية كانوا فيما مضى وحتى الآن يوجهون عنايتهم الى الجيل القديم ويهملون الجيل الجديد المعاصر الذي يعيش في ظروف خاصة ويتثقف بالثقافة الاوروبية ويتلقى النظريات الفلسفية مثل الماركسية والوجودية والعلمانية ما يبعده عن الدين ويجعل الدين في نظره خرافة ومخدرا للعقل البشري .

ان القيام بهذه المهمة ليس بأمر يسير ، انه يحتاج الى معرفة تامة للغة الجيل الجديد وحججه ، ومعرفة الحياة وما يجري في مجالاتها كلها من قضايا ومشاكل ، ومعرفة ما يقدمه النظم السائدة في العالم من مبادىء وتعاليم وحلول وارشادات ، واهم من كل ذلك معرفة ما يستطيع ان يقدمه الاسلام للبشرية .

وبهذه المناسبة أرى من المفيد ان اشير هنا الى خطأ كثيرا ما يقع فيه اليوم دعاة الاسلام . ويتمثل هذا الخطأ في كون معظم الدعاة يحاولون ان يقدموا للشباب باسم الاسلام العلم والتقدم المادي كقوله تعالى : « اقرأ باسم ربك » ، وهذا الامر أول ما نزل من القرءان على الرسول صلى الله عليه وسلم . حقا ان الاسلام يدعو الى العلم ولكنه يدعو الى شيء أسمى من العلم ، يدعو الى الفضيلة والقيم الروحية التي يجب على الانسان ان يعمل على تحقيقها وان يصرف كل وقته ويبذل كافة جهده ومساعيه في سبيل اقامة

الحياة عليها وبذلك يثبت وجوده وخلافته في الارض. أما العلم والتقدم المادي فليسا الا وسيلة لتحقيق هـــذه الغايـــة .

والظاهر ان الشباب بعد ان خاب أملهـــم في العلم والتقدم التكنولوجي بدأوا يشعرون بضــــرورة الرجوع الى القيم والفضيلة ، اذ هي اساس حيـــاة الانسان وهي الفـــارق بين الانسان والحيـــوان . فالشباب المعاصر لا ينتظرون من الدين العلم ، فالعلم موفور عندهم وانما يريدون منه الفضيلة ومكـــارم الاخلاق ، ان في اعتبار الدين مصدر العلم والمعرفة تحريفا لمفهومه واساءة لاستعماله في غير محله .

يقولون – وهو الراي السائـــد – ان الالحـــاد الماركسي هو الذي يهدد الدين ويشكل أعظم خطـــر عليه . وهذا القول غير صحيح . ان الماركسية مـــن منتجات الفكر الغربي . هناك نوعان من الالحـــاد : الالحاد الغربي العملي والالحاد الماركسي النظري . ان الالحاد الماركسي ظاهر وهو مبدأ من مبـــادىء الفلسفة الماركسية يعتقد فيه من يعتقد عن اقتناع به . اما الالحاد العلمي العلماني فهو اشد خطرا لانـــه يملك الانسان ويسيطر عليه بأساليب خفية مختلفـــة ويدخل القلب عن طريق اشباع الشهوات بالملـــذات التي لا تعد ولا تحصى من الجنس والاكل والشراب وحب المزيد من المال والجاه : « الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » (سورة التكاثر) « وويل لكل همـــزة لمزة الذي جمع مالا وعدده يحسب ان ماله أخلده » (سورة همزة) . « كلا ان الانسان ليطغـــى ان رآه استغنـــى » (سورة العلـــق) . « فوسوس اليـــه الشيطان قال يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » (سورة طه) . وشجرة الخلد هذه والملك الذي لا يبلى من اشد الامور اغرارا وفتنة . ان حياة الدنيا ان اتخذت غاية تصبح في الحقيقة متاع الغرور، انها بهذا الوصف لعب ولهو وتفاخر وتكاثـــر وانهـــا تلائم النفس الامارة بالســوء .

كل هذا يدل على ان الحوار مع الشباب مهمـــة شاقة وان هناك عوائق وعقبات وصعوبـــات متعـــددد تقف في سبيل أداء هذه المهمة . وعلى القائميـــن بامر الدين عامة والدعاة خاصة ان يعـــدوا انفســـم بجميع المؤهلات التي تمكنهم من القيـــام بالحـــوار المذكور وتوضيح كل ما يعتـــرض الشبـــاب مـــن مشكـــلات .

حسين جـــوزو

إقرأ في العدد القادم لهؤلاء

محمد المنوني / سعيد اعراب / د. عبد السلام الهراس
عبد الكريم التواتي / محمد محي الدين المشرفي / محمد الحلوي
د. يوسف الكتاني / زين العابدين الكتاني / محمد المنتصر الريسوني
أحمد عبد السلام البقالي / الحسن الساخ / علال الهاشمي الخياري
عثمان بن خضراء / ...

كيف نحمي الثقافة العربية ؟

للأستاذ احمد تسوكي

الخيـــــار الصعــــب :

● خلال ثلاثة ايام متعاقبة : 10 و 11 و 12 نوفمبر 1981 ، التقى ما يقرب من مائة مفكر ومثقف عربي في تونس لدراسة وبحث وتبادل الراي في وضع خطة ترمي الى اقرار استراتيجية موحدة للثقافة العربية خارج الوطن العربي .

ويمكن ان نعتبر هذا الحدث اول لقاء فكري واسع يجمع بعض فئات المثقفين والمفكرين العرب ، ويخرج عن العمل الرسمي الذي ينتمي ـ بوجه او بآخر ـ الى الحكومات والانظمة العربية ، والذي ياتي في معظم الاحيان وفي اغلب الحالات ، معطلا للقدرات الثقافية العربية على النظر في واقعها ومشكلاتها وقضاياها وهمومها ، بنزاهة وموضوعية وتجرد عن الاهواء والاغراض والمصالح السياسية المختلفة التي ان كانت تسيء الى شيء في حياة العرب وحياة ثقافتهم ، فهي هذه العلاقة البغيضة المستحكمة بين العرب وثقافتهم ، ولعلها اكبر واشنع اساءة تلحق العرب كما تلحق ثقافتهم حاضرا ومستقبلا .

ولعلنا نستبشر خيرا ونتوسم فضلا من هذا اللقاء الذي اجتمع فيه صفوة من المثقفين والمفكرين العرب ، خصوصا وأن موضوع ذلك اللقاء ليس من المواضيع الطارئة ، وليس من المواضيع السهلة الهينة ؛ بل انه لقاء عقد وهيىء لبحث أسس وقواعد خطة شاملة متكاملة ، هدفها اقرار عمل ثقافي موحد على المستوى الدولي .

ولا جدال في ان تلك الصفوة من قادة الفكر والثقافة والراي في الوطن العربي ، قد حضرت الملتقى بشيء أهم من مجرد الحضور ، الا وهو التصورات والافكار الدقيقة والعميقة حول تلك الخطة ، وبرمجتها في جدول زمني واقعي ومنطقي ، يقبل التنفيذ والتطبيق ، ويحتوي على حد ادنى من التفاهم والتآلف والتعاون المشترك بين المثقفين والمفكرين ، كي تتحقق الغاية من المؤتمر ، فترتفع الثقافة العربية ـ بشقيها القديم والحديث ، اذا جاز لنا ان نقسم هذه الثقافة الى شقين ، احدهما قديم وثانيهما حديث ـ الى مستوى الحضور المشرق والمؤثر في المجتمع الدولي الواسع الفسيح الارجاء، حيث تضطرب الثقافات والافكار الانسانية دون عازل يحجب بينهما وبين اذهان الناس ، ودون فارق يحول بين هؤلاء جميعا وبين تلقي وتذوق وتفهم وتمثل ثقافة الانسان في كل زمان ومكان .

وليست هناك قضية ـ في رايي ـ تستوجب تفاهم وتآخي وتعاون العرب اجمعين ، مثل قضية الثقافة العربية التي تتعرض اليوم ـ كما تعرضت بالامس ـ الى مظاهر التحريف والتزييف ، فأصاب العرب ، خصوصا وأن موضوع اللقاء ليس من العربية في ديارها وربوعها ، وضرر خارجي اصابها

خارج مواطنها . فمن أجل ذلك ، وجب بحث كيفية حماية هذه الثقافة داخليا وخارجيا ، ووجبت دراسة الوسائل والادوات التي ينبغي استخدامها وتوظيفها لكفالة تلك الحماية على أوسع نطاق وارحب مجال .

ولا اريد هنا أن أطرق التوصيات والملتمسات والقرارات التي اعدتها لجنة الصياغة في هذا المؤتمر، لسبب لا اشك في أن القارىء سيقاسمني ويشاطرني الاعتقاد والايمان به ، وهو اننا في حياتنا الثقافية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية العربية ، كثيرا جدا ما نصطدم بقائمة طويلة وعريضة من التوصيات والقرارات والملتمسات التي تقرها هذه اللجنة او تلك من اللجان المتفرعة عن اشغال واعمال مؤتمراتنا وملتقياتنا على مستوى الوطن العربي كله ، دون أن نجد ـ من بعد ـ اي صدى عملي وتطبيقي لتلك التوصيات والقرارات في واقعنا العربي كله .

والمهم في مؤتمر تونس ، اننا لمسنا ـ عبر العروض والتدخلات والكلمات التي القيت فيه ونشرتها الصحف والمجلات ـ صدق النوايا ، وحسن الارادات ، واخلاص القلوب والعقول ، وصفاء الاذهان والافكار ، من اجل انجاز هدف رفيع عظيم ، تسعى له أمتنا العربية منذ سنوات طوال ، وتعمل له من خلال الاجهزة والاقسام والمصالح عملا متفرقا شتيتا ، لا تربط بينه وحدة الكلمة ووحدة الهدف ، وانما هي اعمال وجهود متنافرة متناقضة موزعة ، كل حكومة من حكومات العرب تسعى بما يكفي من الضجيج والدعاية والاعلان الصاخب الى ابراز الجانب الذي يوافقها ويلائم بينها وبين مصالحها ، وتكون النتيجة الحتمية لذلك ان تقصر هذه الحكومة او تلك وهذا البلد أو ذاك في السعي والعمل والجهد، او توفق بعض التوفيق حين يتوافر لها نصيب من الامكانيات والوسائل ، وحين تتاح لها بعض الظروف والمناسبات اتاحة كاملة ، والادهى من ذلك التقصير ومن بعض ذلك التوفيق ، ان اقطارنا العربية حين تتعاقب وتتوالى عليها الحكومات حسب ما تقتضيه ارادة ورغبة الحكام والقادة ، تتغير معها بين عشية وضحاها ، السياسات والبرامج والمناهج الثقافية كما تتغير احوال الطقس .

وهذه المسلمة التي باتت قاعده قلما نجد لها استثناء في اي بلد عربي كان ، هي مؤشر قوي وعميق الدلالة على ان معنى الثقافة في حياة المواطن العربي ، لا توليه السياسات والانظمة العربية المتباينة مدلوله الحق ، او لنقل بعبارة اوضح واجلى ، ان هذه السياسات والانظمة تقوم بتأويل معنى الثقافة وتفصيله على الطريقة التي تخدم مصالحها وأغراضها، وعلى النمط الذي يتمشى ويتفق مع اهدافها ومقاصدها الظرفية العاجلة .

وفي هذه الاوضاع المزرية التي تعيشها الثقافة العربية ، وعلى ضوء هذه الاستخدامات الجوفاء والمفرغة من معنى الثقافة ومفهومها ، فان العمل الثقافي يصبح بحكم ضوابطه وقواعده البيروقراطية الخاضعة للجهاز الرسمي ، مجرد ممارسة تهميشية عقيمة للثقافة والتفكير ، ومجرد واجهة اعلامية ودعائية ، يتم عبرهما تمرير وتفويت الآراء والافكار والاختيارات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية المستوردة في معظم الاحيان من خارج الواقع العربي كله ، ككيان له هويته الخاصة .

ولئن كان مؤتمر تونس الذي استقطب خيرة المثقفين والمفكرين العرب الذين لا أحسبهم الا وهم يعيشون حقا محنة ومأساة الثقافة العربية ، منطلقا للمراجعة واعادة النظر واعمال الفكر بجدية ومسؤولية وامانة ، فانه يشكل ايضا ـ وهذا هو المهم ـ نقطة البدء في صياغة الآمال والاماني الثقافية التي ينبغي ان ينبني عليها كل تخطيط استراتيجي بعيد المدى من اجل وضع الثقافة العربية ، برصيدها وحجمها ونوعية مستواها ، في سياقها الخاص وفي الطريق الصحيح القويم الذي يتلاءم مع العصر ، ومع ما يضطرب ويصطرع فيه من مذاهب وتيارات واتجاهات ثقافية ، تؤثر فينا بقدر ما ينبغي أن نؤثر فيها .

ذلكم في رأيي ، هو الخيار الصعب الذي فطن وتنبه اليه اصحاب الدعوة الى هذا الملتقى الثقافي ، الهام في موضوعه وشكله على حد سواء . وذلك لان الجراة على اختيار الطريق السليم والسوي ، تعادل في نظري الضمانة الوثيقة والاكيدة لنجاح اية خطوة عملية ومنطقية ومدروسة لانجاز احدى المهام الجسيمة التي تتطلب ممن يتحملون مسؤولياتها واعباءها ، شجاعة في الراي هي اول ما ينبغي ان يسير عليها الخبير والحصيف .

ولا بد من هذه الجراة ان تصحح المسار ، لان مسؤولية الثقافة في حياتنا ، وفهم دورها ووظيفتها في هذه المرحلة التي تمر بها أمتنا ، هي اكبر من ان تعالج فقط على مستوى الرسميات وقرارات الخبراء واختصاصيي الحكومات والسلطات ، فمسؤولية الثقافة هي مسؤولية المثقفين قبل كل شيء .

القرار الثقافي والقرار السياسي :

ان الواقع العربي الذي نجتازه في هذه الحقبة التاريخية والحضارية الحاسمة ، محكوم بمعطيات وقرارات عديدة ، كثيرة التشعب والتعقيد ، الى درجة ان مسؤولية الخطأ والصواب في تجربة الواقع العربي ، ليست محصورة في جهة واحدة منها ، ولكنها تتوزع على شتى الجوانب والزوايا والاركان ، بعضها يتصدره الافراد وبعضها الآخر تتصدره الجماعات ، وكلاهما قوة من قوى التغيير والتطوير في مجتمعاتنا العربية ، تتمثل في الجماعات الضاغطة ، والمؤسسات والهياكل الاقتصادية والاجتماعية ، وعلاقات الاسرة ، وانماط الحكم والقيادة ، واشكال الرؤية الى القضايا والمعضلات العامة ، اضافة الى رواسب وتقاليد موروثة لا تزال لها في حياتنا جدة ونضارة وشباب ، والى اتجاهات وخيارات حديثة لها نصيبها من تلك الجدة والنضارة ، ومع ذلك فلا تخطىء العين الفاحصة حين تنظر الى باطنها ، ما يكتنفها من تهور وتسرع ، هما سمة الجديد الشاب الذي يريد ان يفك عنه قيود الماضي وينفض عنه ثياب القديم ، فتخونه الرافة والاشفاق والاناة .

ان طبيعة القرارات الحاسمة التي تريد ان تغير من خريطة الحاضر ومواقعه المختلفة المتباينة ، متشابكة ومعقدة ، غير ان استجلاء واستيضاح قسماتها وملامحها ليست دائما مستعصية على النظر الدقيق الحصيف .

وعلى سبيل المثال ، فان القرار السياسي ليس منفصلا ، لا في اسبابه ونتائجه ومقدماته واهدافه ، عن القرار الاقتصادي ، فكلاهما يكمل الاخر ويدفع له بحجة من الحجج التي تعوز هذا او ذاك . ويمكن القول ايضا ان القرار الثقافي لا ينفصل ـ كلا وجزءا ـ عن مجمل القرارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاعلامية . وهذا الترابط والامتزاج بين القرارات المختلفة المستويات والاهداف ، يؤكدان لنا حقيقة بسيطة ولكنها دقيقة ، وهي ان العمل الوطني او القومي تحكمه وتقوده عوامل كثيرة ، بحيث يمتزج الاقتصاد والسياسة والثقافة والتنمية بمفهومها الشامل في قرار واحد ، يستعصي تجزيئه وفكه بأي وجه من الوجوه وبأي شكل من الاشكال .

واذا تأملنا واقعنا العربي من كل جوانبه وابعاده ، وفي نشاطه وكسله ، وحياته وجموده ، فاننا نتلمس فيه حقيقة تشبه المحنة ان لم اقل تشبه المأساة والكارثة . ذلك لان القرار الثقافي يكاد يكون النبرة الوحيدة في اصواتنا العالية وضجيجنا الصاخب بالشعارات والكلمات الجوفاء والنظريات الجاهزة . اي ان قرارنا الثقافي ، على خطورته ، لا يشغل من اهتمام الحكومات والمسؤولين والخبراء سوى حيز ضئيل صغير ، وفي احيان كثيرة ، لا يشغل الا حيزا تافها لا يؤبه له ، ولا يجدر منهم باقل شعور يلتفت اليه ويقيم له وزنا من الاوزان في حياة الافراد والجماعات على السواء .

هكذا ، نجد سياساتنا الثقافية في العالم العربي برمته ، تحكمها النظرة الضيقة الى الثقافة ، والرؤية القاصرة عن ادراك وتفهم وتقدير ما للثقافة والفكر من قيمة واهمية في مجتمعات نامية ، لا تفتأ قياداتها الواعية في كل المناسبات والفرص المتاحة، تدعو الى وجوب الاهتمام والعناية بثقافة الفرد وتوسيع مداركه وتنمية الوعي فيه واذكاء روح الفكر في عقله ووجدانه وضميره وذوقه جميعا . ولكن هذا كله ، يتم فعلا ولكن على حساب الثقافة نفسها ، وبالاسلوب الذي يرضي اهواء القيادات السياسية ، ويستجيب لاحتياجاتها ومطالبها التي تنحصر في معظم الاحيان في تجاوز مرحلة سياسية معينة ، وفي تغطية منعطف اجتماعي او اقتصادي معين ، يضغطان بحدة على القيادات والانظمة .

هنا ، يتم تطبيق العمل الثقافي باضيق مدلولاته ومفاهيمه ، لانه يظل مرتبطا ـ ارتباطا عضويا ووظيفيا ـ بالنظام السياسي والاجتماعي القائم في كل بلد عربي على حدة ، اي ان وظيفة الثقافة تصبح مجرد عملية زخرفية (فولكلورية) براقة ، تستعار لها نفس الشعارات والدعاوي والكلمات المذهبية والعقائدية التي يتبناها النظام الحاكم .

ولئن كان الامر ـ على هذا التعميم ـ يحتاج الى مزيد من توضيح وتبيان ، فلعلي استطيع من خلال بعض الامثلة ان اجعل القارىء مقتنعا بأن بلداننا العربية العشرين ، تتوفر كذلك على عشرين ثقافة موازية للعمل السياسي ومرتبطة به ومستمدة منه .

ففي سورية ، تسود « ثقافة » بعثية لا هم لها سوى الدعوة والتبشير بمبادىء الحزب وخدمة اختياراته وتوجهاته ، حيث تضطلع الاجهزة والمصالح « الثقافية » المتخصصة بتوجيه الثقافة الى هذا الاتجاه ، وتحريكها الى هدف لا يخدم في النهاية الا مذهبية الحزب في « التثقيف » و « التوعية » و « التنوير » ، وهنا ، تتولى تلك الاجهزة والمصالح تأويل « الثقافة » تأويلا يعمل بانتظام على ابراز سلبية الثقافات الاخرى من جهة ، وعلى كشف ايجابية الثقافة التي يؤمن بها النظام السائد من جهة ثانية . فلا قيمة للثقافة الا من حيث انها تخدم اهداف ومقاصد الحزب ، فاذا ظهر اي تناقض او تنافر بين هذه وتلك ، وجب ترويض وتطويع الثقافة لتصبح ملائمة ومتمشية مع تلك على طول الخط .

وفي ليبيا ، لا يختلف الامر كثيرا عما هو في سوريا ، حيث نرى أجهزة ومصالح النظام تخدم الثقافة ولكن حسب طلب السلطة ، لا من حيث ان هذه الثقافة هي ثقافة وحسب ، بل من حيث انها اداة في الآلة الكبيرة . وهكذا ، يتم « تخليق » نمط معين من الثقافة ، يتبع ويسير ويدور في فلك المصالح والاغراض التي تؤمن بها السلطة وتدعو لها وتبشر بها بين فئات الناس ، سواء داخل ليبيا او خارجها .

وفي مصر ، حيث قطعت سياسة التطبيع مع اسرائيل خطوات خطيرة ، تبرز دعوات ناشزة لا تمثل بحق موقع مصر ودورها المتميز في الثقافة العربية والاسلامية ، الا انها تحاول ان تكرس في الواقع الفكري الراهن ما تدعوه بضرورة المصالحة والتوفيق بين الثقافة العربية والثقافة الاسرائيلية المعاصرتين ، وان تقيم بينهما جسور التعاون والتفاهم والتحاور والتفاعل ، طبقا لما تقتضيه وتستوجبه سياسة النظام في العلاقات مع اسرائيل على جميع الاصعدة .

هذه امثلة قليلة اوردتها للتدليل اولا على أن عالمنا العربي الذي يعيش سياسيا وجغرافيا من خلال عشرين نظاما وقطرا ، يعيش كذلك بنفس القدر ثقافيا وفكريا ، وثانيا على أن مفهوم الثقافة ليس فقط مختلفا بين هذه الكيانات في النظر والتطبيق من بلد عربي الى آخر ، ولكنه ايضا مفهوم يتوجه وجهة خطيرة لا تخدم الثقافة العربية الصميمة وبمعناها الواسع والشامل ، ولا يعنى بها العناية اللازمة باعتبارها اداة روحية ووجدانية خلاقة وفعالة تسهم في التآخي والتآزر والتآلف بين أبناء الامة العربية ، ولا تفهم وتستوعب بوصف الثقافة العربية تراثا حضاريا مشتركا بينهم ، لا ينبغي تجزئته وتفرقته وتقسيمه وتفكيكه الى قطع ، ذلك التراث الخالد الذي اثرى الحضارة الانسانية باكملها في الماضي ، ولا يزال الى اليوم قادرا على اثرائها في الحاضر والمستقبل ، لكونه حافزا روحيا محركا وموجها لوجدان الامة وضميرها ، ومغذيا اساسيا لفكرها ووعيها وسلوكها ، وباعتباره رصيدا انسانيا مشتركا، يحمل من القيم والافكار والمثل والمبادىء القومية والانسانية ما يجعله طاقة غنية الى اوسع الحدود ، باستطاعتها أن تجمع الراي العام العربي ـ من اقصاه الى أقصاه ـ على تبني اهداف ومقاصد وآمال واحدة، وأن تشحذ عزيمته وارادته على العمل المثمر الذي يعود على ابناء الامة ـ من خليجها الى محيطها ـ بالخير العميم والفائدة المرجوة .

فماذا يتبقى لهذه الثقافة العربية اذن ؟

سؤال مؤلم ومر ، ولكنه حقيقة معاصرة يجب تقصيها وتمحيصها كي لا نجني على الاجيال المقبلة كما جنينا بالامس القريب وكما نجني اليوم على اجيالنا الحاضرة .

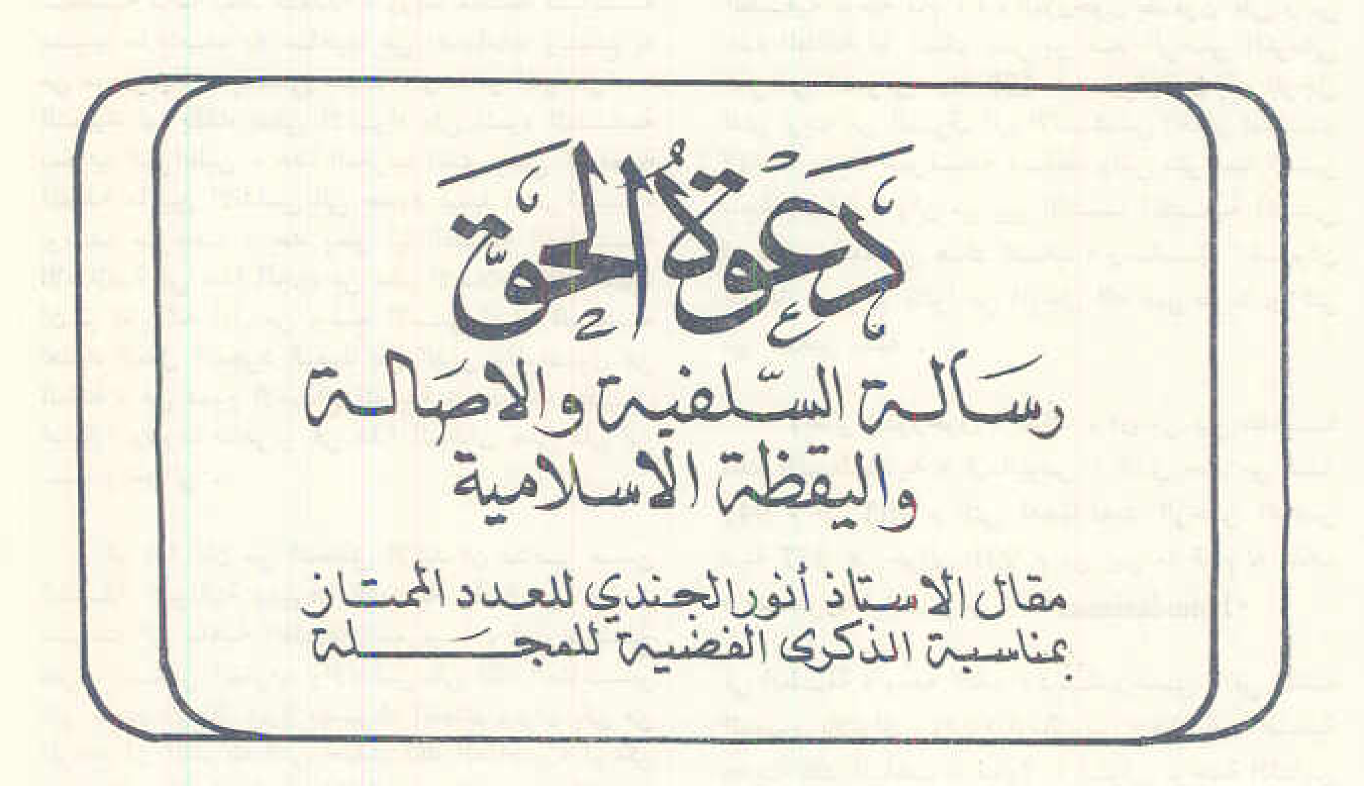
ان الصراعات الوهمية والمعارك الصورية والمشاجرات الكلامية الفارغة التي تخوض فيها الثقافات الرسمية وثقافات الانظمة والانظمة المضادة، وثقافات اليمين واليسار والوسط ، وثقافات أقصى اليمين واقصى اليسار في الوطن العربي ، هي التي تعطل قدرة المواطن والجماعة العربية على التطلع الى المستقبل بثقة وتفاؤل واستبشار ، وهي التي لا تتوانى ـ لا بالايام والاسابيع والشهور ، بل وباللحظات والدقائق ـ عن زرع بذور التفرقة والتجزئة والانقسام والانفصام في الضمير العربي العام ، وهي التي لا تكف عن اشاعة روح الانفصال

والانهزامية والاستسلام في الوجدان العربي الذي تتراكم عليه الآلام والاحزان من كل جهة .

واذا جاز لنا ان نتساءل عمن يذكي نار الفرقة والتجزئة والفصام في الراي العام العربي ، لن نجد جوابا عن تساؤلنا الا في السياسات والبرامج والمناهج والتخطيطات « الثقافية » والاعلامية المحكمة والمتقنة التي تصنعها الانظمة جاهزة مسلمة ، وبذلك تعطى للسلطة ـ وهي كما نعلم جميعا العدو اللدود للثقافة ـ حقوق ومسوغات اتخاذ وصياغة القرار الثقافي الذي يجب أن يناسب النظام وأن يسود ويهيمن على منابر الثقافة ، كي يصبح المواطن العربي جهازا يستقبل ويتلقى الغذاء الثقافي كما تريده السلطة وكما يريده النظام .

والحل الوحيد لهذه المعادلة الصعبة ، لا يكمن الا في ضرورة استقلال القرار الثقافي عن القرار السياسي ، ليمكن الحديث حقا عن التخطيط الثقافي بدون تأثير او ضغوط ، لاننا عندئذ في صميم ثقافة عربية واحدة وموحدة ، يشعر المواطن العربي ازاءها بالفخر والاعتزاز ، لانها ثقافته هو ، ثقافة ضميره وفكره ووعيه وعقله ووجدانه ، ولانها ثقافة قلبه ولسانه ، وحاضره ومستقبله ومصيره جميعا . وبهذا ننظر الى الثقافة نظرة مستقلة وحرة بدون قيود من داخل او من خارج ، ونعالج قضاياها ومسائلها ومشاكلها معالجة موضوعية ونزيهة ، لا أثر في ذلك كله لسلطة أو نظام او حكم او قيادة .

الربـاط : أحمد تسوكي



دراسات في الأدب المغربي 8 :

د. الأوضاع الثقافية والأدبية لعهد المرابطين

ابن باجة

الشاعر الفيلسوف

للأستاذ عبد الكريم التواتي

تناول شخصية ابن باجة بالدرس – وهي شخصية ذات أبعاد متعددة، وربما مختلفة متباينة بسبب ما يتصف به صاحبها من اهتمامات ويتمتع به من موسوعية – يقتضي منا، وهو الفيلسوف، التمهيد لها بالقاء بعض الاضواء على نشوء الفلسفة بمغرب المرابطين، هذا المغرب الذي يعني الرقعة الممتدة ما بين الاندلس الى حدود ليبيا الشرقية، بوصف مترجمنا، يعد بحق ابا الفلسفة العقلانية الاسلامية في هذا الجزء من عالم الاسلام لتلك العهود ان لم نقل انه اول من وضع الاسس لقيام فلسفة تعتمد العقل المجرد البعيد عن الدين والمفصول عن العامة، في عموم الاصقاع العربية، بحيث حقق امتيازا وتفوقا ظاهرين في هذا الميدان حتى على ابن سينا والغزالي.

ثم اذا كان من المحقق الاكيد ان عناصر من الفلسفة اليونانية وغيرها كالهندية والفارسية قد تسربت الى ماهية الفلسفة المغربية، فان تاريخ تعرف مسلمي المغرب والاندلس على تلك العناصر غير محدد الآجال، ولا مضبوط المعالم، وان يكن من المرجح ان القنوات التي حملت تلك العناصر، لم تكن سوى الرحالة المغاربة والاندلسيين الذين كانوا يزورون الشرق اداء لمناسك الحج او التماسا للمزيد من العلم او الرواية او لهما معا، فمن المفروغ منه ان عديدا من اولئك الزائرين للشرق كانوا يهتمون بالخصوص بعلم الكلام ومناظراته، وما جد في ميادين العلوم الالهية وما وراء الطبيعة ثم العلوم الفلسفية بوجه عام»، والمؤرخون يضعون على راس هذه الطائفة ابا الحكم عمر بن عبد الرحمن الكرماني القرطبي المتوفى سنة 458 هـ، ويضيفون بأن الرجل لدى أوبته من الشرق الى الاندلس اختار كمكان لاقامته مدينة سرقسطة مسقط راس مترجمنا ابن باجة بالذات، وان من بين الكتب الفلسفية التي اصطحبها معه من هناك كتاب «رسائل اخوان الصفاء». ثم قالوا عن الرجل انه عمر طويلا ولاكثر من تسعين سنة.

ويذكر المؤرخون، كذلك، ان من بين هدايا ملك القسطنطينية «ارمانيوس» الذي حكم من سنة 945 م الى 963 م التي قدمها لعبد الرحمن الناصر سنة 337 هـ حوالي 931 م من بين ما قدم له كتاب «هيرود ايانانوس» «Hérodanianus»

في الفلسفة، ومعه كتاب «ديسقوريديس» في الطب المصور بالالوان، وان «ارمانيوس» هذا بعث صحبة هديته تلك الراهب «نيقولا» ليتولى ترجمة الكتابين من الاغريقية الى اللاتينية الكنيسة التي كانت معروفة ومتداولة في الاندلس، وان المدعو ابا عبد الله الصقلي تلميذ الكرماني الآنف الذكر تتلمذ على هذا الراهب أيضا.

ويؤكد ان : هذين الكتابين كغيرهما من الكتب الفلسفية كانا متداولين بالاندلس منذ زمن الحكم الثاني المستنصر الذي حكم من 961 م الى 976 م ، والذي هو ولي عهد عبد الرحمن الناصر وابنه .

غير أن الحكم ، هشام المؤيد بالله الذي تولى بعد ابيه الحكم من سنة 976 م الى 1009 م اشتهر بضعفه علميا ، وبضيق افق تفكيره ، وكان ـ بالاضافة الى ذلك ـ خاضعا لنفوذ الراي العام الذي كان يسيطر عليه الفقهاء ويتملقونه بعداوتهم للفلسفة ، فأثروا عليه حتى اصدر تعليماته ، لا بمنع تداول الكتب الفلسفية فحسب ، ولكن باحراقها تماما ، بل وباحراق حتى ما كان اجتمع لابيه منها ومن كل العلوم القديمة التي لا تتساوق ورغبة الفقهاء كالمنطق والفلك .

ولكن ما حل عهد ملوك الطوائف ـ ومصائب قوم عند قوم فوائد ـ حتى ذرت هذه العلوم الممنوعة قرونها وظهرت بكيفية شبه معترف بها قانونيا ، وشعبيا ، وأمكن في هذا العهد مشاهدة مدارس لهذه العلوم وبروز أعلام فيها مثل :

1) عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بالاقليدي وقد وضع مختصرات لكتاب ارسطو .

2) أبي عثمان سعيد بن فتحون الذي ألف رسالة سماها شجرة الحكمة : كمدخل الى علوم الفلسفة .

3) مسلمة بن احمد المجريطي المتوفى سنة 1008 م الذي نسج على منوال كتاب (رسائل اخوان الصفاء) فوضع الرسالة الجامعة في الحكمة .

ثم تابع المختصون في هذه العلوم والفنون حتى أصبحوا يكونون مدارس مختلفة الاتجاهات متباينة الاغراض ممن أشار اليهم صاعد في كتابه ، الا انه من المؤكد ان عمل هؤلاء الرواد الاوائل لم يتجاوز ترديد ما قاله الاقدمون واجترار افكارهم مع محاولة ابرازها بما يتناسب والزمنكية دون أن يضيفوا شيئا جديدا او يبتكروا فلسفات متمايزة ، شأن كل المحاولات العلمية والفكرية في بداية منطلقها .

حتى اذا جاء صاحبنا ابن باجة أمكن الوقوف على اتجاهات جديدة للفلسفة ، فكان بذلك أول من أقدم على تسجيل شيء من خواطره الخاصة ، قائما على العقل المجرد والمنفصل عن الدين ، والمعزول عن العامة ، والمرتكز على الابتكار مع الاتساق في الاستنتاج ، واستطاع بما اوتيه من قدرة ابراز فلسفة اندلسية ان صح التعبير ، الى ان يقول فيه ابو بكر بن طفيل المتوفى سنة 581 هـ ، وهو من كبار فلاسفة الجيل الثاني في الاندلس ، في كتابه (حي بن يقظان) حين يتحدث عن اولئك الفطاحل الذين تعاقبوا على تدارس الفلسفة والعلوم القديمة في جميع العالم الاسلامي عامة وفي الاندلس خاصة .

ان يقول فيه : « انه من بين اولئك المتعاقبين لم يشهد أثقب ذهنا ، ولا أصح نظرا ، ولا ادق روية من أبي بكر الصائغ ـ اي ابن باجة ـ غير انه شغلته الدنيا ، حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن علمه، وبث خفايا حكمته » ، ويضيف ابن طفيل ليؤكد مزيد قيمة ابن باجة ، وهو يتحدث عن باقي الفلاسفة قائلا: « ومن وصف بانه في مثل درجته فلم نر له تأليفا واما من جاء بعدهم من المعاصرين لنا كابن رشد مثلا، فهم بعد في حالة التزايد او الوقوف على غير كمال أو ممن لم تصل الينا حقيقة أمره » (1) .

ثم من المعروف ان ابن باجة كان أول من اشتغل بنشر علم الفلسفة في المغرب ، وبصورة شبه معترف بها رسميا ، وبذلك استحق ان يعد ـ وعن جدارة ـ ابا للفلسفة المغربية في تلك العهود ورائدها الصادق الذي جعلها تنطلق منذ البداية على الفصل بين الدين والعقل في التناول ، وعلى أن تكون الغاية من حيث المضمون هي التوفيق بينهما ويعترف جميع الدارسين للفلسفة المغربية التي تبنت منطلق ابن باجة ، انها تمتاز بالاختصار المركز والتنسيق والعقلانية لبنائها على ركائز رياضية وطبيعية تعتمد العقل المجرد ودون الالتفات للاعتبارات الاخرى التي استقطبتها الفلسفة الشرقية من حيث اعتماد هذه على الكلام ومجرد الجدل ، فكان هذا البناء الرياضي العقلاني لها مما استدعى من روادها مزيد الملاحظة وكثير المعاناة والتجربة .

(1) المعجب ص 240 .

وهذا البناء يلاحظ قيامه ـ ابتداء من مدرسة صاحبنا ابن باجة ـ على الازدواجية بين الدين والعقل غاية ومضمونا ، وكان التاكيد على هذه الازدواجية تنصيص على صلة الوصل بين ما كان مقطوع التواصل للتخلص الى التجريدية المطلقة فقد كان نفوذ الفقهاء، وتصلب موقفهم العدائي من الفلسفة لا يسمح بالانتقال طفرة واحدة من الحرب الى السلم ومن الجحود والانكار الى الاعتراف والتسليم مباشرة ، فكان لا بد من اجتياز مرحلة يضع فيها الجانبان اسلحتهما اظهارا لاستعدادهما للتفاهم ، حتى اذا تم التوصل الى فهم موقف الجانبين من بعضهما وحجة كل منهم امكن ان يتفقا على السير معا او يتفاهما على ان لكل منهما حرية اختيار المجال المناسب لميوله واتجاهاته ، فكانت هذه الوقفة ـ ان صح التعبير ـ التقدير في مدرسة ابن باجة المزدوجة ثم كانت مدرسة ابن طفيل القائمة على النشوء المرتجل والتطور الطبيعي ثم كانت مدرسة ابن خلدون الاجتماعية القائلة بان اختلاف البشر انما هو تابع عن اختلاف بيئاتهم ومناشئهم .

يقول الدكتور عمر فروخ توضيحا لاستقلال الفلسفة المغربية عن اختها الشرقية : « ان الفلسفة المغربية تدارسها روادها واقطابها ذاتيا ومجردا ، لا حبا في المال كما فعل ابن سينا ، ولا دفاعا عن ايمان العامة كما فعل الغزالي ، وقد تواصلت حلقاتها انطلاقا من ابن باجة الى محاولة ابن طفيل في كتابه : (حي بن يقظان) الى ابن رشد الذي قعد هذه الفلسفة وبلور ذاتيتها كموضوع مجرد مستقل » .

وهكذا يكون هذا الثالوث المؤلف من ابن باجة ، وابن طفيل ، (503 ـ 581 هـ) وابن رشد (520ـ 595 هـ) رواد الفلسفة المغربية الاولين ، وحدتهم فكرة البحث عن فلسفة لا تجافي الدين وربطت بينهم تلمذة بعضهم للبعض فكريا وايديولوجيا : وعندما نقول ان احد هؤلاء تلميذ لذاك فنحن لا نعني مثلا ان ابن طفيل كان تلميذا عمليا لابن باجة تلقى عنه مباشرة كما حاول عبد الواحد المراكشي صاحب المعجب ان يثبت حين ذكره لشيوخ ابن طفيل ، فقد قال : « قرا على جماعة من المحققين بعلم الفلسفة ، منهم ابو بكر بن الصائغ المعروف عندنا بابن باجة » (2) .

ذلك لان ابن طفيل نفسه ينفي لقاءه مع ابن باجة، فقد قال بعد ان مدحه : « فهذا حال ما وصل الينا من علم هذا الرجل ونحن لم نلق شخصه » كما ان صغر سن ابن رشد يحول دون تتلمذه عليه الا ان يكون على طريقة بعض الاقدمين الذين كانوا يطلبون ويلتمسون الاجازات من كبار الشيوخ لابنائهم ولمن يحبونهم .

وعلى خصوص هذا الفرض يمكن تخريج قول ابن اصيبعة في شيوخ ابن رشد : « وكان من جملة تلاميذ ابن باجة ايضا القاضي ابو الوليد محمد بن رشد » اي انه تلميذه فكريا او انه اجازه بواسطته .

وابن باجة هو ابو بكر محمد بن يحيى الصائغ ، ولد اواخر القرن الخامس الهجري بمدينة سرقسطة، وكل ما هو معروف عن نشأته الاولى انه شب في مسقط راسه وهناك تفتحت بوادر شخصيته الادبية، حيث اختص بامير سرقسطة ثم واليها ابي بكر ابراهيم بن تيفلويت يمدحه بشعره ويخصه بأدبه ، ثم وزر له الى حين مغادرته موطنه في اتجاه المغرب عبر بلنسية فاشبيلية التي استقر بها فترة من الزمن يمتهن الطب ، ويؤلف رسائله الاولى في المنطق ... ثم اجتاز غرناطة ، فشاطبة حيث امتحن بسجنه هناك من طرف واليها ابي اسحاق بن ابراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي كان ما يزال تحت تخدير الفقهاء فيما يخص موقفهم من الفلسفة وكل المشتغلين بغير علومهم الفقهية ، مما قد يحملنا على الظن بأن سجنه ذاك لما رماه به متعصبو الفقهاء من الحاد واشتغال بالفلسفة ..

ثم وصل فاس حيث انتهى به المطاف والقى بها عصا التسيار واستقر به النوى .

ولا يذكر المؤرخون السبب او الاسباب التي دعته الى الرحيل عن مسقط راسه ، وان يكن ذلك لا يعود الا للبحث له عن مكان يضمن له مزيد الثراء ويضمن لافكاره مزيدا من الحرية والانتشار على أن سقوط سرقسطة في يد الاسبان قد يكون من اهم الاسباب التي جعلته يزهد في العودة الى هناك .

---

(2) المعجب ص 240 ، طبعة الاستانة .

ومن ذلك السرد لمولده وتنقله عبر أهم مدن الاندلس ليومئذ نلاحظ أن مولده بالضبط مجهول هو الآخر ، ولكن اذا صح ما قالوه من انه ابصر النور اواخر القرن الخامس الهجري وانه توفي سنة (523 او 525 او 533 هـ) وفي شهر رمضان ، ولما يتجاوز مضمار الشباب حسب تعبيرهم ، وقدرنا ان الشباب لا تتجاوز مرحلته على ابعد التقديرات الخمسين عاما من عمر الانسان ، فان مولده على افضل التقديرات لا يمكن ان يكون الا ما بين سنة (480 او 490 هـ) على ان كون أبي محمد عبد الله بن محمد بن سهل الضرير الغرناطي (490 ـ 571 هـ) تلميذا له فيه ما يحمل على القول بان تاريخ ولادته لا يمكن ان تكون قبل سنة (480 هـ) على اقل تقدير ولا سيما على القول بوفاته سنة 523 هـ .

ويتحدث القفطي (560 ـ 641 هـ) : جمال الدين ابو الحسن علي ، عن حياة ابن باجة السياسية فيقول : (استوزره أبو بكر يحيى بن تاشفين والي فاس مدة عشرين سنة) .

ولكن اذا كانت الفترة التي عاشها ابن باجة بعد مفارقته سرقسطة الى حين اغتياله مسموما لا تستبعد ان يكون وزيرا طيلة هذه المدة التي ذكرها القفطي ، حتى على الرأي بانه غادر مسقط راسه سنة (512 هـ) ولكن على فكرة انه قضى سنة (533 هـ)، فان الزعم بوزارته كل تلك المدة لابي بكر يحيى بن تاشفين يقيه اقصاء ابي بكر عن فاس من طرف عمه علي بن يوسف الذي خلف اباه سنة (500 هـ) ، لما حاول الانتقاض على السلطة المركزية والاستبداد عنها بفاس : فهل وزر له قبل وفاة يوسف ؟ . وهذا ايضا يمنعه ان صاحبنا لم يغادر مسقط راسه قبل سقوط سرقسطة سنة ((501 هـ) لا سنة (512هـ) كما وهم الدكتور عمر فروخ ؟ .

ام ان القفطي اختلط عليه الامر والتبس بسبب وزارة ابن باجة لابي بكر ابن تيفلويت والي سرقسطة، كما وزر لابي بكر يحيى ، واتحاد كنيتي الرجلين اعني ابن تيفلويت وابن تاشفين جعلته يظنهما شخصا واحدا ؟ .

فقد نقل المقري في نفح الطيب عن الامير ركن الدين بيبرس المنصور المتوفى سنة (622 هـ) في كتابه (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) : ان ابن باجة وزر لابي بكر الصحراوي يعني ابن تافلويت صاحب سرقسطة .

ام ان القفطي جمع مدة وزارة ابن باجة لكل من والي فاس : ابن تاشفين ووالي سرقسطة : ابن تيفلويت فوجدها عشرين سنة فذكر ذلك مجملا دون اهتمام بالتفاصيل ؟

ام يقصد ان فترة عمله باجهزة الدولة بفاس استغرقت هذه المدة بقطع النظر عما اشتغله في الوزارة وفي مختلف المصالح دون الوزارة ؟

كل هذه التاويلات محتملة ، الا ان يكون وزر حقيقة عشرين سنة لخصوص ابن تاشفين اذ في النفس من هذا شيء :

على انه من الملاحظ على آثاره الفلسفية ، فيما لتشر فضائل ابن تيفلويت بعد وفاة هذا الاخير قد يفهم ان ابن باجة لم يستشعر لذة الحياة ولم يتذوق نعمة مباهجها وطعم سرورها في غير كنف هذا الرجل .. ومن شعره فيه ، والذي يدل على صدق الولاء وخلوص الوفاء ، اذ قاله بعد وفاته ، هذه الابيات المشبوبة العاطفة :

ايها الملك قد ـ لعمري ـ نعى المجـ
ـد نواعيك يوم قمن فنحنا

كم تقارعت والخطوب الى ان
غادرتك الخطوب في الترب رهنا

غير ان اذا ذكرتك ، والدهـ
ـر احال اليقين في ذاك ظنا

وسالنا : متى اللقاء ؟ فقالوا الحـ
ـشر ، قلنا : صبرا اليه وحزنا

وقد رثاه بقصائد اخرى مؤثرة ومنها هذه الابيات التي قيل انه انشدها على قبره :

سلام والمام ووسمي مزنة
على الجدث النائي الذي لا أزوره

احقا ابو بكر تقضى فلا يرى
ترد جماهير الوفود ستوره

لئن انست تلك القبور بلحده
لقد اوحشت انصاره وقصوره

على ان مدائحه تحية ذات نفس طويل ، وتشم منها رائحة صدق القول وقوة التعبير ، ومن تلك المدائح هذه الابيات :

توضح في الدجى طرف ضرير
سنا بلوى الصريمة يستطير (3)

فيا بابى ولم ابدل يسيرا
وان لم يكفهم ذاك الكثير

بريق لا تقل هو ثغر سلمى
فتائم انه حوب وزور (4)

فكيف وما اطل الليل منه
ولا عبقت بساحته الخمور

تراءى بالسدير فزاد قلبي
من البرحاء ما شاء السدير (5)

فلولا ان يوم الحشر يقضي
علي بحكم مولى لا يجور

دعوت على المشقر أن يجازى
بما تجزى به الدار الغرور

لقد وسع الزمان عليه عدوى
وضر بشبله الليث الهصور (6)

وقلبنا الزمان فلا بطون
تضمنت الوفاء ولا ظهور

سوى ذكر اطارحه ولولا
الامير ، لقد عفا ، لولا الامير

همام جوده يصف السواري
وسطوته يغيرها البحير (7)

قلنا نحن : كيف وراحتاه
بحور يلتظى فيها سرور

فهل فيما سمعت به خصام
يكون الخصم فيه هو العزير (8)

ويجمع المؤرخون على ان ابن باجة كان في مختلف أطواره رجلا اجتماعيا وسياسيا ورجل علم وادب وشعر وفلسفة في آن واحد . وكان يتواجد مع كل هذه الميادين ويخصص لكل منها فترة من وقته وحصة من اهتماماته ، وهو لذلك يوصي الانسان بأن يحيا مجتمعه بكل اخلاطه وطبقاته ومع تباين فضائله ورذائله الضروريتين المتلازمين ، ثم هو يوصي بأن يستكثر الانسان من المال مع حسن القيام على استغلاله وتصريفه في وجوهه المفيدة وذات النفع ، ثم هو في نفس الوقت يوصي بضرورة معاشرة الناس بما لا يجرح كرامتهم وشعورهم ، وبما يمكن ان يسمى بالمحافظة على الآداب الاجتماعية وآداب السلوك وبتعبيرنا الحضاري الاوروبي الحديث Etiquette وبلغ اهتمامه بهذه الخصلة انه كان يعاقب من لا يلازمها ولا يراعيها او لا يحسن استغلالها ، وفي ذلك يروون عنه القصة التالية ، فيما حكاه المقري عنه في نفح الطيب ، قال : « حكي ان أيوب بن سليمان السهيلي المرواني حضر يوما عند ابن باجة ، والشاعر ابو الحسن بن جودي هناك ، فتكلم المرواني بكلام ظهر فيه نبل وادب : فتجاسر ابن جودي على سؤال المرواني من يكون ؟ فاجابه بتأفف واستهجان بابيات شعرية تاركا له الاستنتاج منها من يكون ، وحين غادر المرواني المجلس قال ابن باجة لجليسه ابن جودي الشاعر : اساء ادبك بعد ما عهدت منك ؟ تعمد الى رجل في مجلسي تجدني قد قربته واكرمته وخصصته بالاصغاء اليه والانتباه الى كلامه فتقدم عليه بالسؤال عن نفسه ؟ فاحذرك ان تكون لك عادة فانها من أسوء الآداب » (9) .

---

(3) الصريمة : القطعة من الليل .
(4) الحوب : الاثم .
(5) البرحاء : الشدة .
(6) وسع له وعليه احاط ، والعدوى بضم العين الظلم .
(7) السواري : السحائب .
(8) العزير : المجبور .
(9) نفح الطيب ج 4 ص 308 ، مطبعة السعادة .

اما الابيات ألتي انشدها المرواني كجواب على سؤال ابن باجة فقد جاء فيها :

انا ابن الالى قد عوض الدهر عزهم
بذل وقلوا واستحبوا التنكـــــرا

ملوك على مر الزمـــان بمشـــرق
وغرب دهاهم دهرهم وتعثـــــرا

فلا تذكرنهـــم بالسؤال مصابهـــم
فان حيـــاة الرزء ان يتذكـرا (10)

واشتهر ابن باجة باغراقه في حـــب المــال واذخاره ، ولعل ذلك يرجع الى ان ما عاناه ، في حياته، وخاصة اثناء تنقلاته من مسقط راسه بالاندلس الى نهاية تطوافه ذلك بفاس ، وعن اهتمامه باذخار المال يذكرون عنه القصة التالية التي وقعت له أحداثها في جامع غرناطة ، وهو في طريقه متنكرا الى فـــاس ، تقول القصة : « دلف ابن باجة الى المسجد فالفـى مدرسا للعلوم العربية يتحلق حوله شباب يتدارسون، فجلس يصغى ، وامام زيه الغريب وعدم معرفتهم من هو استملحوا معاكسته فسالوه مستهزئيـــن : ماذا يحمل الرجل الفقيه ؟ وماذا يحسن من العلوم ؟ وماذا يقول : ؟ فرد عليهم قائلا : اما ما احمل فاني احمـل اثني عشر الف دينار ، واخرج لهم من تحت ابطيـــه اثنتي عشرة ياقوته كل واحدة منها بالف دينار ، واما الذي احسنه فاثنا عشر علما ادونها علم العربية الذي تبحثون فيه ، واما الذي اقول : فكذا وكذا ،واخـــذ يمطرهم بوابل من الحكم والآداب » حتى ندموا على ما فرط منهم في حقه وحاولوا استرضاءه ولكنه انصرف عنهم دون مبالاة ، ولم يتبينوا حقيقة الرجـــل حتى افلت من ايديهـــم .

وهذه القصة في مجملها تبين بجلاء كيـــف ان قيمة الرجل فكريا وثقافيا يكون التأكيد عليها من نافلة القول ، تؤكد القصة كذلك ان الرجل بلغ شأوا بعيدا في مضمار الثقة بالنفس ، وفي تطلعه وتمكنه من كثير من العلوم المعروفة لعهده ، وان برز في خصـــوص العلوم الفلسفية والمنطق والفلك .

وعرف الناس له فضله في هـــذا الميـــدان ، وخصوصا الاوروبيين الذين تلقوا دراساته بالاقبـــال والاكبار وعالجوها بالبحث والدرس ، حتى ان آثاره الباقية لا وجود لها تقريبا الا في خزائن اوروبا ، وعن هذه الخزائن تعرف المهتمون بالدراسات الفلسفية من ابناء العروبة المعاصرين على قيمة صاحبنا .

وللتدليل على تضلعه ومشاركته في اهم العلوم التي كانت معروفة لعصره نورد اولا بعـــض اقـــوال دارسيه من معاصريه وغيرهم ممن جاءوا بعده ، ثـم نذكر بعض مؤلفاته والمناحي العلمية التي عالجها .

فمما قيل عن تجليه في ميدان الفلسفة كلمة ابي الحسن علي ابن عبد العزيز الامام الغرناطـــي وكان يعاصره ، التي ورد فيها : « واما في العلم الالاهي فله نزعات تستقرا من احواله في (رسالة الوداع واتصال الانسان بالعقل الفعال) واشارات مبددة في اثنـــاء اقاويله ، هي في غاية القوة والدلالة على نزوعــــه في ذلك العلم الشريف الذي هو غاية العلوم ومنتهاها ، ومن المستحيل ان ينزع في التوطئات ، وتتقل لـــه انواع الوجود على كمالها ويكون مقصرا في العلم الذي هو الغاية ، ويشبه انه لم يكن بعد ابي نصر الفارابي مثله في الفنون التي تكلم عليها من تلك العلوم ، فانك اذا قارنت اقاويله فيها باقاويل ابن سينا والغزالـي بان لك الرجحان في اقاويله وفي حسن فهمه لاقاويل ارسطو » . ثم يقول : « وقد اثبـــت في الصناعـــة الذهنية وفي اجزاء العلم الطبيعي ما يدل على حصول هاتين الصناعتين في نفسه صورة ينطق عنها ويفصل ويركب فيها فعل المستولي عليها وعلى امدها » .

وقال ابن ابي اصيبعة عن مشاركته في سائـــر العلوم : « كان ابن باجة متميزا في الادب والعربية ، حافظا للقرءان ، متقنا لصناعة الموسيقـــى ، جيـــدا للعب بالعود ، من الافاضل بصناعة الطب ، عالما بعلوم الاوائل ، وله تصانيف في الرياضيـــات والمنطـــق والهندسة ، اربى فيها على المتقدمين ، وتعاليق فـــي علم الهيئة تدل على الروعة في هذا الفـــن ، وكـــان يشارك الاطباء في صناعتهم فحسدوه حتى ابتلـــى بمحن كثيرة وشناعات من العوام وقصدوا اهلاكـــه

(10) نفح الطيـــب ج 4 ص 345 ، مطبعة السعادة.
(11) ابن باجـــة لعمـــر فـــروخ ص 26 — 27 .

وسلمه الله منهم ، وله رسالة في المجسطي (12) لبطليموس المتوفى قرب الاسكندرية سنة 167 م وفي انتقاده ، وكان جماعة اشتغل بشؤون كثيرة ، وهو في الادب فاضل لم يبلغ احد درجته من اهل عصره في مصر » .

وقد نقلنا قبل كلمة ابن طفيل التي ورد فيها عنه : « ثم خلف من بعدهم ، اى الفارابي وابن سينا والغزالي خلف آخر أحذق منهم نظرا ، واقرب الى الحقيقة ، ولم يكن فيهم أثقب ذهنا ، ولا أصح نظرا ، ولا أصدق روية من أبي بكر بن الصائغ » .

وقال عنه القفطي : « انه عالم بعلوم الاوائل » .. وادرجه ابن خلدون على رأس قائمة اكابر فلاسفة الاسلام والذين بلغوا الغاية في العلوم ، واختصوا بالشهرة والذكر دون سواهم واعتبره ، ابن الخطيب خاتمة علماء الاندلس .

ومما يدل على تفوقه في علم الفلك والهيئة – وتنسب القصة لغيره كذلك – وفيما حكوه عنه – انه حسب وقت كسوف البدر بصناعة التعديل فزور في نفسه بيتين من الشعر في مصابه في عزيز عليه يخاطب بهما القمر ، ولحنهما ، حتى اذا كان وقت الكسوف وحدوثه عمليا ، تغنى بالبيتين بذلك الصوت الشجي واللحن يسوق الشوق ويزجي ، فكف القمر في الحال ، وعدت هذه من نوادره ، التي جيد الاخبار بفرائدها حال ، أما البيتان فهما :

شقيقك غيب في لحده
وتشرق يا بدر من بعده

فهلا كسفت ، فكان الكسو
ف حدادا لبست على فقده

وللاسف ، فقد كان تبحره هذا سببا في اغتياله وتسميمه ، ذلك انه اذا كان لم يتمكن اعداؤه من الفقهاء ، وحساده من الوصوليين ، والانتهازيين من اسكات صوته في ميدان الفلسفة او عن طريق هذه الفلسفة ، كما اسكتوا كل من اشتغل بها قبله ، بتحريض العامة ومن وراء عامة الدولة ، ورميه بالالحاد والزندقة ، فقد تمكنوا من اغتياله بالسم .

وقد حاول الفتح بن خاقان لحاجة في نفسه ان يتزعم ذلك التحريض عليه بما كتبه عنه في كتابه القلائد ، بما كان يتمتع به من حصانة علمية ، ولم يتمكنوا كذلك من محاربته في الميدان الطبي الذي كان يجد فيه الرعاية من الجميع حتى من مناوئيه نظرا لتعلق مصالح هذا الجميع به ، فلم تكن مناهضته فيه ومناوأته متيسرة ولا سهلة ، فقد اضطروا ، وعلى رأسهم أبو العلاء بن زهر القرطبي المتوفى سنة 525هـ ان يكيدوا له ويتربصوا به الدوائر وان يتمكنوا اخيرا من سمه في باذنجان في شهر رمضان سنة 523 – 525 – 533 هـ ، ولم يتجاوز مضمار الشباب ، وقد دفن رحمه الله قرب قبر ابن العربي بفاس .

ولزيادة توضيح قيمة الرجل ثقافيا نلقي نظرة على مخلفاته وآثاره ، ونسرد جردا لمؤلفاته ، وهي من الكثرة بحيث يعسر حصرها ، ومنها :

1) شروح وتعاليق على كتب ارسطو .

2) شروح وتعاليق على كتاب أبي نصر الفارابي في الصناعة الذهنية .

3) كلام في العناصر او ما يسمى تقنيا : « الاسطقسات » أى الماء والنار والهواء والتراب .

4) كلام في البرهان والاسم والمسمى أي المنطق .

5) مقالات حول السماع والاثار العلوية والكون والفساد والحيوان والنبات وماهية الشوق الطبيعي ، وما يمكن به الوقوف على العقل الفعال ، والنفس النزوعية – والغاية الانسانية ، وحول الالحان ، وفي خصوص خصائص النيلوفر من الاهزار .

---

(12) المجسطي : اقدم كتاب في علم الفلك والهيئة ، وضعه اليونان سنة 148 م عربه اسحاق بن حنين المتوفى سنة 911 م ببغداد ، وهو طبيب وفيلسوف ، نقل الى العربية عن اليونانية أصول الهندسة لاقليدس ، والكرة والاسطوانة لارخميدس وسوفسطوس لافلاطون ، والمقولات لارسطو .

6) قصيدتان في الطرديات والصيد وفي الادوية المفردة .

وله غير ذلك من الابحاث التي اشار اليها « ماجد فخري » فيما نشره اخيرا تحت عنوان : « رسائل ابن باجة الالاهية » .

اما اهم الموضوعات التي عالجها فلسفيا فهي كثيرة منها :

1 ـ الموجودات والحركات والصور والمادة ومراتب الوجود .

2 ـ قوة النفس والعقل والمعرفة ، والتوحيد، والاخلاق ، والارادة .

3 ـ الخلود والسعادة .

4 ـ الاجتماع والسياسة والتربية وعلم النفس .

وانتهى من كل ذلك الى استنتاج الخلاصة الآتية التي يقول فيها : « ان على الانسان ان يتصل بالعقل الفعال الذي يفيض من الله عن طريق ترقية نفسه وقواه العقلية ليبلغ السعادة القصوى ، وان الطريق الصحيح في الوصول الى الله هو التفكير والتامل لا الاحوال الصوفية القائمة على اماتة الحواس وعزل العقل عن معرفة الله كما يرى الغزالي » .

على انه من الملاحظ على آثاره الفلسفية ، فيما يخص الشكل والقالب انعدام التنسيق ، وفقدان الاتساق ، اما من حيث المحتوى والمضمون فياخذون عليه الغموض وانعدام الشمولية او قلة الاحاطة بعناصر الموضوع ، على انه ربما بدا كتابا ثم تركه قبل ان يتمه ، وربما عرض للبحث الواحد في كتب متفرقة ، كما ان بعض اساليبه يكتنفها الغموض ويصعب فهمها غالبا .

اما آثاره الادبية فقد احتفظت له كتب التراجم والطبقات ببعض مقطعاته الشعرية التي تبدو عليها مسحة التفلسف كما نبه على ذلك ابن خلكان .

وقد اشاد كل من وقف على آثاره الادبية في عصره ، باستثناء الفتح بن خاقان الذي اتخذ منه موقفين متناقضين ، اذ في الوقت الذي اشاد به في بعض الكتب التي وضعها قبل كتابه القلائد ، عاد في هذا الكتاب النيل منه ونسبه الى التعطيل ووصمه بالكفر والالحاد والزندقة وقلة الاجادة ، وكان هذا راجع من صاحب القلائد بسبب ما اشار الى بعضه ابن الخطيب في الاحاطة من نشوب خصومة شخصية بين الرجلين تحولت الى عداوة مستحكمة ، استغلها صاحب القلائد للنيل من ابن باجة .

الا ان الناس المعاصرين لصاحب القلائد يعرفون جيدا ما كان يحيط بحياة الفتح بن خاقان من شذوذ ، وانحراف ، وما يتصف به من مشاكسة وعداوة الاكابر حتى انه كتب رسالة شكوى بابي العلاء بن زهر الى علي بن يوسف بن تاشفين يستعديه عليه ، وبهذا ندرك حقيقة تحاملاته على ابن باجة ، وانها لا تعدو ان تكون كما وصفها ابن الخطيب بانها مجازفة وانه هو نفسه كان مجازفا مقدورا عليه .

على ان ابن خلدون لدى ذكره الوشاحين عد ابن باجة من شوامخهم وقارنه بابي بكر الابيض وابن زهر ، والتطيلي ، وذكر من اجادته للتوشيح ان ابن تيفلويت لم يتورع عن شق ثيابه يوم أنشده ابن باجة احدى موشحاته وانه حلف بالايمان المغلظة ، ان لا يمشي الشاعر ابن باجة لداره الا على الذهب ، فاحتال ابن باجة بان جعل في نعله ذهبا ومشى عليه خوفا من سوء العاقبة .

ويعد ابن باجة كذلك من المتقدمين فى الموسيقى تلحينا وغناء حتى عيب عليه ذلك واعتبر فيما اخذ عليه من عيوب

... والآن نسوق ما أوردوه له من مقطعات شعرية تنم عن روح شاعرية طموح ، وعاطفة قوية مشبوبة وعلى تجربة ومعاناة عميقتين مع الاشارة الى انه من المؤسف حقا ان اشعاره لم يكتب لها حتى الآن ـ فيما نعلم ـ ان جمعت كلها في ديوان خاص ، كما ننبه الى ان شعره من حيث الشكل يتسم بالوضوح في الالفاظ والتعابير ، اما من حيث المضمون فتغلب عليه العقلانية مما يجعله قريبا من شعر الحكم والوصايا ، ولا شك ان هذا ناتج

عن شخصية ابن باجة الفلسفية وعن مركزه الاجتماعي كطبيب ومركزه السياسي كوزير مسؤول .

فمن شعره في شكواه ـ وهو سجين ابراهيم بن يوسف بن تاشفين بشاطبة :

خفض عليك فما الزمان وريبه
شيء يدوم ، ولا الحياة تدوم

واذهب بنفس لم تضع ، لتحلها
حيث احتللت بها وأنت عليم

يا صاحبي ـ لفظا ومعنى ـ خلته
من قبل ، حتى بين التقسيم

دع عنك من معنى الاخاء ثقيله
وانبذ بذاك العبء فهو ذميم

واسمع ، وطارحني الحديث فانه
ليل ـ كأحداث الزمان ـ بهيم

خذني على اثر الزمان ، فقد مضى
بؤس على ابنائه ونعيم

فعسى ارى ذاك النعيم وربه
مرح ورب البؤس وهو سقيم

هيهات ، ساوت بينهم اجداثهم
وتشابه المحسود والمحروم

... ومما قاله في معتقله عند بني هود هذه الزفرة يستنجد فيها أميره ابن تيفلويت ليتدخل لتحريره :

لعلك ـ يا يزيد ـ علمت حالي
فتعلم اى خطب قد لقيت

واني ان بقيت بمثل ما بي
فمن عجب الليالي ان بقيت

يقول الشامتون : شقاء بخت
لعمر الشامتين : لقد شقيت

اعندهم الامان من الليالي
وسالمهم بها الزمن المقيت

وما يدرون انهم سيسقوا
على كره بكاس قد سقيت

ويلاحظ في الشطر الاول من البيت الاخير حذفه نون الافعال الخمسة دون سبب نحوي من ناصب او جازم لضرورة الوزن ؟

وحين بلغه عزم عماد الدولة على تنفيذ عقوبة الاعدام فيه قال :

اقول لنفسي حين قابلها الردى
فراغت ـ فرارا منه ـ يسرى الى يمنى

قري تحمدي بعض الذي تكرهينه
فقد طالما اعتدت الفرار الى الاهنا

ومن شعره في الغزل والتشبيب :

اسكان نعمان الاراك تيقنوا
بانكم في ربع قلبي ، سكان

ودوموا على حفظ الوداد فطالما
بلينا باقوام اذا استحفظوا خانوا

سلو الليل عني اذ تناء دياركم
هل اكتحلت لي فيه بالنوم أجفان؟

وهل جردت اسياف برق سمائكم
فكانت لها ـ الا جفوني ـ اجفان ؟

ومن لطيف معانيه :

اتاذن لي آتي العقيق اليمانيا
اسائله ما للمعالي ، وما ليا ؟

وهل داركم بالحزن قفراء ، انني
تركت الهوى يقتاد فضل زماميا ؟

فيا مكرع الوادي اما فيك شربة
لقد سال فيك الماء ازرق صافيا ؟

ويا شجرات الجزع هل فيك وقفة
وقد فاء فيك الظل اخضر ضافيا ؟

ومن روائعه قوله :

يا شائي حيث لا استطيع ادراكه
ولا اقول : غدا اغدو فالقاه ؟

اما النهار ، فليلي ضم شملته
على الصباح ، فأولاه كأخراه ؟

اغر نفسي بآمال مـــزورة
منها لقاؤك ، والايام تأبـــاه

ومن شعــره الفلسفــي قولـــه :

الا يارزق ، والاقـدار تجـري
بما شاءت : نشـا او لا نشـاء

هل انت مطارحي شجوى فتدري
وادري كيف يحتمـل القضـاء ؟

يقولون : الامور تكـــون دورا
وهذا فقده ، فمتـى اللقـــاء ؟

ونحب ان نختم شذراتنا المختارة هذه مـن شعر ابن باجة بالبيتين اللذين رثـى بهمـا امـه ، لكونهما يصح ان يكونا شاهدين اولا على وفائه لمـن الجنة تحت اقدامها ، وثانيا على ايمانـه بالقضـاء والقدر والبعث والديمومة ، خلافا لما يرميـه بـه بعض مناوئيه من كفر بالآخرة وجحود للقيامة : مـع ملاحظة ان جميع أشعاره تقريبا وردت فـي شكـل استفهامات مما يومىء الى الفكر الفلسفـي القائـم والمبني على البحث والتقصي .. قال يرحمه الله :

فيا ركب المنـون الا رسول
يبلغ روحها ارج الســلام

سألت متى اللقاء ؟ فقيل حتى
يقوم الهامدون من الرجـام

للحديـث صلـــة

فـاس : عبد الكريم التوانـي

القصائد الفائزة
في المسابقة الادبية
حول المولد النبوي الشريف

●● ننشر في العدد القادم مجموعة القصائد الفائزة في المسابقة التي نظمتها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية بمناسبة عيد المـولـد النبوي الشريف . وهي للاساتذة الشعراء :

- أحمد عبد السلام البقالي
- محمـد الحـلـوي
- عبـد الكريـم التوا تي
- عبـد الـواحـد السلمي
- عبـد الفتـاح إمـام

رواد الصحافة المغربية :

محمد المراكشي

مؤسس مجلة "الأنيس"

بقلم: الأستاذ الحاج أحمد معنينو

للاستاذ الحاج أحمد معنينو صلات قوية برواد الصحافة بالمغرب . وفي هذا العدد يكتب لنا عن صحافي مغربي اختطفته يد المنون في عنفوان شبابه وقمة عطائه في العقد الرابع من هذا القرن . و (دعوة الحق) اذ تنشر هذا المقال ، تسهم بذلك فى تسجيل مرحلة هامة من مراحل النهضة في المغرب من خلال تاريخ البدايات الاولى للصحافة الثقافية بلادنا .

ولادته : ولد محمد بتطوان عام 1344 هـ من ابوين محترمين ، والده المعلم الشهير بتطوان عبد القادر المراكشي .

لم يكن والده قد رزق مولودا ولا مولودة قبله ، ولما انعم الله عليه بهذا الولد المبارك فرح كثيرا واعتنى بتربيته اعتناء كبيرا ، ولم تكن حالته الصحية سالمة ، بل كان فيه انحراف وضعف منذ الطفولة . وابتدأ تعليمه في « الكتاب القرآني » حسب الاعراف المغربية ، وكان ابوه يتفقد احواله ، ويعتني به كثيرا ، وبعد ختم كتاب الله . . قام والده باحتفال فخم بهذه المناسبة الشريفة ، وتزود بحفظ المتون ، وشرع يتلقى مبادىء العربية والدين مدة ثلاث سنوات ، ثم ظهر للوجود معهد مولاي المهدي بتطوان فانخرط في صفوف تلامذته وكان شابا نجيبا ومهيئا للمعرفة ، داوم على الدراسة به بجد واجتهاد حتى حصل على الشهادة الابتدائية .

في هذه الاثناء تأسس المعهد الرسمي للدراسة الثانوية بتطوان ، فكان المغفور له من اول المنخرطين في سنته الاولى من الثانوي ، تابع الدراسة حتى قطع المراحل الموجودة بهذه المؤسسة .

ولما تخرج منه تاقت نفسه الى دراسة اللغة الاسبانية فتقدم من حينه للمدرسة الاسبانية « اكاديميا لاخنرال » بتطوان فعرض عليه الالتحاق بالمدرسة الثانوية بمدريد فالتحق أولا بالسنة الرابعة ، وفي العام التالي بدأ يدرس مقرر السنتين الخامسة والسادسة معا ، فكان يدخل للمدرسة على الساعة السابعة والنصف صباحا ، ويخرج في السابعة والنصف مساء ، وقد نفذ عزيمته رغم ما كان يشعر به من ضعف وانحراف في صحته ، وتقدم للامتحان ، ونجح في سنتين . فاعجب بذكائه النادر . وتفوقه جميع هيئات الامتحان التي تحضر خصيصا لذلك ، من الجامعات الاسبانية على يد وزارة المعارف

الاسبانية ، والتحق بالسنة السابعة وهي الاخيرة . ولكن الارشادات الطبية اشارت عليه ان ينقطع عن الدراسة لخطورة المرض . وانقطع فعلا تحت تأثير المرض الذي اصبح يشعر به . كان رحمه الله يستسهل كل صعب ، وكانت له عزيمة قوية ، وهمة عالية . لذلك نجده في حياته الدراسية لا يكتفي بما يدرسه في الفصل . بل دائما يعمل جهده ، ويتعرف على المعارف بشتى الوسائل ، ويطالع بعض الكتب والمجلات ويتمرن على فهم سلوك الجرائد لانه كان ذا اتجاه قوي لمهنة الصحافة فتتقوى معلوماته وتزدهر.

كما كان رحمه الله ذا مزايا انسانية ، مع اصدقائه واخوانه فكان يعطف على الضعاف منهم ، ويساعد الكثير منهم ماديا وادبيا ، ولا يبخل عليهم . كان يشتري لبعضهم لوازم المدرسة ، وكل ما يلزم ، وكان يرشد رفقاءه للصالح العام ، والسلوك القويم ، الذي كان من مميزاته . يقوم باكرا . ويقرا الصحف ويزور اصدقاءه في بيوتهم ورغم بعد منزله بنحو ثلاث كيلومترات لم يسجل عليه تاخير في يوم ما . وبجده واجتهاده أصبح يحسن الكلام والكتابة والقراءة بعدة لغات العربية ، الاسبانية ، الفرنسية ، الانجليزية . وكان يستطيع ان يترجم من واحد لاخرى بكل سهولة .

حياته العلمية :

في دراسته الابتدائية بمعهد مولاي المهدي ظهرت عبقريته ونجابته فعين اولا في عضوية الهيأة الاجتماعية . وانتمى لجمعية الاناشيد والتمثيل ، واصبح يحاول الاتصال بالخارج بواسطة المراسلات والاعتناء بالطوابع البريدية حتى تكونت عنده مجموعة وافرة منها واصبح يتبادل الطوابع البريدية مع شتى جهات العالم شرقية وغربية الى ان عينته جمعية طوابع البريد بمدريد عضوا فيها ، وحاول ان يكتب بالجرائد الاسبانية في موضوع الطوابع البريدية ، وقد هيا عدة مجموعات مختارة في دفتر خاص يقدمها هدية الى الاصدقاء . وفي معهد مولاي المهدي ايضا شرع يشتغل بورقة يسجل فيها الاحداث والمختارات ويوزعها . كجريدة مدرسية .

وقد بلغ عدد المتعارف معهم بالشرق والغرب وامريكا نحو 300 شخص وجمعية ثم اصدر جريدة خطية نصف شهرية بالمعهد يوزعها بكل ضبط ، وكانها جريدة قائمة الذات .

ولما انتقل للمعهد الرسمي سعى مع الادارة في اصدار جريدة مدرسية تطبع بالمطابع كبقية الصحف، تعتني بشؤون الدراسة غير انه كان ذا عقل ثابت يرشده الى اشياء وكانه يسرع بالاعمل المجدية لقصر عمره .

وعقب تفرغه من الدراسة انشا مجلة «الانيس».

كان رحمه الله صحافيا بالفطرة ، ولما عزم على اصدار هذه المجلة اتخذها تجربة لحيوية الطلبة والشباب ينشرون افكارهم وعصارة انتاجهم ، واختار اسم « **الانيس** » وقدم طلبا للدوائر المسؤولة ، وأصبحت تصدر شهريا ، وقد سهر على نموها وازدهارها وتقدمها وانتشارها ، ولمدة ثلاث سنوات متتابعة عكف على اصدارها في اوقات محددة ، واكتسب كتابا ومراسلين من جهات عديدة :

لم يكن لهذه المجلة اعانة حكومية ، بل يصرف ليها من مال والده الذي كان طوع ارادته في كل ما يريد . والحقيقة ان هذا الشاب كان صاميا وعبقريا موهوبا نبوغا حادا كما كان ذا شعور بالمهمات واداء للواجبات ، وخلق جميل ، وكرم وعفة . كان يهيء نفسه لان يصبح رجلا دبلوماسيا وسياسيا عظيما لم يكن يبالي بالصعاب ، بل كان يقول : « لا صعب يقف في طريق العاملين المخلصين » .

ومن اماني الشاؤه لصحيفة مدرسية مصورة للاطفال كما سعى في تأسيس مكتبة عربية وكان يؤمل أن يصدر مجلة عربية اسبانية غير ان امله لم يتحقق حيث جاءه النذير .

أصيب في المدة الاخيرة بمرض صعب يتقوى به مرضه الاول الذي يصحبه منذ الصبا ، وطرا عليه فجاة فكان سبب موته ، بعد ما قام بجولة عامة لاطراف المغرب ، وتعرف بكل جهة زارها بشباب وشيوخ وتعرف على مفكرين وشعراء وسياسيين وربط الصلات مع الجميع لولا الموت الذي لم يهمله بل اخذه في عنفوان شبابه وطموحه بحيث اقتصر في المدة الاخيرة من مرضه على قراءة الصحف والانكاف لى تلاوة القرءان وختمت انفاسه العطرة في يوم الاحد 5 شعبان الابرك 1367 هـ موافق 13 يونيه 1948 م .

وقد رثاه الكثيرون من الاصدقاء الاوفياء وخصص عدد خاص من مجلة الانيس الغراء لتأبينه بكلمات وقصائد . رحمه الله وأثابه .

القيم الروحية

هل لها عوائد مادية ؟!

للأستاذ أحمد عبد السلام البقالي

من الحكايات الكلاسيكية التي يويها الابناء عن الآباء بالمغرب هذه الحكاية :

« في أوائل هذا القرن وصلت الى فرنسا بعثتان في نفس اليوم ، أولهما يابانية ، والثانية مغربيـــة .

« واتمت البعثتان دراستهما في (فرنسا) ، وعادتا الى بلديهما ، فرحبت (اليابان) ببعثتها ، وزودتها بكل ما احتاجت اليه لاستعمال معلوماتها ونشرها ، فصارت النواة الاولى لعظمة (اليابان) الصناعية والعسكرية والعلمية ..

« وعادت البعثة المغربية الى بلادها بعد وفاة الملك العظيم (الحسن الاول) ، الذي كان صاحب فكرة ارسال البعثة لاقتناعه بضرورة الاخذ عن الغرب، كما اخذ هو عنا .. عادت البعثة فعوملت شر معاملة من طرف تنابلة القصر الذين خافوا على امتيازاتهم من افراد البعثة المتعلمة ، فكادوا لهم ، وحرضوا عليهم، واتهموهم بالخروج عن الدين » ! .

كانت هذه الاعتذارية الجاهزة مبررا دائم الحضور في أفواه الكبار حين يرجع اليهم الصغار ، بعد الصدمة الاولى من مقارنة أنفسهم وبلادهم بغيرهم من اهل البلاد المتحضرة ، واكتشافهم المصير المتردي الذي آلت اليه « خير امة أخرجت للناس» !

ويتضمن هذا التبرير الساذج انه لولا سوء معاملة طلابنا العائدين من (أوروبا) لكان المغرب اليوم (يابانا) أخرى ..

وطبعا أصبحت هذه الاطروحة مرفوضة في مجملها من طرف كل من صارت له صلة بعلوم الاجتماع ، واطوار التاريخ من شباب الامس ؛ فحتى لو كانت البذور (الطلاب) صالحة حينئذ ، فان الارض (الشعب) لم تكن خصبة ، ولا مهيأة لقبولها ، على عكس ما كانت عليه الارضية اليابانية في ذلك الطور الحاسم من تاريخها الحضاري ، وما كانت عليه قيمهم الاخلاقية من حيوية وتمكن في النفوس ..

فبينما كانت آخر اضواء الحضارة الاسلامية (الدولة العثمانية) ترتعش وتخبو لتنطفىء ، وبقية الامة الاسلامية يغط في سبات التخلف العميق ؛ كان الشعب الياباني يستفيق من نومه الطويل نشيطا متحفزا لبدء يوم جديد من أيام الحضارة البشرية في دورتها التاريخية الخالدة .

وحين عاد الطلاب اليابانيون من (فرنسا) الى بلادهم كانوا يحملون معهم نسخا طبق الاصل لاسس الصناعة والتيكنولوجيا الغربية . وكانت بلادهم تنتظرهم كما تنتظر الارض الطيبة البذور السليمة . والغيث الهتون .

ولست هنا أحاول اعطاء مفهوم علمي جديد للاعتذارية القديمة .

ولست هنا ، ايضا ، بصدد الاجابة عن السؤال الكبير القديم : « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ » . فهو في نظري سؤل ما كان ينبغي ان يطرح من البداية ! فهو سؤال اكاديمي ينظر سائله الى الوراء بدل ان يتوجه نحو المستقبل . وهو من قبيل « لماذا يولد غيرنا ، ونشيخ نحن ونموت ؟ » والجواب عليه بسيط وهو : « تلك سنة الكون » !

وكان الاولى ان نسأل : « كيف نبدأ من جديد ؟ » .

* * *

الظاهرة اليابانية :

اما الظاهرة التي اريد ان اناقشها هنا فهي ظاهرة اخلاقية انفردت بها (اليابان) في هذا العصر، وكانت عاملا اساسيا خفيا في بناء كيانها الحضاري الجديد ، وفي تقدمها الصناعي : وازدهارها الاقتصادي ، وقوتها العسكرية التي دوخت الغرب . تلك الظاهرة هي (الحياء) . الحياء كطبع مميز لغالبية الامة . فكما يتميز العرب بالكرم ، والمصريون منهم بالنكتة ، والانجليز ببرودة الدم الناتجة عن كبت العاطفة ، والفرنسي بالهوى ، والامريكي بالسرعة والمحافظة على الوقت ، واليهودي بجمع المال ، كذلك يتميز الياباني بالحياء في طبعه ، والدقة في عمله ، كنتيجة لاستحيائه من عدم اتقان ما اسند اليه من اعمال ..

وهذه الظاهرة الاخلاقية ليست بغريبة علينا نحن المسلمين .. بل هي احد اركان اخلاقنا . والجميع يعرف قصة الرجل الذي اشترط على رسول الله لكي يدخل الاسلام الا يصلي . فقبل منه الرسول الحكيم صلى الله عليه وسلم ذلك ، واشترط عليه ان يستحي . فلما حضرت الصلاة ، وقام المسلمون جميعا للصلاة ، وجد نفسه المخالف الوحيد لاجماع المسلمين ، فاستحيى وقام فتوضأ ، وانضم الى المسلمين ..

وحين اختفى حياؤنا ، ذهبت معه جديتنا ، ووفاؤنا بالتزاماتنا ، وتوقف تقدمنا فانهارت حضارتنا ..

وهذا موضوع آخر لسنا بصدده الآن ..

(الحياء)

سأل مستجوب بهيأة الاذاعة البريطانية (ب. ب. س.) احد رجال الاعمال اليابانيين :

— كيف تستطيعون الوفاء بعقودكم ، وانجازها في الوقت المحدد لها ؟ .

فاجاب رجل الاعمال الياباني بكلمة واحدة :

— الحياء !

وظهر الارتباك على الصحافي الانجليزي ، فانقذه الياباني شارحا :

— حين نوقع عقدا مع زبون ، سواء كان شركة او دولة ، فاننا نجمع جميع العمال الذين سيقومون بتنفيذ مشروع الصفقة ، ولنفرض انه بناء سفينة مثلا ، فنخبرهم بكل ما يتعلق بالصفقة في جميع مراحل انجازها ، وموعد تسليمها للطرف الآخر . وحتى الارباح التي ستعود على شركتنا منها، ونستمع الى تعليقاتهم ، وملاحظاتهم ، وناخذها بعين الاعتبار . وحين يلتزمون بانجازها فانهم يفعلون ، وفي الموعد المحدد . فاذا وقع تاخير ما من فرد او فريق لاي سبب من الاسباب ، فان العامل منهم لا يستطيع رفع عينيه الى وجه زميله .. الاحساس بالعار عندنا قوي .. ونحن نتفاداه بجميع الوسائل .. وهو السر وراء وفائنا بالتزاماتنا المحلية والدولية .

سائق الرئيس (تاناكا) :

ولابراز عنصر الشعور بالعار الناتج عن الحياء والمروءة لا بد ان نورد هنا حدثا روته جرائد اليابان اثناء محاكمة رئيس الوزراء السابق (تاناكا) بتهمة الارتشاء .

فحين علم سائقه باستدعاء المحكمة له ليشهد ضد مستخدمه بانه حمل هدية ما الى صندوق سيارته ، فضل الانتحار على الشهادة ضد رئيسه !

وهذا ما يفسر عمليات (الهراكيرى) — الانتحار بشق البطن — التي كان يقوم بها الضباط اليابانيون امام القصر الامبراطوري كل يوم بعد استسلام

« اليابان » في الحرب العالمية الثانية ..

الشركـــة كـــاسرة :

في زيارتي الاخيرة لليابان سألت مرافقي ، في معرض الحديث عن مشاكل الصناعة ، واضرابـــات العمـــــال :

ـــ هل يضرب العمال اليابانيون ؟

فحرك الشاب الياباني رأسه قائلا :

ـــ الاضراب آخر ما يلجأ اليـــه العامـــل الياباني ، فقليلا ما تسمح المؤسسات بنشوء أسبابه .. ذلك ان طبيعة تكوين شركاتنا هنا تختلف عنها في الغرب .. فالعامل الياباني والموظف بشركة ما يصبح منتميا اليها انتماءه لعائلته .. واغلب العمال والموظفين هنا يلازمون العمل مع مؤسساتهم مدى الحيـــاة .. وهناك روح عائلية داخل المؤسسة يطبعها الوفـــاء ، والاحترام المتبادل ، وروح الفريق الرياضي الـــذي يحس اعضاؤه بالمسؤولية على نجاحه ، ويبذلـــون قصاراهم لفوزه ، ويحسون بالعار لفشله .

وضرب لي مثلا عمليا على ذلك :

ـــ حين يريد العمال طلب رفع الاجـــور في في شركة يابانية فانهم يجتمعـــون اولا ويتدارسون حالتها بالنسبة للشركات المنافسة لها ، فاذا رأوا ان شركتهم تستطيع الزيادة في اجورهم دون ان يضر ذلك بها امام منافساتها ، طلبوا الزيادة . واذا رأوا ان الزيادة ستعرقل من نمو شركتهم وقدرتها على المنافسة عدلوا عن المطالبة بها ..

وليعرب العامل الياباني عن عدم رضاه بوضعه فانه يعلق شريطا اسود حول ذراعه أثناء العمـــل .. ولكنه لا يتوقف احتجاجا .

ومما عرفته اثناء زيارتي لاحد مصانع السيارات (بهروشيما) ان التحسينات ، والتطويرات الجديدة في اسلوب العمل او تشكيل بعض القطع في هيكل ما كثيرا ما تأتي اقتراحاتها من العمال انفسهـــم . فاذا اتفق عمال الورشة على اسلوب ما للعمـــل ، او على تحوير في جهاز ، فما على رئـــيس الفريـــق الا ان يوافـــق .

في بريطانيــــــا :

ورجعت بذاكرتي ، وانا انصت الى مرافقي الذي كان يواجهني في عربة (القطار الرصاصـــة) بيـــن ((طوكيو)) و ((كيوطو)) ، رجعت الى الايام التـــي قضيتها في بريطانيا وما كنت احس به من العجـــب والاستغراب لصفاقة العامل الانجليزي ، وانعـــدام وطنيته ولا مسؤوليته في اعلانه الاضرابات الطويلة المدى والتي يطلقون عليها من باب تسمية الاشيـــاء باضـــدادهـــا : Industrial Action

اي (الحركة الصناعية) .. لاتفـــه الاسبـــاب .. (اضراب مصنع باسره مرة لان الحليب الذي جاؤوهم به للشاي لم يكن ساخنا) .

العامل الانجليزي يلتذ بمنظر شركتـــه وهـــي تنهار . اعماه حقده الطبقي على مستخدميـــه ، سواء كانوا شركة او حكومة ، فصار يتمتع بتخريبهم غيـــر دار انه ، كما يقول المثل الانجليزي : « يقطع انفـــه ليغيظ وجهه » : «He cuts his nose to spite his face»

وان افلاس شركته يعني بطالته وجوعه ، وضعـــف بلاده امام غيرها .. وقد بلغ الانحلال بمثقفيهم حـــد التبرؤ من الوطنية تبرؤهم من داء عضال ..

ولا شك ان العالم باسره يقف فاغر الفم أمـــام انهيار صحيفة من أعرق صحف العالـــم ، جريـــدة (التايمز) البريطانية ، بسبب رفض عمالها ادخـــال التكنولوجيا الحديثة على اجهزة طباعتها القديمـــة ، خوفا على الاستغناء عن بعضهم ، متجاهلين انه بافلاس الجريدة .. وملحقاتها (الصاندي تايمز) سيفقـــد الجميـــع اعمالهم !

وكم خسرت (بريطانيا) من صادرات وبالتالي من سمعة في ميدان الوفاء بالعقود ، مـــن جـــراء اضرابات عمال المراسي والموانىء !

حكايـــة الرولز رويـــس :

ومن الحكايات الدالة على هذا الطبع الشاذ هذه الحكاية التي يرويها الملاحظون عن الفرق بين العاملين الانجليز والامريكي :

« سئل عامل اميريكي :

— حين ترى سيارة كاديلاك تمر امامك ، ما ذا الذي يخطر ببالك ؟

فرد الامريكي :

— افكر في ان اضاعف جهودي في العمل والكسب حتى املك كاديلاكين .

وسئل العامل الانجليزي :

— حين تدرج امامك سيارة رولز رويس ، ما ذا يدور بخلدك ؟

فاجاب :

— ان اعلن الاضراب على صاحبها حتى يفلس ويصبح عاملا بسيطا مثلي !

حكاية اللص :

وعن نفس هذه العقلية الدموية يصدر الفرد الانجليزي العادي في سلوكه الذي سجله البرنامج التلفزوني الامريكي الناجح (الكاميرة الخفية) ، وقارن فيه بين موقف رجلي الشارع الامريكي والانجليزي من (اللص) ...

« وضع (آلن فانط) ، صاحب البرنامج ، سيناريو يظهر فيه رجل عصابات امريكي بقبعته المعقوفة ، وقميصه الاسود ، ونظارته الداكنة ، وهو يحمل حقيبة يد كبيرة ، ويجري ليقف امام رجل واقف على باب بيته فيطلب منه ان يخفيه من البوليس الذي يطارده .

ويستجيب الرجل الامريكي بالاشارة الى اللص الى مكان تحت سلم المنزل ليختفي فيه .

وياتي رجل الامن بصفارته ومسدسه ، ويسال الرجل :

— هل رايت رجل عصابة يمر من هنا ؟

فيجيب الرجل كاذبا ومشيرا الى شارع آخر :

— نعم .. انه ذهب في ذلك الاتجاه .

وحين يختفي الشرطي يهمس للص ليخرج ، ويفر في الاتجاه المعاكس ..

تكررت هذه العملية مرارا في شوارع (مانهاتان) و (بروكلين) و (شيكاغو) بنفس النتيجة .

رجل الشارع الامريكي يتستر على اللص ، ويكذب على رجل الامن .

وانتقل البرنامج الى (بريطانيا) ، وعرض نفس السيناريو ، فكانت النتيجة عكسية تماما .

كان الانجليزي (رجلا او امراة) يخفي اللص ، ثم يفضحه للبوليس قائلا وهو يشير الى مكان اختفائه من طرف خفي :

— لا .. لم ار احدا يمر من هنا بهذه الاوصاف ..

وتكررت العملية عدة مرات ، وباماكن مختلفة من البلدين ، فكانت النتيجة تثير الدهشة بثبات طبع الامريكي على التستر والانجليزي على الفضح » .

وفي نظري ، واذا كنت اعرف طبع الانجليزي جيدا ، فانه لم يكن يفضح السارق حبا للقانون ، وخدمة للعدالة ، بقدر ما هو رفض لارتفاع مستوى اللص المادي على مستواه بخلاف الامريكي الذي يدين بان « الغاية تبرر الوسيلة » ويتعاطف مع اللص اكثر من تعاطفه مع رجل الامن .

والنتيجة :

ومن تامل المجتمعين الياباني والانجليزي تخرج بنتيجة واضحة :

* المجتمع الياباني المتشبث باصالته ، واخلاقه ، وقيمه الروحية ، مجتمع طموح متوثب ، يزدهر ماديا يوما عن يوم .

* اما المجتمع الانجليزي الذي يتبرأ فيه رجل الشارع من دينه (1) وتراثه ، ويتنصل من مسؤولياته كفرد من جماعة ، مجتمع شاخ ، ومات احساسه ... وفقد الرغبة في الحياة ، والحماس للتقدم ، وترك مركز القيادة ليمسك بأذيال التبعية والتخلف ..

الاخــــلاق عملــــة قويــة :

ولست هنا بصدد عقد مقارنــة بين طبائــع الشعوب واخلاقها ، بقدر ما أود اثبات حقيقة واقعة ـ لمن يهمه الامر ـ وهي ان الاخلاق الكريمة يمكــن ان تكون مصدر ثراء وتقدم للامم التي تتحلى بهــا . وقد اثبت اليابان ان الحياء ، والمروءة ، والوفــاء ، وهي قيم اخلاقية مجردة يمكن تحويلهــا الى عملــة صعبة ، والى ارصدة ضخمة في بنوك العالم ، وأسهم ذهبية في أسواق المــــال .

وانطلاقا من هذه الارضيــة يمكــن مخاطبــة الباحثين عن كبش فــداء نلومــه على انحدارنــا ، والمسـاقيــن من ذوي النوايــا الحسنــة ، وراء الاطروحة المتطرفة والداعية الى نبذ العقائد (افيون الشعوب) التي هي مصدر الالزام الاخلاقي . فقبل ان يمسك هــؤلاء بتلابيــب الاديــان السماويــة ويسحبوها ، وسط صفير الغوغاء ، الــى ساحــات الاعدام ، بتهمة التحريض على التخلف ، نطلب منهم ان يحاكموها ، ويستمعــوا الى دفاعهــا . وسوف يكتشفون انها ، اثناء جميع مراحل تراجعنا ، كانــت غائبــــة !

وشهـــد شاهـــد ..

وخير ما نختم به هذا الموضوع هــو قولــة الكاتب البريطاني المعروف ، (جراهام جرين) ، في كتابه الجديد (وسائل الهروب (2) Ways of Escape الذي جمع فيه عددا من مقدمات رواياته التي هــي خلاصة مشاهداته وتأملاته في بحر هذا القرن الذي ولد في بدايتــه .

يقول « جرين » متحدثا عن الحضارة الغربية :

« ما نسميه بالحضـــارة Civilization

ـ بسبب انعدام تعريف احسن ـ أصبحــت تقــف موقف دفاع ؛ فقد فقدنا قوة العمل الواضح لاننــا فقدنا القدرة على الايمان » .

---

(1) تسأل رجل الشارع البريطانــي عن دينــه فيجيبك في الغالب بانه من (اللاادرية) Agnostic او ملحــد Atheist حتى ولو لم يكن دخــل المدرسة قــط .

(2) مجلة (تايم) الامريكية عدد نونبر 3 ـ 1980 .

نظرات في تاريخ
المذهب المالكي

-1-

للدكتور عمر الجيدي

المعنى التصوري لكلمة « مذهب » .

ما المراد بالمذهب ؟

المذهب في الاصل مفعل من الذهاب ، وهو لغة : الطريق ومكان الذهاب ، يقال : ذهب القوم مذاهب شتى اي : ساروا في طرائق مختلفة ، وذهب الشخص مذهبه : سار في طريقه ، ثم صار عند الفقهاء حقيقة عرفية فيما ذهب اليه امام من الائمة في الاحكام الاجتهادية استنتاجا واستنباطا ...

اما عند المتاخرين من ائمة المذاهب ، فيطلق على ما به الفتوى ، فيقولون : المذهب في المسألة كذا من باب اطلاق الشيء على جزئه الاهم ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « الحج عرفة » ، لان ذلك هو الاهم عند الفقيه المقلد (1) . ووجه المناسبة بين المنقول عنه والمنقول اليه : أن تلك المسائل تشبه الطريق ، ولذا يعبر به عنهما ، فيقال : طريق مالك وطريقته ، كما يقال : مذهب مالك ، ويكون على هذا منقولا عن اسم المكان (2) .

وهو بهذا المعنى لم يكن موجودا ولا معروفا بين المسلمين في عصر الائمة ـ أصحاب المذاهب ـ ، فمالك وغيره من ائمة الاجتهاد لم يكونوا يعرفون معنى المذهب ، وانما كانوا ينشرون علم السنة وفقه الصحابة والتابعين ولذا قيل : ان نسبة المذهب الى صاحبه لا يخلو من تسامح ، فما كان مالك ولا غيره من ائمة المذاهب يدعون احدا الى التمسك بمنهجهم في الاجتهاد ، ولا كان عندهم منهاج محدد في اجتهادهم ، وانما كانوا يتبعون في ذلك منهج من سبقهم من علماء التابعين ، وهؤلاء عن الصحابة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يحدث هذا الا في القرن الرابع الهجري ، عندما دعت الظروف الى هذا النوع من الالتزام بمنهاج معين في الفقه والتشريع ، ولم تكن المذاهب قد استقرت على راس المائة الثالثة رغم ما قيل من انه في هذا التاريخ كان قد بطل نحو من خمسمائة مذهب (3) وان كانت بذرة المذاهب قد بدات قبل هذا العصر بزمان ، اذ كان اهل المدينة يعتمدون على فتاوي ابن عمر ، واهل مكة على فتاوي ابن عباس ،

(1) انظر شرح الزرقاني على شرح اللقاني للمختصر ص : 133 ط. ح. على هامش نور البصر لابي العباس الهلالي .
(2) نور البصر للهلالي ص : 132 ط. ح .
(3) انظر كتاب اختلاف الفقهاء لابن جرير الطبري ص : 14 ط. بيروت .

واهل الكوفة على فتاوي ابن مسعود ، فكان هذا اول غرس لاصل التمذهب بالمذاهب .

فمالك رحمه الله كان يوصي طلابه ومستفتيه بأن ينظروا في كلامه ، فما وافق الكتاب والسنة اخذوا به ، كما كان يقول : « ما من احد الا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه ، الا رسول الله صلى الله عليه وسلم » (4) ، وروى الحاكم والبيهقي عن الشافعي رضي الله عنه ، أنه كان يقول : « اذا صح الحديث فهو مذهبي » وفي رواية اذا رايتم كلامي يخالف الحديث فاعملوا بالحديث واضربوا بكلامي الحائط ، وقال يوما للمزني : « يا ابراهيم لا تقلدني في كل ما اقول ، وانظر في ذلك لنفسك فانه دين » (5) ، وكان احمد بن حنبل عليه الرحمة يقول : « ليس لاحد مع الله ورسوله كلام ، وقال ايضا لرجل : لا تقلدني ، ولا تقلدن مالكا ، ولا الاوزاعي ، ولا النخعي ولا غيرهم ، وخذ الاحكام من حيث اخذوا » (6) ...

ثم ان المذهب ليس شيئا منصوصا عليه في الدين ، ولا هو من قواعده الواجبة على المسلمين ، وانما الذي يجب ان يتبع هو كتاب الله وسنة رسوله وائمة المذاهب لم ياتوا بشيء جديد من عندياتهم ، وانما هم مفسرون لما ورد في الاصلين ، ومستنبطين منهما الاحكام ، تسهيلا للناس على ما لم يستطيعوا فهمه منهما ، فالذي يقلد مالكا ، انما يقلد في الحقيقة ما فهمه مالك من النصوص الواردة في الكتاب والسنة ، فهو ان اعطى رايه في المسألة ياتي بالدليل، وان حكم حكما اعطى الحجة عليه وعلله .

ومن الفقهاء الذين قلدهم الاصحاب والاتباع ، ودونت المؤلفات في جمع اقوالهم وآرائهم وسار الناس عليها : ابو حنيفة النعمان المتوفى سنة 151هـ، وابو عمرو الاوزاعي المتوفى عام 157 هـ ، وسفيان الثوري المتوفى عام 161 هـ ، ومالك بن انس المتوفى عام 179 هـ ، والليث بن سعد المتوفى عام 175 هـ ، وسفيان بن عيينة المتوفى عام 198 هـ ، وابو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي المتوفى عام 240 هـ ، والامام احمد بن حنبل المتوفى عام 241 هـ ، وداود الظاهري المتوفى عام 270 هـ ، وابي جرير الطبري المتوفى عام 310 هـ ...

الا ان بعض هذه المذاهب بدات مع مرور الزمان تختفي شيئا فشيئا لقلة اتباعها ، ولم يكتب البقاء للكثير منها .

فمذهب الاوزاعي كان غالبا على الشام وبلاد الاندلس قبل ان يسيطر عليها المذهب المالكي اواخر المائة الثانية (170 هـ) فانقطع منها ، ومذهب الثوري لم يطل امده ، ولا كثر اتباعه ، وانقطع بعد مدة يسيرة من انشائه ، كما لم يكثر اصحاب الطبري، وابي ثور ، ولا طالت مدتهما . فانقطع مذهب ابي ثور بعد المائة الثالثة ، والطبري بعد المائة الرابعة ، اما داود الظاهري فقد كثر اتباعه ، وانتشر ببغداد ، وبلاد فارس ، ووجد له اتباعا قليلين بافريقية والاندلس ، وانتهى أمره في القرن السادس الهجري (7) ...

وابتداء من هذا التاريخ لم يبق للعالم الاسلامي الا مذاهب اربعة قلدها جمهور المسلمين : المذهب الحنفي ، والمذهب المالكي ، والمذهب الشافعي ، والمذهب الحنبلي ، تعلق الناس بها ، وقصدوها في الفتوى ، وانضم لكل امام منهم اتباع ومقلدون صاروا فيما بعد يجمعون اقوالهم وفتاويهم يبثونها في الناس بواسطة مؤلفات التزموا فيها اقوال من قلدوه ، وانقسم الفقه بعد ذلك الى مدرستين : مدرسة الراي في العراق ، ومدرسة الحديث في الحجاز ، وزعيم المدرستين هما : ابو حنيفة النعمان ومالك بن انس ، تراس الاول مدرسة الراي ، وتزعم الثاني مدرسة الاثر .

والذي يعنينا في هذا البحث من هذه المذاهب المقلدة ، هو المذهب المالكي الذي يدين به اليوم ، ازيد من مائة مليون مسلم .

وسنبدا اولا بذكر الآفاق التي انتشر فيها المذهب المالكي .

(4) حجة الله البالغة 1 / 126 .
(5) المرجع السابق .
(6) اعلام الموقعين 2 / 140 .
(7) انظر الديباج المذهب لابي فرحون ، ص : 13 . ط : بيروت .

الآفاق التي انتشر فيها المذهب المالكي :

كان من الطبيعي أن ينتشر المذهب المالكي في الحجاز في بداية أمره ، لانه من الحجاز نبع ، وفيه تفجر ، ومنه انطلق في الآفاق يحمله تلاميذ الامام مالك الوافدون عليه من مختلف أطراف العالم الاسلامي مشرقا ومغربا .

فالمدينة المنورة كانت قاعدة الانطلاق لهذا المذهب ، ثم انتشر بعد ذلك في جهات مختلفة من الحجاز ، ثم انتقل بعدها الى مصر البلد الاول الذي احتضنه بعد المدينة المنورة ، وانتقل الى اليمن ، ثم الى بلاد العراق ، ثم افريقية (تونس) وما وراءها من بلاد المغرب والاندلس (8) .

وهكذا انتشر في مصر على يد تلامذة مؤسس المذهب أمثال : ابن القاسم المتوفى عام 191 هـ ، وأبي عبد الله محمد بن وهب القرشي المتوفى عام 197 هـ ، وأبي عمر اشهب القيسي المتوفى عام 204 هـ ، وأبي محمد ابن عبد الحكم المتوفى عام 214 هـ ، وعثمان بن الحكم الجذامي المتوفى عام 163 هـ ، وعبد الرحيم بن خالد بن يزيد المتوفى عام 163 هـ ، وسعيد ابن الحكم ابن أبي مريم المتوفى عام 224 هـ ، وسعيد بن كثير بن عفير المتوفى سنة 226 هـ ، وسليمان بن برد المتوفى عام 210 هـ ، وعبد الرحمن ابن أبي جعفر الدمياطي المتوفى عام 226 هـ وثوبان بن ابراهيم المصري المعروف بذي النون المتوفى عام 245 هـ (9) وغيرهم ...

واختلفوا في أول من أعلن المذهب المالكي بمصر ودعا اليه ، ذهب بعض العلماء الى أنه عبد الرحمن بن القاسم (10) بينما يرى ابن فرحون أن أول من أدخل علم مالك الى مصر هو : عثمان بن الحكم الجذامي (11) ، في حين ينقل الحافظ ابن حجر عن ابن وهب : أن أول من قدم مصر بمسائل مالك : عثمان بن الحكم وعبد الرحيم بن خالد بن زيد (12) .

ويظهر أن أمر انتشار هذا المذهب في مصر جاء في وقت متقارب ، وأن كل هؤلاء ساهموا في نشره وتثبيته ، وكانت مصر بذلك أول بلد بعد الحجاز انتشر فيها هذا المذهب وكثر بها تلاميذه ، حتى صار المذهب المالكي عندهم أقوى من الموطن الذي نشأ فيه ، واستمرت له الغلبة على الديار المصرية حتى جاء الامام الشافعي ونشر مذهبه بها فشاركه في الشهرة والذيوع ، واقتسما فيها القضاء حتى غلب الفاطميون عليها ، فأبطلوا العمل بمذاهب أهل السنة ، ومع ذلك استمر مذهب مالك يسير بخطى ثابتة لا تنال منه الاحداث ، ولا توقفه الزعازع حتى في هذه الفترة ، اذ تذكر الروايات التاريخية أنه في سنة 326 هـ — 938 م كان للمالكيين في المسجد خمس عشرة حلقة (13) .

ويقول عياض : ان أبا بكر النعالي المتوفى 380 هـ — 990 م كان امام المالكية بمصر ، وكانت حلقته في الجامع تدور على سبعة عشر عمودا لكثرة من يحضرها (14) .

وقد اشتدت الدولة الفاطمية في محاربة المالكية ، ففي سنة 381 هـ — 989 م مثلا ضرب رجل بمصر وطيف به في المدينة اذ وجد عنده كتاب الموطأ (15) .

وعلى الرغم من موقف الفاطميين هذا ، الا أن المذهب عاد الى الظهور في عهد الدولة الايوبية ، التي شجعت عليه ، وبنت لفقهائه المدارس ، ففي سنة 566 هـ بنى لهم صلاح الدين « المدرسة القمحية » ...

(8) أنظر المدارك : 1 / 25 ط : المغرب .
(9) أنظر تراجم هؤلاء الاعلام في ترتيب المدارك ج : 3 .
(10) الارشاد ص : 29 مخطوط الخزانة العامة بالرباط وهو للحافظ أبي يعلى القزويني .
(11) الديباج ص : 187 . ط . بيروت .
(12) أنظر « مالك » حياته وعصره للشيخ المرحوم محمد أبي زهرة ص : 383 .
(13) أنظر المغرب لابي سعيد ص : 24 .
(14) المدارك 6 / 203 ، وحسن المحاضرة 1 / 212 ، والديباج : 259 .
(15) الخطط للمقريزي 2 / 341 .

وإذا كانت الدولة العثمانية قد قصرت القضاء على الاحناف ، فان مذهب مالك بقي محافظا على مركزه في الشهرة والذيوع الى الآن ، وكثر انتشاره في منطقة الصعيد (16) ...

ويذكر الشيخ ابو زهرة ان الفقه المالكي لا يزال منتشرا في العبادات بين اهل مصر ، وكان معادلا للمذهب الشافعي في الذيوع بين الشعب ، واختص المذهب الحنفي بالسلطان في القضاء حتى جاءت التعديلات الاخيرة في الاوقاف والوصايا والمواريث والاحوال الشخصية من قبلها ، فبرز المذهب المالكي ، وكان ما اقتبس منه العنصر الجوهري في الاصلاح في القانون رقم 25 لسنة 1920 ، والقانون رقم 25 لسنة 1929 ، وقانون المواريث والوقف والوصايا (17) . ويذكر ايضا قانون سنة 1920 كان كله من مذهب مالك دون سواه (18). هكذا كان شان المذهب المالكي في مصر.

اما في اليمن فيذكر عياض ، ان المذهب انتشر هناك بواسطة ابي قرة القاضي (19) ومحمد صدقة الفدكي ، ومحمد بن حميد بن عبد الرحيم ابن شروش وامثالهم (20) ...

وانتقل هذا المذهب الى العراق ، وظهر به ظهورا واضحا ، وزاحم فيه مذهب الاحناف ، فاستقر بالبصرة ، وغلب عليها بواسطة ابن مهدي ، والقعنبي وابي خذافة السهمي ، وابي أيوب سليمان بن بلال ، وابي عبد الرحمن عبد الله ابن المبارك المتوفى عام 181 هـ ، وابي العباس بن الوليد بن مسلم ابن السائب المتوفى عام 199 هـ وغيرهم ، ثم باتباعهم من امثال : ابن المعذل ، ويعقوب بن شيبة ، وآل حماد بن زيد ، الى ان دخلها بعض الشافعية فتشارك المذهبان جميعا بها الى بداية القرن السادس الهجري (21) ، وكان آخر المالكية بها في هذا القرن ابا يعلى العبدي ، وابا منصور ابن باخي ، وابا عبد الله بن صالح ...

وقد انتشر المذهب في العراق بواسطة القاضي اسماعيل المتوفى عام 282 هـ صاحب المبسوط ، والابهري المتوفى عام 395 هـ ، وبموت هذين الاخيرين ضعف المذهب هناك ، وانتقل الى الشافعية والحنفية (22) .

واما خراسان وما وراء العراق من ارض المشرق فدخلها هذا المذهب اولا بواسطة يحيى بن يحى التميمي ، وعبد الله بن المبارك ، وقتيبة بن سعيد ، فكان له هناك ائمة واتباع ، وفشا بقزوين وابهر وما والاها من بلاد الجبل (23) ، وآخر من درس المذهب المالكي بنيسابور ، ابو اسحاق ابن القطان (24) .

كما دخل الى بلاد فارس على يد القاضي ابي عبد الله البركاني الذي ولي قضاء الاهواز (25) .

وواصل سيره الى بلاد الري ، فيروي أن احمد ابن فارس كبير اللغويين المتوفى سنة 369 هـ - 980 م كان شافعيا فصار مالكيا ، وقال : دخلتني الحمية (26) لهذا البلد (يعني الري) كيف لا يكون

---

(16) مقدمة كتاب الفقه على المذاهب الاربعة ص : 31 ط : الاولى .
(17) كتاب مالك لابي زهرة ص : 383 .
(18) كتاب مالك لابي زهرة ص 383 .
(19) انظر ترجمته في المدارك 3 / 196 .
(20) ترتيب المدارك 1 / 24 .
(21) المرجع نفسه .
(22) الديباج ص : 257 .
(23) المدارك 1 / 24 .
(24) المرجع نفسه .
(25) المرجع نفسه .
(26) الانتقال من مذهب الى آخر ، يتوقف على قوة الدليل لا على الحمية والا كان التدين بالهوى والتشهي ، وهذا لا يجوز في الدين مطلقا .

فيه رجل على مذهب هذا الرجل المقبول القول على جميـــع الالسنـــة (27) . .

وكان بالشام من أصحاب مالك : الوليـــد بـــن مسلم وابو مسهر ، ومـــروان بن محمد التتـــاري وغيرهـــم (28) . . .

وكان الغالب على أهل تونس في القديم مذهب الاحناف ، الى أن قدم اليها علي بن زيـــاد صاحـــب الرواية المشهورة للموطأ وأول مؤلف (بكسر اللام) مغربي في المذهب ، المتوفى عام 183 هـ ، وابـــن اشرس الانصاري ، والبهلول ابن راشد المتوفى عام 183 هـ ، وابو علي شقران بن علي القيرواني المتوفى عام 186 هـ ، وابو محمد عبد الله بن فروخ الفارسي القيرواني المتوفى عام 176 هـ ، وابو محمد عبد الله ابن عمر بن غانم الرعيني المتوفـــى عـــام 191 هـ ، واسد ابن الفرات المتوفى عام 213 هـ ، وعباس بن ابي الوليد ، وابو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقـــي المتوفى عام 220 هـ ، وابو محمد عبد الله بن ابـــي حسان اليحصبي المتوفي سنة 229 هـ ، وابو عبـــد الرحمن بن ثوبان الرعيني المتوفى 190 هـ ، وصقلاب ابن زياد الهمداني ت 193 هـ ، وابو عون معاوية بـــن الفضل الصمادحي ت 199 هـ ، وابو عثمان المعافري ويزيد بن محمد الجمحي وعمر بن الحكم اللخمـــي ، وابو القاسم الزواوي ، وابو الخطاب محمد بن عبـــد الاعلى الكندي ، وعمر بن سمك بن حميد ، وابو طالب الابزاري ، وابو عبد الله بن زرارة ، وابو الحجـــاج الازدي ت 237 هـ ، والحارث بن اسد القفصي ، وعبد المومن بن المستنير الجزري ، وعلـــي بن يـــونس الليثي وغيرهم . . . وهؤلاء كلهـــم تتلمذوا لمالـــك واخذوا عنه مباشرة ، فلما عادوا الى القيروان بثـــوا علمه بين الناس ، وما يزال المذهـــب يتسع وينتشر الى أن جاء سحنون المتوفى عام 240 هـ ، فغلب في ايامه ، وفض حلف المخالفين على حد تعبير القاضي عيـــــاض (29) .

واستقر المذهب بعده في أتباعـــه ، فشاع في تلـــك الربـــوع .

وكان بالقيروان قوم قلـــة في القديم اخـــذوا بمذهب الشافعي ، كما دخلها شيء مـــن مذهب داود الظاهري ، ولكن كان الغالب عليها مذهب مالك ، وابي حنيفة الى دولة الاغالبة الذين مالوا الى الاخذ بمذهب الاحناف وآثروهم بالقضاء والرياسة ، والعبيديـــــن من بعدهم ، حتى جاء المغربي باديس عام 407 هـ ، فحمل الناس من جديد على المذهب المالكي ، قاضيا بذلك على الخلاف الذي كان محتدما بين المذهبين ؛ ومن المؤكد أنه ما اختاره الا لانه كان أكثـــر انتشارا بين اهل تلك البلاد واهله اليه أميل (30) رغم مـــا عاناه من طرف الاغالبة والعبيديين كما سنرى .

يقول صاحب شجرة النور الزكية : « وكانـــت بافريقية مذاهب الشيعة والصفرية ، والاباضيـــة ، والنكارية ، والمعتزلة ، وكانت بها من مذاهب اهـــل السنة ، مذهب ابي حنيفة النعمان ، ومذهب مالك ، فظهر له (أي للمعز بن باديس) حمـــل الناس على التمسك بمذهب مالك ، وقطع ما عداه ، حسما لمادة الخلاف بالمذاهب ، واستمر بذلك الحال الى احتلال العساكر العثمانية بافريقية » (31) .

اما في صقلية ، فيظهر ان اول من ادخل المذهب المالكي اليها هو عبد الله بن حمدون (أو حمدويـــة) الكلبي الصقلي تلميذ الامام سحنون المتوفى سنـــة 270 هـ (32) ، وهو اول فقهاء صقلية ، وصاحبـــه دعامة بن محمد الذي تولى القضاء لبنـــي الاغلـــب والمتوفى سنة 297 هـ ، ومحمد بن ميمون بن عمرو الافريقي قاضي صقلية (33) ، ولقمان بن يـــوسف الغساني الصقلي المتوفى عام 319 هـ (34) ، وسالم

(27) الارشاد لياقـــوت 2 / 7 .
(28) المـــدارك 1 / 25 .
(29) المصـــدر نـــفسه 1 / 26 .
(30) البيان المغرب 1/268 — 277 وتتمة شجرة النـــور الزكية ص : 129 .
(31) شجرة النـــور التتمـــة ص 129 .
(32) العرب في صقلية ص 95 للدكتور احسان عبـــاس .
(33) الديبـــاج : 334 .
(34) طبقات أبي العرب 171 ط : بيروت .

ابن سليمان الكندي قاضيها ومدرسها ، والـذي كان له دور هام في نشر المذهب المالكي هناك لاهتمامه بالتدريس الى جانب ولاية القضاء ، وهو الذي ألـف كتاب « السليمانية » والذي يغلب على الظن انه اول مؤلف صقلي في هذا المذهب (35) .

وهكذا يكون هذا المذهب قد انتشر في صقلية قبل انتهاء القرن الثالث ولعل هذا يرد ما ذهب اليه المقدسي في احسن التقاسيم ص 238 من ان « الغالب على اهل صقلية اصحاب ابي حنيفة » ...

ومنذ دخل الاسلام الى الاندلس ، واهلها على مذهب الامام الاوزاعي الى ان رحل طلبتها الى الحجاز، وعادوا بمذهب مالك ينشرونه في بلادهم وفي مقدمة هؤلاء : زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون المتوفى عام 204 هـ (على خلاف في وفاته) الذي يذكر الحميدي – جازما – انه اول من ادخل مذهب مالك الى الاندلس (36) ، وقرعوس بن العباس ، والغازي ابن قيس ت 199 هـ وابو عبد الله محمد بن سعيد بن بشير بن شراحيل ت : 198 هـ ، ويحى بن يحى الليثي ت : 234 هـ ، وابو محمد عيسى بن دينار القرطبي ت : 212 هـ ، فجاءوا بعلم مالك ، واباـنوا الناس فضله ، واقتداء الامة به ، واخذ به الامير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ، وامر الناس باتباعه، وصير القضاء والفتيا عليه ، وذلك سنة 170 هـ .

ويذكر عياض ان « قوما من الرحالين والغرباء ادخلوا شيئا من مذهب الشافعي وابي حنيفة واحمد وداود ، فلم يتمكنوا من نشره ، فمات بموتهم على ذلك مضى أهل الاندلس الى وقتنا هذا » (37) .

واختلفوا متى دخل مذهب مالك الى الاندلس ، فالمقري يرى ان المذهب دخل في عهد الحكم بن هشام بن عبد الرحمن ثالث امراء الامويين بالاندلس (38) ، بينما يذهب ابن القوطية الى انه دخل في عهد عبد الرحمن الداخل اول امراء بني أمية في الاندلس (39) .

اما بالنسبة للمغرب الاقصى ، فيظهر أن دخول هذا المذهب اليه قد تاخر نسبيا عن بقية الاقطار الاخرى ، اذ تفيد بعض الروايات التاريخية ان المذهب المالكي انتقل اليه من الاندلس أيام الادارسة (40) .

ويقال ان المغاربة قبل اعتناقهم للمذهب المالكي كانوا يدينون بمذاهب مختلفة : من حنفية وخارجية ومعتزلة ، وبرغواطية ، وغيرها من المذاهب كالمذهب الاوزعي مثلا – على نقل صاحب الازهار العاطرة – (41) .

الى ان قامت دولة الادارسة ، فاتجهوا الى المذهب المالكي ، ويروى ان سبب سيطرة المذهب المالكي على المغرب يرجع الى الملك ادريس (32) الذي دعا الناس للاخذ به ، واتباع منهجه ، وجعله مذهبا رسميا للدولة ، معززا ذلك بقوله : « نحن احق باتباع مذهب مالك وقراءة كتابه (الموطا) » (43)، واصدر امره لولاته وقضائه بنشر كتاب الموطأ واقرائه (44) .

---

(35) طبقات ابي العرب 148 ، والعرب في صقلية 26 .
(36) جذوة المقتبس 218 .
(37) المدارك 1 / 26 .
(38) نفح الطيب 4 / 214 .
(39) تاريخ افتتاح الاندلس ص : 58 .
(40) الاستقصا 138/1 ط : البيضاء .
(41) ص : 130 .
(42) تضاربت اقوال المؤرخين في شان ادريس هذا هل هو الاول ام الثاني ، فابن ابي زرع والكتاني يريان الثاني ، بينما يذهب ابن القاضي ومن يرى رأيه الى انه الاول ... انظر الانيس المطرب 1 / 34 ، ط : الرباط . وجذوة الاقتباس 25/1 ، ط : الرباط . والازهار العاطرة ص 130 ، طبعة حجرية .
(43) الازهار العاطرة : 130 .
(44) المصدر السابق .

وقد جزم الكتاني وغيره بأن الملك ادريس كان هو ايضا على مذهب مالك . يقول الكتاني : « وعلى مذهبه كان ادريس وجميع العلماء من اهل المغرب الاقصى بسبب تقليد ادريس لمالك وتحصيل كتابه الموطأ وحفظه لـه » (45) .

ويذكر ان كتاب الموطأ كان أول كتاب حديثي نقل في عهد ادريس الى المغرب ، نقله قاضيه عامر بن محمد القيسي الذي سمع من مالك والثوري وروى عنهما مؤلفاتهما وقدم بها الى المغرب ، فسمع منه ادريس وغيره من فقهاء الوقت ما رواه (46) ، ثم تعزز المذهب المالكي في المغرب بوفود نخبة من العلماء الذين وصلوا الى المشرق ، وعادوا يعلمون ويفيدون امثال : ابي هارون البصري الذي كان اول من ادخل كتاب ابن المواز ، واحمد بن الفتح المليلي ، ودراس بن اسماعيل المتوفى عام 357 هـ ، الذي يذكر الرواة انه أول من أدخل مدونة سحنون الى المغرب ، وبواسطته انتشر المذهب المالكي في المغرب وذاع (47) ، وابن العجوز ، وابي جيدة ، وابي محمد الاصيلي وعيسى بن سعاده وغيرهم (48).

ويستفاد من بعض الروايات ان بعض المغاربة اتصلوا بالامام مالك مباشرة فتذكر رواية ان رجلا من المغرب جاء مالكا فقال له : ان الاهواء قد كثرت قبلنا فجعلت على نفسي ان انا رأيتك ان آخذ بما تامرني به ، فوصف له مالك شرائع الاسلام من صلاة وزكاة وصوم وحج ثم قال له : خذ بها ولا تخاصم احدا . . ، كما يذكر بعض الباحثين ، ان الرحلة تعددت من المغرب الى الحجاز في وقت مبكر للاخذ عن امام دار الهجرة ، بدء من سجلماسة التي روى ان احد اعلامها اخذ عن الامام مالك بالمدينة ورجع اليها ودرس العلوم بها (49) . .

وهكذا يكون المذهب المالكي قد انتشر في ثلاث قارات وتمذهب به الناس ، وصاحبه ما يزال على قيد الحياة ، أما عن أسباب هذا الانتشار فذلك هو موضوع الحلقة القادمة ان شاء الله .

د. عمر الجيدي

---

(45) الازهار العاطرة 130 .
(46) الانيس المطرب 34/1 والازهار العاطرة 30 .
(47) شجرة النور ص : 103 والفكر السامي 111/2 ط : الشرقية .
(48) النبوغ 48/1 .
(49) الدرر البهية 63/1 ط : ح .

دور الأوقاف

في مجالات البناء الاقتصادي والاجتماعي والحضاري وترسيخ العقيدة الاسلامية في النفوس

للأستاذ علال البوزيدي

الحافز على اختيار الموضوع

قبل الدخول في صميم الموضوع لا بد من كلمة حول المناسبة الغالية التي حركت قلمي والهمتني الى تناول هذا الموضوع وكتابته خاصا بدعوة الحق (*)

ذلك انه عند ما تحل ذكرى ثالث مارس، بل عند ما تبدو بشائر وطلائع هذه الذكرى تلوح في الافق تقتضي بوادرها المشرقة من الفكر المغربي الوطني ان يتجول في اطوار تاريخ العرش العلوي المجيد منذ النشأة ومرورا بكل المعارك والمواقف والوقائع والاحداث التي عاشها المغرب في ظلال هذا العرش المكافح الذي لم يكن كالعروش الرمزية التقليدية، بل فان العرش المغربي ينفرد بالعبقرية المبدعة وبالنضالية المثالية وبالاستمرارية في الجهاد من اجل بناء امجاد الشخصية المغربية، وتجليات ذلك واضحة في مسيرة العرش المتزامنة مع تاريخ المغرب منذ ثلاثة قرون وربع القرن تقريبا، وهي مسيرة حافلة بالامجاد والمواقف، فاذا نحن اخذنا طرف الحديث بهذه المناسبة من جانب كفاح العرش والشعب جنبا الى جنب ضد الاستعمار وهي الفترة التي تؤرخ للمغرب الحديث، فهذه تقتضي المجلدات لان الانجازات التي تحققت جعلت تاريخ المغرب حافلا بالمفاخر، بل جعلت منه تاريخا ذهبيا بالنظر الى ما تميزت به المسيرة المغربية من الطموحات والتطلعات وما انطبعت به من الديناميكية والاستمرارية في البناء والتشييد للمنشآت العمرانية والتعليمية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية وارساء قواعد البناء الديموقراطي وقطع الاشواط الهامة في التحرير والوحدة، وكذا في مجالات التعاون والعلاقات الانسانية والنشاط الديبلوماسي مما جعل للمغرب مكانة مرموقة وسمعة طيبة في المجتمع الدولي، وتاتي مثل هذه المناسبة المجيدة لتحرك الاقلام لا لتكتب كل شيء أي لا لتعيد كتابة تاريخ المغرب فذلك شيء من اختصاص رجالات التاريخ وعلماء الاجتماع الذين من اختصاصهم ضبط مراحل النمو والتطور للمجتمع، غير ان الذي نروم اليه ونحن نساهم في تخليد هذه المناسبة الكريمة هو تسليط بعض الاضواء والالماح الى بعض المرافق والمبرات والمؤسسات التي لعبت وتلعب باستمرار دورا هاما في صالح الاعمال ونقتصر في هذا الموضوع على بحث الدور الهام الذي قامت وتقوم به الاوقاف، وسوف لا اوفي الموضوع حقه في التحليل والاستيعاب لان ما أتوفر عليه من الوثائق والمعلومات والمراجع قليل، الا انني اود ان ادلي بدلوي ولعل في الساحة الادبية غير واحد من الذين يستاثر باهتمامهم لدور الاوقاف فيسارع الى مناقشته من زاوية معينة ومن خلال التحاور والنقاش تتلاقى وتنمو الافكار ويتحقق القصد وبالتالي تتضح المفاهيم وتتجلى المعالم وتعم الفائدة، وتلك احدى المهام

التي يضطلع بها الاعلام ولعل تلك هي احدى الاهداف البارزة التي تعمل من أجلها مجلة دعوة الحق .

دور الوقف كما حدده الاسلام

فكرة الوقف معناها تعزيز اعمال الخير والبر والاحسان وهذه الفكرة تقوم على اساس التراحم والتكافل والتضامن والتعاون ، وهذه كلها مبادىء أقرها الاسلام بين الناس وجعلها تندرج في جملة العمل الصالح الذي يشمل نفعه عامة الناس ، وبهذا العمل تعززت مكانة الاسرة في المجتمع وتعاطف الناس على بعضهم وتراحموا فيما بينهم ، وانطلاقا من هذه الشريعة الاسلامية الخالدة ساهم الوقف في بناء الحضارة الاسلامية وارتكز في القيام بدوره على أساس الايمان ، فوفر للمريض العلاج ، حيث كان الوقف يقيم المارستانات ومؤسسات الاستشفاء ، كما يوفر العون والمساعدة في المآكل والملبس والايواء للمعوز والفقير والمعاق ، ووفر الوقف كذلك التعليم بالمجان ، وكم هي كثيرة المعاهد والمساجد والجامعات القديمة التي انشأتها الاوقاف وساعدتها ماديا واطرتها للقيام برسالتها التعليمية . ويمتد دور الاوقاف الى المحافظة على الاصالة وحماية ورعاية مكاسب الاسلام ومظاهر هذه الرعاية تضاعفت في العهد الحسني الذي نعيشه حيث تقوم بتوجيه منه وتنفيذا لتعليماته بجهود محسوسة من أجل بناء المساجد وتأطيرها وتجهيزها والاعتناء بها ، ولما كان دور الاوقاف يتسع نطاقه تدريجيا فقد اتجهت عناية الاوقاف الى تنمية المداخل لمواجهة النفقات ، فتم بناء شبكة من العمارات والدور والمؤسسات للكراء هدفها في تأدية الدور المناط بالاوقاف وفقا لروح الاسلام والتزاما بمقتضيات الشريعة الاسلامية الخالدة .

وحيث ان الوقف هو ممتلكات من أراضي ودور وبساتين وحدائق وضيعات فلاحية وكتب ومؤلفات وغير ذلك ، فقد تطورت أساليب الاستثمار لتصبح مسايرة لروح العصر ومتطلبات الزمن والمكان والاوقاف هي الصدقات الجارية ، كما يشير الى ذلك الفكر الاسلامي حول خير ما يتركه المرء من بعده هو:

صدقة جارية وولد يدعو له وعلم ينتفع به ، ولهذه الغاية تنصرف جهود الاوقاف ، الى اقامة المساجد والانشاء والاسهام في المؤسسات الخاصة بالعمل الخيري والاجتماعي ، كل هذه من الصدقات الجارية ، ولناخذ جانبا بارزا من عمل الاوقاف :

الاوقاف وبناء المساجد

بعض العامة من الناس يعتقدون بأن دور الاوقاف ينحصر في بناء المساجد والسهر عليها وتأطيرها بالائمة والخطباء والوعاظ والمؤذنون ، مع ان الواقع يرتفع بدور الاوقاف علاوة على هذه المهمة التي لا يستهان باهميتها ونفقاتها الى الاعتناء بالتراث الاسلامي باصدار سلسلة من الكتب والدراسات والابحاث التي لها علاقة بالعقيدة والفكر ، كما أن للاوقاف اسهاما جديرا بالاعتبار في المجال الاعلامي وخاصة ما يهم مجال التوعية والثقافة الاسلامية ، ولهذه الغاية تصدر بانتظام مجلتي الارشاد ، ودعوة الحق .

ومن خلال المساجد التي تترابط وتتزامن مع امجاد الشخصية المغربية اذ هناك العديد من المساجد العتيقة التي يزخر بها المغرب وتعد من مفاخر تاريخه الحافل بالمكرمات كما تذكرنا بعض هذه المساجد بالعهود التي عاصرها المغرب عبر التاريخ ، وما جامعة القرويين الشهيرة الا نموذج بارز لهذه المساجد في المغرب المسلم وغيرها من المساجد العتيقة التي تفخر بها كل المدن المغربية في مراكش ومكناس والبيضاء وسلا والرباط وتازة وغيرها ، واذا كانت للمسجد رسالة معلومة في الاسلام وفي نشر الدعوة الاسلامية فان المغرب يولي المساجد عناية خاصة تتجلى في الاعتمادات التي ترصد لبناء المزيد من المساجد فضلا على تلك المساجد التي يتنافس في بنائها بعض ذوي الاريحة من المحسنين ، ومما يعاد الى الاذهان ان المساجد كانت تقوم فضلا على كونها اماكن للعبادة بدور المدارس الاولى في الاسلام ففيها كانت تعقد المجالس العلمية والحلقات التدريسية ، بل لقد ساهمت المساجد في الاشعاع الحضاري حيث نقلت الحضارة العربية من الاندلس الى اوربا ، وقد اعترف بذلك كبار المفكرين والفلاسفة وعلماء الغرب الاوربي .

الاوقاف والكتاتيب القرآنية

تحضرني وانا اكتب هذا الموضوع الذي هو من وحي ذكرى عيد العرش تلك السنة الحميدة التي

اعلن الجالس على اريكة العرش جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله يوم اعلن عن البعث الاسلامي وحث على تنشئة الطفولة المغربيـــة على اساس الهـــدي الديني والعقيدة الاسلامية ، وكان ذلك بمناسبة عيد الطفولة الذي يواكب ذكرى ميلاد صاحـب السمـــو الملكي ولي العهد الامير الجليل سيدي محمد ، ففي ذلك الخطاب الملكي التاريخي اعاد امير المؤمنيـــن الاعتبار للكتاتيب القرآنية وباليت ان الجمع استوعب بايمان وتشبع روحي كل المرامي التي تهدف اليهـا فكرة البعث الاسلامي وخاصة بالنسبـــة للاجيـــال الصاعدة ، ذلك لان جعل الكتاتيب القرآنية مرحلـــة الاساس اي قبل اندماج الطفل في المجتمع المدرسي وبلوغه سن التمدرس معناه ترسيخ العقيدة والتربية الاسلامية في البراعم ونشأة عقولهـم على الاصالـــة والحياة الروحية ، فياتي دور الكتاب مكملا ومتكاملا مع دور الاسرة والامومة والبيئة الاولى التي يترعرع فيها الطفل في بداية حياته ، ولقد تضاعـــف عـــدد الكتاتيب وتحسين اسلوب عملها التربوي ولئـــن كان الاقبال عليها قليل وخاصة بالنسبة لاطفال العائـلات الميسورة فان الذي يرجى هـــو ان تعـوض الاسرة لاطفالها ذلك باشباع الاطفال بالقـــدوة الصالحـــة والظهور امامهم بالمظهر اللائق من حيـــث الحيـــاة والحشمة والمروؤة والاحترام والادب والاخلاق وكل المحاسن لكي يقتدى بها الطفل فينشا نشأة اسلامية تتوافق وشريعة الاسلام الخالدة ، واذا نحن حاولنـــا الالماح الى كل المرافق والمجالات التي يتصل بهـــا عمل الاوقاف نجدها متعددة ولكن مـــا دمنا نعالـــج الموضوع بالالماح نشير الى جانب آخر له علاقـــة بالاوقاف هـــو :

الاوقاف والاهتمام بالبحث العلمي والتراث

تقوم الاوقاف في اطار دورهـــا الهـــادف الى الاهتمام بمراكز البحث العلمي بعناية خاصة بالتراث سواء تعلق الامر بخدمة هذا التراث وكذا بالعمل على ابراز اسهامات العبقرية المغربية في خدمة الثقافـــة العربية الاسلامية والحضارة الانسانية بكيفية عامة . كما ان جهود الاوقاف في هذا الباب وانطلاقا من هذه المنهجية الجادة تنصرف الى الاهتمـــام بالتاليـــف والجمع والتدريس كما يتجلى ذلك في سلسلة الكتب وسلسلة الدروس الحسنية وغيرهـــا من الكتـــب والابحاث والدراسات الاسلامية الجادة وتساهم في تغطية هذه الانشطة مجلة دعوة الحق بما تحفل به من المقالات الثقافية والفكرية والدينية والاخلاقية وكذا ما تتكرس له مجلة الارشاد من التوجيـــه الدينـــي والاخلاقي والتوعية والتثقيف الشعبي .

الاوقاف والشؤون الاسلامية

كما قلت في بداية موضوعي هـــذا فانـنـــي لا اقصد برؤيتي وتصوري المتواضع ايفاء موضوع دور الاوقاف حقه طبعا لا ، لانه اوسع ، ولكن لا باس من تعدد الدلاء وخاصة في هذا العصر الذي تعاظمـــت فيه مسؤولية اجهزة ومؤسسات الاوقاف في العالـم بصفة عامة ، وفي العالم العربي والاسلامي بصفـــة خاصة ، وهذا التعاظم في المسؤولية والاتساع فـــي الافاق الحاضرة والمستقبلية شيء يقتضي تدقيـــق البحث وتبويبه ، ذلك لان الشؤون الاسلامية مفهـوم متسع النطاق وهذا يجعل الموضوع متشعب ولـــه ارتباطات باركان الاسلام الاساسية وكـل ركن لـــه تعريفه وتفسيره ومناسبته وتوقيته ، وهنا نصل الى الجهود التي تقوم بها الاوقاف في احياء وتخليد هذه المناسبات الدينية .

وتجليات ذلك تبرز في دور الاوقاف خلال شهر رمضان وايامه ولياليه الغر المشرقات ، وكـــذا في الاعياد الدينية والوطنية وفي موسم الحج وبمناسبة احياء وتخليد ذكريات عظماء الاسلام وما قامت بـــه الاوقاف من تكريم للامام مالك والقاضي عياض جانب من ذلك ، وان هذا التعريف المتواضـــع احـــب ان اشفعه بذلك التصوير الرائع للمسؤولية الدينية كما براها الشهيد سيد قطب رحمه الله .

« ان هذا الدين منهج الهي للحياة البشريـــة ، يتم تحقيقه في حياة البشر انفسم في حدود طاقتهم البشرية وفي حدود الواقع المادي للحياة الانسانية في كل بيئة ويبدا العمل من النقطة التي يكون البشر عندها حينما يتسلم مقاليدهم ويسير بهم الى نهايـــة الطريق في حدود طاقتهم البشرية وبقدر ما يبذلونه من هذه الطاقـــة » .

واذا نحن تدارسنا بعمق دور الاوقاف نجـــده يدور حول هذه المحـــاور : الاعـــداد والمحافظـــة والتجهيز والتاطير لاماكن العبـــادة ، الاسهـــام في الاعمال الخيرية والاجتماعية واحياء التراث ، حماية الاصالة والمكاسب الوقفية والحضارية ، توسيـــع

الطاقة الاستيعابية للمؤسسات الدينية ، تحصين المنشآت والماكن المقدسة ، ويعتبر العدد الخامس من السنة الثانية والعشرين من مجلة دعوة الحق الخاص بالقدس الشريف تقريرا شاملا ووثيقة حية عن القدس الشريف والاماكن المقدسة ، ففي هذا العدد الممتاز سرد لكل الوقائع والاحداث التي شهدها القدس عبر مختلف اطوار التاريخ وكذا الجهود الكبيرة التي تقوم بها لجنة القدس برئاسة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله .

فضلا على الممتلكات الحبسية والاوقاف المغربية بالقدس الشريف والمسجلة حسب الوثائق الموجودة بتفصيل وبيان لدى المحكمة الشرعية التابعة للمملكة الاردنية الهاشمية ، وكذا تقرير سنة 1959 حول ممتلكات الاوقاف المغربية التونسية ، الجزائرية بالقدس الشريف والمعروفة بأوقاف أبي مدين الغوث.

وتحضرني قولة لاحد الشرفاء من أبناء المغرب قالها بعد ان جار عليها الزمن وداهمه الفقر وضغطت عليه الديون وضعف الحال وكثرة العيال فاستنجد بالغوث قائلا :

الغوث ابو مدين ...
خلص دين المديان

قد تكون هذه مجرد رؤوس اقلام حول دور الاوقاف ورسالتها واسأل الله التوفيق من قبل ومن بعد .

سلا : علال البوزيدي

(*) لاسباب خارجة عن ارادة المجلة تأجل نشر هذا المقال الى هذا العدد . فمعذرة للكاتب والقراء الكرام .

رسالة مجلة "دعوة الحق"
نضال واستمرار في مجال الإعلام الاسلامي

●● مقال الاستاذ علال البوزيدي للعدد الخاص بالذكرى الفضية ●●

ذكرى الوفاء بالعهد

للأستاذ أحمد البوزيدي

ذكرى جلوسك الواحد والعشرين تذكرنا بتجديد العهد
عاهدت الشعب وأخلصت في عهدك لــــه
جلست على عرش خالد باستحقاق حقــــه
استجاب لك الكل بصـــدق وايمان وثقــة
بنيت السدود وشيدت الكليات والمعاهــد
سعيت لكل خير ووحدت الصفوف بصبر وعقل
يا محبوبا عند الكــل ؛ بصـــدق نيتـــه
بدعوتك تأسس المؤتمر الاسلامــــي الاول
ولا زلت تواصل الجهود لتحرير القـــدس
ومؤتمر مكة الثالث بأفكارك سمــى وتوحــد
فوافق الملـوك والامـراء والرؤساء علــى
احرزت على الزعامة بعقل وأفكـار نابغـــة
قدمتك الملوك والرؤساء قائدا لتحرير الاقصى
هنيئا لك بزعامة المسلمين وبالثقة التـــي
وليهنأ العــرب والمسلمــون جميعهـــم
لان اسمك الحسن ، والحسن فال عند العرب
فيك حارت العقول المفكــرة بتمييزهـــا
فيك الملك الصالح ! .. وفيك الاديب المحقق

وتذكرنا بالنصر والفخر والاعتزاز والمجــد
اديــت الامانــة ووفيــت بكــل عهــد
فحققت كل امل واتممت له كل عــز ومجــد
بنيتك الخالصة لله ووفائـك بالعهـــود
في عهدك النور تجلى بمنجزات تفوق العــدد
راجع ومن أراد التأكد فليطالع التحــدي
وبأعمالك الخالصة لله لصالح الكل بغير قصد
على ارض المغرب الحبيب موطن الاباء والاجداد
يا مفخرة الوطن الاسلامي يا رافع راية المجد
اذ كنت فيه بايمان واخلاص لله تنـــادي
رئاستك للجنة تحرير القدس بالجهـــاد
وفيك وضع العالم الاسلامي ثقته بعملك الجد
كما قدمت الانبياء ليلة الاسراء للصلاة بها جدك محمد
وضعت فيك بحــق يا سليــل الامجـــاد
فالقدس بحول الله سيرحل عنه المعتــدي
تتحقق بــه الامانــي بالعــز والســؤدد
فتأكدت انك مخلصا لله بالجد والاجتهـاد
أعطيت الدليل ببنـاء الشرف والمجـــد

في عهدك تحقق الدستور واطمان الشعب له
وعد والدك بتوحيد التراب واستكملت وحدته
الشعب بعاهدك ويحمي عرشك الـــذي
وليهنــأ شعبــك يا خيـــر خلـــف
لرفع مستوى شعب يستحق كل عنايـــة
فكن مطمئنا بالنجاح يا سليل العـز وفخـره
الكل يدعو لك بالنصر والتاييد الكامل فـي
لصالح شعبك المؤمـن باخلاصـك لـــه
يا قائد الشعب: ذكرى جلوسك الواحد والعشرين رنت
المغرب يطرب في عيـد عرشك ويزهـــو
عيد جلوسك على عرش يسمى لكل مستقبل
لها صدى في المحافل والاقطار البعيـــدة
فتحرير الصحراء المغربية برهان ساطـــع
يحميها جيشنــا الباسل بكـل يقظـــة
وارحم اللهم بطل التحرير الاول الـــذي
واجعله مع النبيئين والصديقين جــوار
بجاهه يا رب وفق عاهلنا الحسن الثانـــي
واحفظه بما حفظت بـه كتابـك الـــذي
ودعواتنا لولي العهد بالتوفيق لكل خيـــر
ووفق يا رب سائر ولاتنا وجميع من وليتـه
والف بين المسلمين جميعا يا مجيب الدعـاء
وعلى آله ومن نصره أزكى صلاة وســـلام
فتهانينا جميعا بعيد العـرش مرفوعـــة

تنفيذا لوصية والدك فكنت خيـر منفـــذ
فحررت العيون السمارة بوجدور الساقية والوادي
منذ اعتليته وانت مجتهد في البناء والتشييد
لخير سلف قضوا حياتهم في العمل والجهـاد
باخلاصه وتفانه في حب آل بيت محمـــد
فالله معك ودعوات المومنين لك بـلا عـدد
كل عمل اردت تحقيقه بالعـزم المعهـــود
فلك الهناء والتيسيـــر في كـل مقصـــد
في الآذان بشوق وحب فطاب فيها انشادي
بكل فخر ومجد فرحـا بعيـد الاعيـــاد
فالمسيرات التي انجزت في عهدك تفوق العدد
ودونت عند الباحثيـن في كـل مجلـــد
تحقق في عهدك رغم انـف كل معتـــدي
فدعواتنا له بالنصر وليرحم الله كل مستشهد
ضحى في سبيل الاستقلال الخامس محمـــد
جده خاتم الرسالة الشفيع يوم الميعـــاد
لما يسعى اليه من خير وقه شر كـــل حاسد
حفظته حفظا شاملا من كل شيطان مـــارد
واحفظ اللهم الاسرة قاطبة واصلح المولى الرشيد
امر المسلمين واهديهم للخير ياهادي العباد
بجاه سيدي الخلق شفيع المذنبين خير مهتدي
وعلى من والاهم واحبهم واتبع سنة خير العباد
للحسن الثاني رائد الامة وللمسلمين خير مرشد

حول حقوق العمال في الإسلام

للأستاذ محمد الحاج ناصر

أدرجت « الشرق الاوسط » الزاهرة كلمة للاستاذ عبد المنعم عبد العليم السيد « عن حقوق العمال في الاسلام » قصد بها الى ان يعرض بيانا موجزا لموقف الاسلام من ضمان العدل والانصاف للمؤجرين ، وقد ساق — تدعيما لما عرض من آراء — مجموعة من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية وأثرا عن عمر رضي الله عنه ، فكان مثل عدد كبير غيره ممن يحفزهم الحماس للاسلام الى ابتغاء الاهتداء في نصوصه الى ما يبرزه تشريعا شاملا لدقائق وجزئيات التطورات التشريعية الوضعية ، فيتمحلون في تاويل النصوص القرءانية والحديثية ، بل ويبعدون في التمحل الى أن يقتطعوا أجزاء من آيات أو فقر ليجعلوها تساوق ما يريدون أن يثبتوه ، ولو أنهم جاءوا بالآية او الحديث كاملا لما تيسرت لهم هذه المساوقة ، بل انهم كثيرا ما يغفلون « بضم الياء » او يغفلون « بفتح الياء » عن أبسط ما يستوجبه الاستدلال بالحديث من التثبت منه صحة وحسنا او غرابة أو ضعفا وارتفاعا واتصالا او انقطاعا أو ارسالا، الى غير ذلك من القواعد المقررة لتمييز درجة المروى حديثا من حيث الاحتجاج والبرهنة .

ويبدو ان الكاتب الفاضل التبس عليه معنى كلمة « العمل » حين تجيء للدلالة عن الجهد العضلي وما شاكله — بما فيه أنواع من الجهد الفكري المراد منه الانتاج — وحين تجيء للدلالة عن سعي الانسان التعبدي المحض في سبيل آخرته أو من أجل تقويم العلاقة بينه وبين الله — كما هو شأن الصوفية — وحين تجيء للدلالة على الاضطلاع بمسؤولية من مسؤوليات الدولة بتكليف من رئيس الدولة او ممن يفوض اليه امر التكليف وتوزيع المهام والمسؤوليات .

وما من تشريع وضعي او سماوي يلبس هذه الدلالات بعضها ببعض ، ذلك بأن ما يدخل في نطاق التنظيم الاجتماعي والاقتصادي ، وما هو من شأن الحياة الدينية التعبدية الصرفة ، وما يختص بالتنظيم السياسي ومتعلقاته ، أوضاع متغايرة لا سبيل الى تجميعها في تشريع واحد . فالتنظيم الاجتماعي والاقتصادي من خاصة شؤون الدنيا التي صرح الحديث الشريف المتصل بموضوع « تأبير النخل » المشهور بأنها من خاصة الناس ، اذ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم للانصار : (أنتم أعلم بأمور دنياكم) وغاية امر التشريع السماوي في ما يتصل به هي الضوابط العامة التي ترسم معالم العدل والانصاف ، وتزجر عن الظلم والاعتساف . ومن هذا القبيل ما ورد في الحديث الشريف من اعطاء الاجير اجره قبل ان يجف عرقه ، اذ لا مراء في ان مناط التشريع هو حظر مماطلة الاجراء التي تؤدى الى اذلالهم أو تضييع مصالحهم . ولو قد اخذنا بظاهر نص الحديث لحظرنا استئجار الناس بمرتب شهري او اسبوعي ، وهو ما لا يمكن ان يقول به عاقل .

وباستثناء الآية الكريمة (وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب وفجرنا فيها من العيون لياكلوا من ثمره

وما عملته ايديهم افلا يشكـــرون) (سورة يس) . لا يحضروني نص قرءاني ورد فيه ذكر العمـــل – من اي اشتقاق – بمعنى النشاط اليدوي وما شاكله من انشطة الانتاج ، وهذا النص – مع وروده في مجـــال الانتاج – لا علاقة له من قريب أو بعيد – بما يتصل بالانتاج لصالح الغير ابتغاء الاجر ، ان هو الا توضيح لحقيقة ان الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الانسان ويسر له ما يستمتع به من خيرات الارض ، وان عمله بيده في ما يستلزم العمل باليد الحصول عليه مـــن ثمرات الارض ليس أكثر من وسيلة هداه الله اليهـــا للاستفادة مما خلق له ويسر .

ومن الخطا الساذج ان يساق قولـــه سبحانـــه وتعالى : « وان ليس للانسان الا ما سعى » (سورة النجم) . مساق الاستدلال على ان القرءان الكريـــم يحدد طبيعة اجر العمل ، ذلك بان الآيـــة الكريمـــة ومساقها من القرءان الكريم يتكران اشد الانكـــار ان يكون لها اي اتصال بما هو من خالصة شؤون الدنيا ، بمحضانها لما هو من خالصة شؤون الآخرة ؛ فاللـــه سبحانه وتعالى يقول : « ام لم ينبا بما في صحـــف موسى وابراهيم الذي وفـــى ان لا تـــزر وازرة وزر اخرى وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم تجزاه الجزاء الاوفى » الآيات . واغرب مـــن التمحل في تأويل الآية السابقة هـــذا الاستـــدلال العجيب على ان القرءان « ساوى » بين الرجل والمراة في العمل فـ (اباح للمراة ان تضطلع بكافة الوظائـــف والاعمال المشروعة التي تحسن اداءها ولا تتنافى مع طبيعتها وان تجني – شأن الرجل – ثمـــار جهدهـــا وعملها) بالآية الكريمة « فاستجاب لهم ربهـــم اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم مـــن بعض » (سورة آل عمران) . فهذا التمحل العجيب لا سبيل الى محاولة الادعاء بانه غير مقصود بطريقة سفسطائية ، اذ ان مجرد التامل في الآية نفسها ودون العودة الى ما قبلها او وصلها بما بعدها ، بل ومن غير حاجة الا الى مجرد فهم الكلمات المؤلفة للآية فهمـــا لغويا صرفا ، يهدي تلقائيا الى ان المراد من العمـــل هو العمل التعبدي الذي هو من خالصة الدين ، وان شمل « الانتاج » اذا قصد به الكسب الحلال ، ونفع الآخرين وعمارة الارض لوجـــه الله ، وان المساواة التي وعد بها الله في الاجر عليه هي من محض جزاء الآخرة ، او جزاء الله في الدنيا ، ولا علاقة لهـــا باي تنظيم او ضبط لطبيعة « المعاملات » الدنيوية بيـــن الناس بعضهم مع بعض . اما اذا رجعنا الى ما قبل الآية وما بعدها فاننا نشفق من هذا الدمغ القاصـــف للتمحل والمتمحلين الذي تدمغ به الآية السابقة لهـــا « ربنا آتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد » والآية اللاحقـــة « فالذيـــن هاجروا واخرجوا من ديارهـــم واودوا في سبيلـــي وقاتلوا لاكفرن عنهم سيئاتهم ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب » . فليت شعري هل هنالك ادعى الى العجب من التمحل الذي ينحرف بدلالة الآيـــة القرآنيـــة الصريحة عن موردها والمراد بها الى ما لا يتصل بها من قريب ولا بعيـــد . . . !

وما اريد ان امضي في استقصاء هذا الانحراف والتحريف للدين حرد اليهما الكاتب حردا فاقف عند مزاعمه في آية (سورة الاحقاق) وآية سورة (الزلزلة) اشفاقا من الاطالة على القراءان ان اريد الا ان الفتـــه والفت امثاله ممن يحفزهم الحماس لنصـــرة الاسلام ويقعد بهم « ضعف البصر » بنهجه فـــي التشريـــع والتعبير ، الى ان التشريع الاسلامي لـــم يشمـــل بنصوصه القرآنية او الحديثية تحديد وضبط الحكم او التنظيم او التوجيه في جميع جزئيات الحيـــاة الفردية والاجتماعية ، وانما وضع ضوابـــط عامـــة وتوجيها اساسيا ، وترك للانسان ان يستنبط منهـــا – او على هداها – النظم والاحكـــام والضوابـــط والحدود لما تتعين اليه الحاجة وتستجد تبعا لتطوره حضاريا وتغايره بيئيا ، بل واختـــلاف مستوياتـــه معاشيا . ولذلك كان الفرق بين « الفقه في الدين » وعلم التأويل في الدعاء النبوي الشريف لابن عباس كما ورد في الحديث (اللهم فقهه في الدين وعلمـــه التأويل) ، وكان الفرق بين الوعـــي والسمـــاع في حديث ابن مسعود وزيد بن ثابت رضي الله عنهمـــا مرفوعا (نضر الله عبدا سمع مقالتي فحفظها ووعاها واداها : فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه الى من هو افقه منه) الحديث . وفي حديث لابـــن مسعود رضي الله عنه (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (نضر الله امرءا سمع منا شيئـــا فبلغه كما سمعه . فرب مبلغ – بفتح اللام المشددة – اوعى له من سامع) . وكانت بشارة النبي صلى الله عليه وسلم خاصة بالفقيه دون ان تشمل الناقل غير الفقيه ؛ وفي الحديث الشريف المتفق عليه : (مـــن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين) .

وليس اخطر في محاولة فهم الاسلام واستنباط الاحكام من نصوصه ، او الاستدلال عليها ، من عـــدم

التثبت من المعنى المراد للآية أو الحديث ومن التسرع – اندفاعا وراء مجرد الانفعالات الوجدانية – في ارتجال الاحكام او اهتبال الحجج والادلة ، دون اعتبار لقواعد الاستنباط والاستدلال وموارد الآيات والاحاديث ومقاصدها . ففي الحديث الشريف – وان كان في سنده مقال ... (من قال في القرءان برايه – وفي رواية من غير علم – فاليتبوأ مقعده من النار) . ومن الحديث المتفق عليه : (من كذب علي ومن الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم – وفي رواية « متعمدا » – فاليتبوأ مقعده من النار) تقويله ما لم يقل ، او تحميل قوله غير ما يريد .

ولئن كان القرءان الكريم لا ينص صراحة و « بخاصة » على ضوابط واحكام تنظيمية للعلاقات بين الاجراء والمؤجرين ، بل يكل ذلك الى ما يقتضيه عموم الامر بالعدل والزجر عن الظلم والوعيد للظالمين ، فان الحديث الشريف حافل بقضايا بين الصحابة رضوان الله عليهم ، ثم بينهم وبين غيرهم ممن يعايشونهم ، مما يتصل بهذا الشان ، وباقضية فيها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو قد عاد الكاتب الفاضل الى مدونات السنة لوجد فيها غنى ، ولما كان بحاجةالىانبورد حديثا لا ادريمناينجاءبه، اذ لم اجده في ما رجعت اليه من مدونات السنة ومجاميعها ، على انه يتصل بالولاية بمعنى الحكم ، ولا علاقة له بالعمل الذي يعني الانتاج للغير لقاء اجر وهو ما نسبه الكاتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من القول (من ولي من أمر المسلمين شيئا فولى رجل وهو يجد من هو أصلح منه فقد خان الله ورسوله) .

ومع ان هذا القول لا علاقة له بحقوق الاجراء في الاسلام ، فاني لا ادري كيف ارتضاه الكاتب مع انه يتصل بموضوع اختلفت فيه الامة اختلافا كثيرا ، هو موضوع « ولاية المفضول مع وجود الفاضل » ... ! ولو قد بلغ هذا الحديث – على فرض وجوده – مرتبة الاشتهار التي تؤهله للاستدلال به ، لكان من الطبيعي ان يتخذه القائلون بعدم جواز « ولاية المفضول مع وجود الفاضل » من بين الحجج – بل في طليعة الحجج – التي يستظهرون بها ، واذا تناوله خصومهم بالنقد طبقا لقواعد ومعايير « الجرح والتعديل » ابتغاء الوصول الى نقده ، اذا تيسر لهم ذلك ، او تنزلوا على حكمه وعدلوا عن رايهم – اذا تأكدت لديهم صحته ، او على الاقل درجته من الحسن والارتفاع والاتصال ...

وبعد ، فما اجمل ان يشتد بنا الحماس لنشر الدعوة الاسلامية والتمكين للوعي الاسلامي ، واكتشاف مواقع وعوامل التوافق بين الشريعة الاسلامية وما يهيمن على الحياة الحاضرة من شرائع واعراف ، ولكن حذار من الارتجال والاهتبال واختزال الحجج والقول في القرءان والسنة من غير تثبت ولا اناة او بالاحرى من غير فقه ... فان ذلك يؤدي – بالضرورة – الى تشويه الفهم العام للشريعة الاسلامية ، وتحريف التشريع الاسلامي ، والانحراف به عما أنيط به من لطائف الحكم ومكين القواعد وشامل الاعتبارات .

محمد الحاج الناصر



التعامل المغربي التونسي

في نهاية القرن 18 وبداية القرن 19
بين الشمول والتكامل

للأستاذ مصطفى بوهلال (تونس)

يحق لشباب العالم الاسلامي اليوم ، العودة من حين لآخر ، الى ماضي آبائه واجداده ، فانه واجد ، ولا بد ، شحنات تقوي وجوده ، وتزكي حضـــوره . ولطلب هذا ، لم يقصد التعلق بالذي كان ولا المباهاة ، كفاية ومنتهى ؛ انما المبتغى اثراء الخبرة ، وتوجيـه الصيرورة . « ومن هنا اصبحت معرفة علماء الدين والوقوف على تراجمهم ، وتبين افكارهم وآثارهم امرا لا يستطيع ان يتجاوزه من يدرس عصـور التاريـخ الاسلامي ، فهم الذين كانت تنبع منهم الافكار الموجهة بالشعوب الى تحصيل مدارك الدين نظريا او علميـا على الصور التي يلقونها الى الشعوب من تلك المدارك، وهم الذين تتمثل فيهم معاقد ما يصل بيـن شعـب وشعب ، او قطر وقطر ، من تلك المدارك » (1) .

وحين تلمس الافادة من ذلك وطلبها ، تمتـن الرابطة ، وتثبت الاخوة ، ويزكو التعـاون ، وترسخ الوحدة ، ويشيع الامن والرخاء .

اقول هذا ، والفكر يعود بي ـ وقت النظر في وحدة المغرب العربي ، والعالم الاسلامي ـ الى سبر نوعية العلاقات الواقعة بين افراد ومجموعات هـذه المنطقة ، ولامتداد ذلك في الزمن ، اقصر الحـوار ـ في هاته الاطلالة ـ على الثلث الاول مـن القـرن التاسع عشر وعلى الثلث الاخير من القرن الثامـن عشر ، معتبرا ان ما جرى ويجري في قرننا هـذا الحاضر ـ على اعتبار الدور الذي تلعبه الانجازات التكنولوجية من تيسير وتعميق التفاعل ـ لم تنفـك اصداؤه تتردد ، فيعيها كل ذي عقل حصيف ..

ففي التصور ، ان ما هو كائن العهـد ، بيـن القطرين : تونس والمغرب ـ رعية ورعاة ـ من تقارب وتلاحم وتآخ ، انما هو عين « الحتمية التاريخية » . ذلك انه من يوم دخول الاسلام الى هذا المغرب الكبير، والدين يقرب ويهذب ، يشد العضد باخيه فيحميه.. واستقراء الحادثات هو البرهان : اتفاقات التبـادل الثقافي والفني والاقتصادي المبرمـة .. علائـق التساند والتكامل القائمة بين اجهزة حكومة جلالـة الملك الحسن الثاني (2) وحكومة المجاهد الاكبـر

---

(1) اعلام الفكر الاسلامي في تاريخ المغرب العربي . للشيخ المرحوم محمد الفاضل ابن عاشور ـ المقدمة.

(2) جلالة الملك الحسن الثاني : ولد بالرباط عـام 1929 م ، وارتقى عرش آبائه سنة 1961 م . من منشآته : دار الحديث الحسنية ، انشأها عـام 1964 م للدراسات الاسلامية ـ اكاديمية المغرب ، افتتحها في 21 ابريل 1980 م لتنمية البحث العلمي وتمتين التقارب الانساني وتضم 38 عالمـا مبرزا من جنسيات مختلفة وفي حقول معرفية متنوعة . انتخبه المؤتمر الاسلامي لوزراء الخارجية في فاس رئيس لجنة انقاذ القدس ، وذلك في ماي 1969 م .

الحبيب بورقيبة (3) .. اللجنة الاستشارية للمغرب العربي .. تبادل العلماء والدارسين .. رحلات التعارف والدراسة .. الاسابيع الثقافية ... جميعها ، أتت على الصورة الانقى التي نشهد ، ممثلة حلقة صلبة ، رقدت ما صنعه المغفور له جلالة الملك الراحل محمد الخامس (4) ، بمعية رفيقه فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة ، خدمة للوطن ، واعلاء لكلمة الاسلام . فنحن لن ننسى تلكم الزيارة المباركة من جلالته لتونس ، يوم الاثنين 22 / 10 / 1956 م بغية تبادل الانظار في قضية الجزائر المجاهدة ... وكيف النسيان وسليل الدوحة النبوية يرافق زعيم تونس البار في مسيرة تغيير المنكر ، واعانة المستعبد، وفتح الطريق لمعركة التنمية المشتركة واكتساب القوة ؟ .

حتما ، لن ننسى ايضا زورة قائد تونس الى الرباط في أواخر مارس 1957 لعقد معاهدة اخوة وتضامن مع أخيه المجاهد العظيم محمد الخامس - طيب الله ثراه - وهي أول معاهدة يبرمها المغرب في عهد استقلاله .. وتلتها زيارات متبادلة عدة ، من اعمقها اثرا : حضور موكب جنازة فقيد المغرب العربي محمد الخامس يوم 28 فبراير 1961 وشهود حفل تنصيب جلالة ولي العهد الحسن الثاني : ملكا على المغرب ، من طرف المجاهد الاكبر الحبيب بورقيبة ...

وكما أشرت ، لم يعد ذلك الظاهرة الفرد من اشكال التعاضد ، فانه وان تقلص حجم الجالية المغربية بتونس في النصف الثاني من القرن العشرين، فانه - قبل ذلك - لا تكاد تخلو مدينة بها ، من اخوة مغاربة ، مقيمين - مؤقتا او بصفة مستديمة - استطابو العيش ، وهم في رحلاتهم الى الحج ، أو الى استرواح انس اخوة لهم ، او اشباعا لروح الطموح فيهم وحب السير في ارض الله المتأصل في طبائعهم ؛ وبالمقابل انتقل رجال من تونس الى المغرب، فانتفعوا ونفعوا - علما أو كسبا ماديا - ومنهم من عاد بأسرة ومنهم من اوثقته حلاوة المقام فقرت عينه، واطمأنت نفسه هناك ..

ومن ذلك ما حصل اواخر القرن الثامن عشر ، فقد اقيم احتفال بهيج ، احتفاء بمقدام الامير اليزيد (5) ابن السلطان محمد الى تونس - وهو في

---

(3) المجاهد الاكبر الحبيب بورقيبة : ولد بالمنستير في 1903 م ، دخل المعهد الصادقي ثم معهد كارنو بتونس ، نال (المحاماة) من فرنسا ورجع سنة 1927 م ، أصدر جريدة « العمل التونسي » في 1932 م وانضم الى الحزب الحر الدستوري (القديم) موسعا اتصالاته النضالية بالشعب ، وفي مؤتمر قصر هلال 2 مارس 1934 م تأسس الديوان السياسي للاشراف على الحزب الحر الجديد وانتخب سيادته كاتبه العام . أبعد الى بورج لوبوف (برج بورقيبة الآن) بالصحراء في 3 سبتمبر 1934 م . رحل الى الخارج معرفا بقضية تونس . وجه المظاهرات فاعتقل يوم 10 ابريل 1938 م . واعتقل مرة اخرى في 18 يناير 1952 م وعاد من معتقله (جزيرة لافرو الفرنسية) منتصرا في غرة يناير 1955 وتم الاستقلال في 20 مارس 1956 فتراس المجلس القومي التأسيسي في 8 ابريل 1956 ثم تركه ليؤلف حكومة الاستقلال في 15 ابريل 1956 . انتخب رئيسا للجمهورية في 25 يوليوز 1957 . أجلى آخر جندي فرنسي من تونس في 15 أكتوبر 1963 .

(4) جلالة الملك المغفور له محمد الخامس : ولد بفاس في 23 رجب 1327 هـ - 10 غشت 1909 . بويع بالملك اثر وفاة والده المولى يوسف العلوي في 18 نوفمبر 1927 . ناضل رحمه الله من أجل شعبه حتى شردته فرنسا خارج وطنه (مدغشقر) هو واسرته الشريفة في 20 غشت 1953 . واخيرا رضخ الاستعمار الفرنسي لارادة الشعب المغربي الابي ، فعاد جلالته ميمونا بالحرية لبلده ، وذلك يوم 16 نونمبر 1955 ، فاجتهد في تطوير مملكته صناعيا ، وفي تركيز المؤسسات الوطنية . انتقل الى رحمة ربه تعالى ، وهو بالرباط ، في 10 رمضان 1380 - 25 فبراير 1961 .
من منجزاته - رحمه الله - للنهوض بالمغرب المستقل : - تأسيس المجلس الوطني الاستشاري في 30 سبتمبر 1956 - صدور قانون الحريات العامة سنة 1958 - انشاء مجلس الدستور عام 1959 .

(5) الامير اليزيد ابن السلطان محمد ابن السلطان عبد الله ابن السلطان اسماعيل الشريف العلوي : لم تطل فترته اذ استشهد في حرب استرداد (سبتة) جريحا بالرصاص وهو سلطان المغرب .

سبيله الى البلد الحرام ــ وذلــك في شوال عــام 1206 هـ ــ 1792 م . فقد رحب به الامير حمودة باشا (6) في القصر الملكي المخصص لاقامة الضيف بمنوبة ــ احدى ضواحي العاصمة التونسية ــ ثــم استضافه ميللا بدارته بباردو ــ قــرب منوبــة ــ « وبالغ في اكرامه لما بين الدولة الحسينيــة (7) وهذه السلطنة الشريفة من المحبة والوصلة » (8) .

ومن مظاهر الاحتفال بالامير اليزيدي في تونس: اتاحة الفرصة له في الحضور ، بل والمساهمــة في تدريب عسكري بباردو ، خاص بالرماية ،لما لوحــظ عليه من ولع بها ومهارة .

وامتد ترسيخ الروابط الى كافــة الاطــارات الحكومية والطبقات الشعبية ، فالنــاس على ديــن ملوكهم ، واذن ليس عجيبا ان يخف وزير الحرب أبو المحاسن يوسف صاحب الطابــع (9) الى تنظيــم استقبال مشهود لقطعة من الاسطول العلوي ، كانــت مارة بالمياه الاقليمية التونسية : تانيسا لافرادهــا واعظاما للمولى السلطان سليمــان (10 ، وتبــادلا للخبــرات (11) .

ومما حصل كذلك : توجه نظر باي تونــس : أبو محمد حمودة ابن الباشا علي ابن الباي حسين بن علي ــ باني البيت الحسيني ــ الى المغرب الاقصى ، قصد الاستعانة وعقد صفقة تجارية ، لجلب القمــح ــ في المقام الاول ــ نظرا لما أصاب البلد من احتبــاس غيث ، وخسران حرب ، وخراب وبــاء ، لذا عقــد

---

(6) ابو محمد حمودة باشا : من بايــات تــونس الحسينيين . ولد عام 1173 هـ ــ 1759 م . تولى الملك سنة 1196 هـ ــ 1782 م . توفي عام 1229 هـ ــ 1814 م .
راجع اوفى دراسة عنه وامتنها : سياسة حمودة باشا في تونس ــ الدكتور رشاد الامــام .

(7) الدولة الحسينية : بدأ الحكم العثماني لتونس اثر قدوم القائد التركي سنان باشا على راس أسطول لطرد الاسبان المحتلين واسر عميلهم محمد بن الحسن آخر ملوك الحفصيين عــام 1574 م ثــم تركزت الدولة المرادية (1610 م ــ 1702 م) ــ نسبة الى مؤسسها مراد باي ــ وبــذا أصبحــت تونس ولاية عثمانية بحكمها : 1 ــ الــداي : رئيس مجلس الضباط . 2 ــ الباي : الجابي للاموال ورئيس المحلة (الجيش البري) المكلفــة بتأمين الطرق . 3 ــ الباشا : ممثل السلطان التركي ، ودوره سياسي . ولتنــازع المراديــن على السلطة وظهور الفوضى ، ولطمع داي الجزائــر في الاستيلاء على تونس وانتزاعها اليه ، صمم (حسين بن علي التركي المولــود عــام 1086 هـ ــ 1675 م والمتوفى سنة 1740 م) ــ آغا الصبائحية (رئيس الحرس) على لم شتات الجند وتنصيب نفسه بايا ، وذلك سنة 1117 هـ ــ 1705 م . ومن هذا التاريخ توالى البايات الحسينيون على العرش جامعين بين لقبي الباشا والباي ــ مع بقاء الداي شرفيا فحسب ــ الى يوم 25 يوليوز 1957 .

(8) اتحاف اهل الزمان ، لابن أبي الضياف . ج 3 ص 21 .

(9) الوزير يوسف صاحب الطابع : كان مملوكــا بالقسطنطينية ، اشتراه القائد بكار الجلولي ليهديــه ــ وغيره ــ للباي حمودة باشا : خدم سيده هذا بوضع طابعه على الرسائل .. كلف بسفارة الى دولة بني عثمان ، وقاد الجنود . آخر وظائفه توزره لمحمود باي (حـ 1230 هـ ــ 1814 م . ت 1239هـ ــ 1824 م) . قتل في 1230 هـ ــ 1815 م ودفن بصحن جامعه الذي سيرد ذكره هنا . ومن الذين اهتزوا فرقا من هاته الجريمة : العالــم الشاعر ابراهيم الرياحي ــ وسيأتي خبره ــ فرثاه ــ غفر الله لهما ــ بميمية ، اورد منها :

للــه قــد وجــب الــدوام وســواه نهــب للحمــام
حكــم جــرى تعميمــه حتمــا على كــل الانــام ...

(10) السلطان سليمان العلوي : ولد سنة 1180 هـ ــ 1767 م وحكم بلاده من 1206 هـ ــ 1792 م الى 1238 هـ ــ 1822 م . أشهر صفاته العدل والصلاح والشورى . جدد الجيش وطور اجهزتــه . فقيه ، مدرس ، ومؤلف . من شيوخه العالم الطيب بن كيران (ت 1227 هـ) والعالم ابن شقرون.

(11) اتحاف اهل الزمان ، لابن ابي الضياف . ج 7 ص 97 .

رئاسة السفارة التونسية الى السلطنة الشريفة (12) بالمغرب الاقصى ، للشيخ العلم ابراهيم الرياحي (13) وسار السفير سنة 1218 هـ / 1803 – 1804 م ، الى ابي الربيع مولاي سليمان ابن المولى محمد (14) ابن المولى عبد الله ابن اسماعيل (15) ، برسالة دبجها له شيخه القاضي وكاتب الباي : ابو حفص عمر المحجوب (16) ، ليسلمها الى الشيخ ابن شقرون (17) ، احد اعيان الدولة بالمغرب ، واحد معارف الشيخ عمر المحجوب ، ومن هاته الرسالة :

« ... وننهي اليكم ، وصل الله حفظكم واسعادكم ، ووفر من كراماته امدادكم ، واطال فيما يزلفكم لديه آمادكم ، وجعل في ذات الله محبتكم واعتقادكم ، اننا لم نظعن عن معاهدة المودة ، ولم نبرح عن الثناء على مقامكم من تلك المدة ، ونسائل عنكم الركبان القادمين الينا ، ونبحث عن ابنائكم السفر المجتازين علينا ، رعيا لاواشج العلم والادب ، ومبرة للسلسلة التي هي اصح من سلسلة النسب ، فتنثني من اخباركم بما ينشط القلوب والالباب ، ويستخلص من الحمد والشكر خالص اللباب ... والى هذا نعرفكم ، عرفكم الله عوارفه ، واسبغ عليكم من الفضل مطارفه ، ان حضرة افريقية حاطها الله بعنايته الكافية ، واسبغ على اهلها رداء العفو والعافية، قد اعوزها الخصب ، في الاعوام المنفصلة ، وتوالى عليهم الجدب في سنين متصلة ، لا سيما هذه السنة الشهبا ، فانما تلونت لاهاليها تلون الحربا ... قضاء من الله مقدرا ، وحكما سابقا في ام الكتاب مدبرا ، ولم يجد القوم ملاذا من هذا الامر ، ولا مفزعا الى ان

---

(12) السلطنة العلوية : يتصل نسب سلاطينها بالحسن بن علي بن ابي طالب – رضي الله عنهما – . بموت الملك المنصور عام 1012 هـ – 1604 م ولتقاتل ابنائه على المملكة ولتهافت الدول الغربية على احتلال الثغور المغربية ، نهض العلويون،وراس ملوكهم المولى محمد بن الشريف (حـ 1041هـ – 1631 م) . خلفه اخوه السلطان رشيد الذي بسط حكمه على المغرب بأجمعه سنة 1079 هـ – 1669 م بعد ان استولى على فاس ، ومراكش – مركز حكمه – ... نقل مولاي يوسف (حـ 1912 م – 1927 م) العاصمة من فاس الى الرباط .

(13) ابو اسحق ابراهيم بن عبد القادر الرياحي: ولد بتستور سنة 1180 هـ قدم الى تونس فانتسب الى المدرسة العاشورية التي اصبح احد مدرسيها ، فيما بعد ، من شيوخه : صالح الكواش ، وعمر المحجوب ، ومحمد الفاسي – وستجيء تراجمهم – تراس اهل الشورى من المفتين . خطيب جامع الزيتونة ، شاعر ، متصوف ، ومدرس بارع ، وسفير قادر . سافر الى تركيا في مهمة ديبلوماسية الى السلطان العثماني محمود الثاني (حـ 1808 م – 1839 م) وذلك بعد سفارته الى المغرب . توفي في 1266 هـ – 1850 م . رثاه تلميذه محمد الباجي المسعودي (ت 1880) بقصيدة منها :

.. اليس مصاب ابراهيم خطبا ... ويصلي غالب الاكباد جمرا
... اليس مصاب ابراهيم خطبا ... يروع جميع اهل الارض طرا ...

(14) السلطان محمد ابن عبد الله : اشتهر بالحزم وحسن السياسة وتطوير الاسطول ، اخرج البرتغاليين من مرسى الجديدة . عالم ، حامي الدين والعلماء . توفي في 22 رجب 1204 هـ – 1790 م .

(15) السلطان اسماعيل العلوي : ولد عام 1056 هـ وتولى العرش 1082 هـ وتوفي 1139 هـ – 1727م. قضى على الفتن وجمع القبائل ، حرر المهدية وطنجة واصيلة والعرائش ، ربط علاقات ودية مع الدول الكبرى خاصة مع بلاط لويس الرابع عشر . اكسب لبلده شخصية دولية مرموقة .

(16) الشيخ عمر المحجوب : عالم متبحر ، اخذ عن والده الفقيه قاسم مباحث الفقه المالكي . اديب، مدرس ، وقاض . يكتب للباي حمودة رسائل للملوك . له رسالة في الرد على محمد بن عبد الوهاب (ت 1792 م) . توفي بتونس في 1222 هـ – 1807 م .

(17) الشيخ ابن شقرون : لم يعينه ابن الضياف ،وارجح ان يكون هو ابو محمد عبد القادر بن احمد بن العربي بن شقرون . فهو العلامة القاضي وعنه أخذ السلطان أبو الربيع سليمان ، وهو الذي امضى – كتابة – البيعة العامة لهذا السلطان ، بفاس ، بمعية علماء آخرين كالتاودي ومحمد بنيس ، وذلك عام 1204 هـ . توفي سنة 1219 هجرية .

يكشف الله سبحانه عنهم هذا الضر ، الا ان أوفدوا الانفار المذكورين اعلاه للمشور الانخم ، والنادي الاعظم ، حضرة مولانا السلطان الشريف ذي القدر المنيف أعز الله تعالى سلطانه ، وحرس بعين العناية أرجاءه وأركانه ، وهؤلاء القوم ، وان كان بأيديهم مكتوب من اميرنا الباشا ، ايده الله تعالى ، في طلب ابتياع الميرة ، من ممالك مولانا السلطان نصره الله تعالى ... لا جرم انهم اصابوا المرمى واستبصروا ، حين فزعوا لحضرة مولانا السلطان وانتصروا ، وبهمته العالية على القحط استنصروا ... ونعرفكم بان الاول منهم ، وهو الفقيه المتفنن البارع ابو اسحق سيدي ابراهيم الرياحي من نجباء الطلبة الذين اخذوا عنا ، وميزه تحصيله بمزيد الوصية عليه منا ، ولعلكم ان شاء الله ، اذا بلوتم نجابته ، واستنفضتم كنانته ، تحمدون في العلوم ذكاءه ، وترضون توغله في معارجها وارتقاءه ... والله سبحانه وتعالى يبقيكم ، ومن طوارق الزمان يقيكم ، ولا زال ظل مولانا السلطان ممدودا ، وارفاده محمودا ، وقطره مقصودا، وبره معمودا مصمودا ، بمنه وكرمه » (18) .

ولئن جاءت هاته الرسالة – من ناحية ادبية – ممثلة لخصوصية النثر في ذلك العصر ، على اعتبار انه المتقوم بالسجع والمتهافت على المحسنات اللفظية في تكلف قد يطيح بالفكرة السامية احيانا ، فانها تبدو أبرع من ذلك ، لما حوته من متانة لغة ، وصدق عاطفة ، ورفعة خاطرة ، وحسن تخلص . لقد استهلها منشئها عمر المحجوب بتصدير – وأن حاز مساحة مبالغا فيها – اثار الصلات الثقافية المكينة التي بينه وبين العالم المغربي ابن شقرون ، مثنيا بعرض الداعي الى ايفاد الوفد التونسي الى حضرة السلطان العلوي ، منتهيا الى :

1 – تقديم رئيس الوفد : تعريفا بمؤهلاته ، ودعوة الى مناظرته وتنظيم حوار علمي معه ، مما يدل على ان من مهماتها الرئيسية التناظر الثقافي ، والتعارف المعرفي ، وهذا ما حصل على نحو ما سيعرض لنا هنا .

2 – الاشارة الى تخلف زعيم الرحلة عن المهارة في التجارة ، الشيء الذي يرجى معه المساعدة والنصرة والتبصير في الاسواق .

وكما اثبت المؤرخ ابن أبي الضياف (19) في تاريخه : « قابله السلطان باحتفال ومزيد اجلال » (20) .

وتقدم الرياحي ، في هذا المهرجان ، بين يدي المولى سليمان بقصيد منه :

ان عز من خير الانام مزار
قلنا بزورة نجله استبشار

اوليس نور المصطفى بجبينه
كالشمس يظهر نورها الاقمار

فاشف الغليل بقربه ، فلطالما
شط المزار ، وعاقت الاقدار

... هذا الخليفة وابن اكرم مرسل
وسليل من فخرت به الامصار

وخلاصة الاشراف والخلفاء من
بيت البتول ومن حواه ازار

... هذا سليمان الرضى ابن محمد
من اشرقت بجبينه الانوار

(18) الاتحاف ، لابن أبي الضياف . ج 7 . ص 53 – 54 .

(19) احمد بن أبي الضياف : ولد بتونس العاصمة سنة 1217 هـ – 1802 م (كما صحح الاستاذ احمد عبد السلام بحوليات الجامعة التونسية ع 6 ، س. 1969 ، ص 57 – لا كما هو مشهور خطأ بان ميلاده في 1219 هـ – 1804 م) . حفظ القرءان الكريم بكتاب سيدي احمد بن عروس ، (ت 868 هـ – 1458 م) ودرس عن الشيخ ابراهيم الرياحي ، وعن غيره ، تولى مناصب عديدة، ايام الدولة الحسينية ، كخطة العدالة ، وخطةالكتابة للباشا حسين باي والمشير احمد باي والمشير امحمد باشا باي والمشير محمد الصادق باي الذي جعله من أعضاء مجلسه ثم وزيرا . توفي في 1291 هـ – 1874 م وقبره بصحن جامع الطابع بتونس ، فيكون قد عاش 74 عاما ، قضاها في الادارة والكتابة والسياسة .

(20) الاتحاف ، لابن أبي الضياف ، ج 7 ص 74 .

هذا الذي رد الخلافة غضـة
وسما به للمسلمين منـــار

... وهو الذي يسعىاليه اذا دجى
ليل الخطوب وساءت الافكار

كمجيئنا نسعى اليه وقد سطا
جدب وعم جميعنا اضـرار

... مولى راى الدنيا بمقلة زاهـد
ودرى بان جمالها غـــرار

... تهوى المشارق أن تكون مغاربا
ليعمها في الملتجيـن جـوار

وتنال من عز الشريف كما رات
أن كان فيهـا للخلافـه دار

رد الزمان لصدره فكانما الفـ
ـاروق بين ظهورنـا امـار

العدل يبسط والنفوس سوامح
والدين يظهر والعلوم تـدار

والناس في رغد الحياة بجنـة
تجري لهم من تحتها الانهـار

فليشكروا النعم التي عمتهم
الله يعلم أنهـن غـزار (21)

بحق ، تعد هاته الرائية ، وثيقة تاريخية ادبية صادقة ، لتمرس مبدعها بالحياة ، ولتفاعله اليقـظ مع البيئة ، بعين فاحصة وخاطر ناقد : يمتلـك زادا تعبيريا ورؤية فكرية تطلعية لا مجال للشك فيهمـا . ومن ثمة ، ولصدق التجربة ورهافة الحس ، تجمعت شرائط الابداع الفني في قصيدة الرياحي السلطانية، « وكل هذه القصيدة عيون » (22) .

صحيح ان لشاعرنا ، في فن المدح والاطراء ، الباع الطويل ، ذلك انه مدح كثيرين من الحسينيين ، كما مدح السلطان العثماني محمود الثانـي (حكـم 1808 م 1839 م) بحضرته في تركيـا ، غيـر أن الدارس المتذوق لشعره يميل الى الاستنتـاج بأن رائيته هاته اروع واثرى .. وأن رمت المقارنة بينها وبين شعر المديح على سعته في ذلك العصر فهـي اجـــوده (23) .

والى جانب ما المحته ، من ركائز شاعرية شاعرنا الفحلة ، وابعاد الظرف الذي يحمل تبعاته و « حـب الرياحي العميق لآل البيت ، وايمانه الذي لا يتزحزح بان سلاطين المغرب من آل الرسول جعـل شعـره ناضجا نضجا فنيا يدعو الى الاعجاب » (24) .

وفعلا ، اذن السلطان سليمان ، للعلامة السفير الشاعر ، باشتراء ما يرغب من مملكته ، رغم تحجيره خروج القمح من بلده (25) ، واهدى لمرسله البـاي حمودة باشا كمية ذات قيمة ، من النحاس ، اذيـب بتونس لصنع مدافع « ينيف عددهـا على المائـة مدفـــع » (26) .

يسرح بنا النظر الآن ، مع الرياحي ، في فـاس وسلا — مدينتي العلم والتصوف ، فلقد اروى ما في الباطن من توق الى الجدل لتزكية المحصـول ، ومن عشق للاطلاع والتهذيب ، ومن ميل الى المساهمـة الحية في حقول المعرفة والتعارف . لذا كنت تلقاه في الصدارة ضمن حلقات الدروس بفاس . ومـن تلك : درس تفسير القرءان الكريم الذي كان يلقيـه السلطان سليمان نفسه من سورة الانفال ، ولما انهى المدرس المذكور حصته عند الآية الكريمـة « 41 » من نفس السورة وهي : « واعلموا انما غنمتم مـن شي فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . فجـاءه البشيـر بأن سفينة من سفنه الحربية ، غنمت من سفن اهل حربه غنيمة ، وحسن موقع هذا الاتفاق فهنأ (أي الرياحي) السلطان بقصيدته الشهيرة ، التي مطلعها :

(21) الاتحاف ، لابن ابي الضياف ، ج 7 ص 75 — 76 .
(22) الاتحاف ، لابن ابي الضياف ، ج 7 ، ص 76 .
(23) انظر : الادب التونسي في العهد الحسيني . د. الهادي حمودة الغزي . ص 130 .
(24) نـفس المرجـع السـابـق . ص 129 .
(25) انظر : الادب التونسي في مستهل العصـر الحديث . محمد الهادي العامري . مجلة الفكر سنة 11 عدد 6 — مارس 1966 ص 38 .
(26) الاتحاف ، لابن ابي الضياف . ج 3 ، ص 39 .

دلائل فضل الله فينا تترجم
وان غفلت عنها طوائف نوم

ومن اكرم النعما ولاية من له
علينا وفينا حكمة وتحكم

تلطف في اخفائها متسترا
ومن كملت فيه الولاية يكتم

ولما اراد الله اظهار سره
جرى الامر في الاظهار من حيث يعلم

الم تغتنم وقت المساء وغدوة
بدا الوقت في التفسير آية «واعلموا»

ليدري صحيح الذوق ان مليكنا
له في طريق الكشف نهج مقوم

وان لنا فيما قضاه مغانما
فجعل ذي، بدءا لما هو اعظم

فلا زالت الايام تخدم سعده
ولا زال مثلي في حلاه ينظم (27)

ولعل هذا الحضور الشعري من الرياحي، يضاف الى الاسباب التي طمانت علماء المغرب، بعد حيرتهم في عمق شاعريته واصالتها. «وقد بلغ من روعة قصيدته الرائية التي انشدها بين يدي السلطان فور التسليم عليه، ان شك ادباء المغرب الاقصى في ان يكون ابراهيم الرياحي هو الذي نظمها، ولم يطمئنوا الا بعد ان اختبروه» (28).

كما كنت لاق صاحبنا الرياحي بالمغرب، في حضرة الولي العارف أحمد التجاني، يأخذ عنه طريقته الصوفية مباشرة بعد ان اتبعها — وقد كان منضما الى الطريقة الشاذلية، وهو في تونس — بواسطة احد المتصوفين المغاربة، وهو الصوفي علي حرازم، الذي التقى به في جامع الزيتونة (29)، ف «هو اول تونسي ينضم الى هذه الطريقة» (30).

وكنت واجده ايضا، بحضرة المدرس الطيب ابن كيران (31) يستفيد منه ويذاكره. اما في سلا، فقد اخذ عن فقيهها العلامة محمد الطاهر المير السلاوي (32) الذي اجازه (33).

ومن هناك قفل عائدا الى وطنه الاول، جالبا من المواد الغذائية ما يخفف الوطاة، ناشرا الطريقة التجانية (34)، منشئا لها الاوراد، معمرا زاويته بالعاصمة (35)، موثقا الاواصر الاخوية وموسعا الآفاق الادبية ومثريا المدارك العلمية. ومن ذلك:

(27) الاتحاف، لابن أبي الضياف، ج 7، ص 76.
(28) الادب التونسي في العهد الحسيني. د. الهادي حمودة الغزي، ص 129.
(29) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. محمد مخلوف، ج 1، ص 387.
(30) الادب التونسي في العهد الحسيني. د. الهادي حمودة الغزي، ص 120.
(31) الشيخ الطيب بن كيران: قرا على الشيخ التاودي والشيخ عبد القادر بن شقرون، وعن غيرهما، بفاس، عالم في المعقول والمنقول، مدرس بالقرويين. كان السلطان سليمان يحضر دروسه. توفي عام 1227 هـ.
(32) الشيخ محمد الطاهر المير السلاوي: استاذ الاساتذة، فقيه، محدث. كان السلطان محمد بن عبد الله يحتفي به في مجلسه العلمي. توفي سنة 1220 هـ.
(33) انظر: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. لمحمد مخلوف، ج 1، ص 376 وكذلك ص 387.
(34) الطريقة التجانية: تنسب الى مؤسسها الشيخ ابو العباس احمد التجاني المولود عام 1150 هـ بعين ماضي بالجزائر، رحل الى فاس في عام 1171 هـ فتعلم الحديث وغيره ثم أتى تلمسان ليقرىء التفسير والحديث. حج سنة 1186 هـ مارا بتونس مقيما بها، عند حسونة القصري العالم والتاجر الوارد من قصر الرباط (ت 1199 هـ / 85 — 1784 م): «حتى استكمل تدريس (الحكم) لابن عطاء الله، بمسجد سوق البلاط»، الاتحاف، لابن ابي الضياف، ج 7، ص 21. استوطن فاس سنة 1213 هـ. اجتمع به السلطان سليمان، ولعلمه واخلاقه، منحه منزلا وجراية وشاع من وقتها امره كصاحب طريقة صوفية. توفي بفاس عام 1230 هـ — 1815 م.
(35) توجد قرب حوانيت عاشور. جددت عام 1229 هـ — 1873 م.

دوام الصلة والمساجلات بينه وبين السلطان سليمان، هذا الذي كانت تقرأ رسائله الموجهة الى الاديب العالم ابراهيم، وما يصاحبها من مقطوعات ادبائه الشعرية : « على الباي في ديوان المحكمة » (36) بمحضر الوزراء والمقربين .

وهذه منتقيات من قصيد بعثه الشيخ الرياحي الى السلطان سليمان، يهنئه فيه بسلامة عودة ولده من البقاع المقدسة، قال :

هذا المنى فانعم بطيب وصال
فلطالما اضناك طول مطال

ماذا وكم أوليتني يا مخبري
بقدومه من منة ونوال

بشرتني بابن الرسول، لو انما
روحي ملكت بذلتها في الحال

بشرتني بسلالة الخلفاء من
امداحهم تتلى بكل مقال

من حبهم فرض الكتاب كما ترى
« الا المودة » حين يتلو التالي

من ضمهم شمل العباد واذهبوا
رجسا، فيا لك من مقام عالي

لولا هم كان الورى في ظلمة
مدت غياهبها بكل ضلال ... (37)

وما كان من السلطان المهنا الا ان رد التهنئة باحسن منها : اعطيته مالية ورسالة، وقصيدة « من انشاء بعض كتابه، مطلعها :

... يا أهل تونس حزتم شرفا بما
ابديتمو من صالح الاعمال

يكفيكم ان فيكم هذا الذي
حلت بلاغته محل كمال (38) ... »

ولما بسطنه، اصاب الكاتب المؤرخ ابن ابي الضياف، في استنتاجه من ان الشيخ المبعوث الى المغرب الاقصى قد عاد : « مقضي الحاجة، مشكور المسعى، وخلف طيب الثناء، آخذا بمجامع قلب السلطان ... وبهذا التقرير تعلم حال السلطنة المغربية الشريفة وقتئذ، من السذاجة الاسلامية، والتخلق باخلاق الخلفاء والصالحين ... » (39)

وهو استنتاج يصور مدى الاطمئنان الى هاتيكم الالتفاتة، وتلكم الاغاثة التي واست الخواطر، بعد جائحة التحط المريع الذي سبقه وباء عام دام ثلاثة اشهر ـ من سنة 1803 م ـ هلك فيه اكثر من عشرين الف تونسي (40) .

اتساءل الآن : لم وقع الاختيار ـ من بين الاجوار ـ على العرش المغربي، من طرف باي تونس، كمنقذ من الازمة ومعين ؟ بتعبير ثان : هل كان لحمودة باشا الخيار في التوجه نحو مصادر أخرى للتزود ؟

واقع ما افادنا به المؤرخون من ان الباي حمودة رغب في ايجاد اسواق دولية منها يستورد الغذاء لشعب انهار اقتصاده تماما، ومن ذلك بعثه « بسفن عديدة الى البحر الاسود لاستجلاب الحبوب » (41) . ومن ذلك ايضا : اذنه بدخول امدادات للجالية الفرنسية بتونس ـ رغم الحالة المتردية التي عليها العلائق بين البلدين وقتها ـ فقد ارسلت فرنسا كمية دقيق تقدر بثلاثمائة قنطار (42).

غير أن هذا لم يحل المعضلة، وزادها تعقدا الوضع الدولي المحيط بتونس ـ على ذلك العهد ـ فلقد سجلت معارك دامية، وهجومات ضارية على الموانىء التونسية، من طرف الايطاليين ـ وغيرهم من الاوروبيين ـ منها حملة الفينيزيين على ثغور حلق الوادي وسوسة وصفاقس، فقذفوها ببارود

---

(36) الاتحاف، لابن أبي الضياف، ج 7، ص 77 .
(37) نفس المرجع السابق .
(38) نفس المرجع السابق
(39) نفس المرجع السابق، ص 76 ـ 77 .
(40) سياسة حمودة باشا في تونس ـ د. رشاد الامام، ص 259 .
(41) نفس المرجع السابق
(42) نفس المرجع السابق، ص 259 ـ 260 .

المدافع ، لا لشيء الا لالحاح تجار تونسيين في تعويض سلعهم التي فرط أحد ربابنة سفنهم فيها .. واستمر التنابذ حتى بعد التوقيع على صلح سنة 1206 هـ ـ 1792 م ، هذا بالاضافة الى كون البلدان الاوروبية لم تعد ممونا للمغرب العربي في مادة الحبوب .

اما بالنسبة لطرابلس ، فالاحوال هناك اسوأ مما هي عليه في تونس ـ اقتصاديا ـ لما خلفته المنازعات الضارية بين (البرغليين) و (القرمانليين) من انحطاط في القوة . ذلك ان ورود القرصان المغامر علي برغل من الجزائر ، بجيش لفيف ، نحو طرابلس، نتج عنه نهب ومجاعة ، ثم طرد باشا طرابلس علي قرمانلي لاجئا الى باي تونس الذي غضب لغضبه ، فأعاده الى عرشه عام 1795 م بعد حرب ضروس ؛ كما استرجع جزيرة جربة التونسية بالقوة من علي برغل . ولا يغيبن عن البال ان ليبيا حينذاك تصنف ضمن البلاد الفقيرة وان في السلم .

وفي شان نوعية العلاقات بين حكام البلدين : تونس والجزائر ، فالحال يدفع الى الضيق والحسرة؛ ذلك ان اقرباء الباي حمودة باشا المعادين له والثائرين عليه ، احتموا بدايات الجزائر ، وهؤلاء ـ بدورهم ـ لهم رغبة ملحة في الاستحواذ على مملكة حمودة باشا، وقد تحرش به داي الجزائر وناوشه ، لذا شرع في اعداد القوة ، ومن ذلك بناؤه سور تونس عام 1217هـ 1802 م ونصب المدافع ، وتحصين ميناء حلق الوادي ، واقامة ثكنات جديدة للجيش . وكل ذلك يسير الى تردي العلاقات التونسية الجزائرية في هذا الزمن ، عكس ما كانت عليه ذي قبل ، وغصبا عن كل المهاترات ، فان التجار الجزائريين كانوا يبتاعون ـ هم بدورهم ـ من تونس « الكميات الهائلة من الحبوب » (43) .

ان الوضع ـ في الربع الاخير من القرن الثامن عشر ومستهل القرن التاسع عشر ـ المحور الزمني لهاته الالمامة ـ بين حكام البلدين ـ على نحو ما رأيته هو في مرتبة قصوى من السوء والتدهور والترصد ، على خلاف ما هو عليه بين المغرب وتونس . وبارز للعيان ما تتمتع به السلطنة العلوية من ركائز قويمة في الحكم ، كالتدين الواعي الهادف الى الغوث والحفاظ على الحرية والدفاع عن الحق ونبذ اطماع التوسع وطرح مناوشة الغير ، اذ همها احترام الجار ـ أيا كان ـ في سبيل نشر السلام وانعاش الرخاء واشاعة الطمانينة ومعاونة ديار الاسلام . كذلك ما اشتهر به ـ عن صدق ـ خلفاؤها ، ومنهم المولى سليمان ، من علم واسع اقترن بالعمل الصالح ، وركون مخلص الى سياسة جلب الاصدقاء ، وتلك سنة حميدة وضع اسسها السلطان محمد ـ والد السلطان سليمان : « فهذا الاهتمام من المولى محمد بن عبد الله بتمكين اواصر المحبة بينه وبين ملوك الاسلام هو من اعظم فضائله في نظرنا ، ولو لم يكن له منقبة الا هو لكفى . فان من المعلوم ان ملوك الاسلام لو جروا على هذه السنة المحمودة وراعوا هذا الواجب الاكيد لما وجد العدو ابد الدهر سبيلا الى استعبادهم والتحكم فيهم » (44) .

وفي الحسبان ان من ذلك الحرص تنظيم الملاحة تنظيما مركزا بكيفية تضمن « حماية الاشخاص وامتعة التجار » (45) ، كما وتطويرا للاسطول المغربي على عهد مولاي سليمان « مما جعله يؤدي مهمته على اكمل الوجوه » (46) . وفعلا كان من شواهد المدافعة الحامية خروج الرحلة التجارية التي يتزعمها الشيخ الرباحي ، من المغرب ، محمولة « على مراكب ترفع السنجق المغربي الى تونس ، حماية لها ، بسبب انعدام الامن في البحر المتوسط عندئذ » (47) .

وبالمقابل ، فالى جانب ما كان يبحث عنه الباي حمودة باشا من مراكز للتسلح وجلب مواد حربية خام ، لتشغيل مصنع المدافع الذي نشاه بالحفصية داخل تونس ، فانه معروف بهمته المتطلعة الى تركيز دولة تونسية متطورة ومستقلة ، لها ثقلها في حوض البحر المتوسط ، لذا لم يتوان في توثيق التقاليد

---

(43) سياسة حمودة باشا في تونس ـ د. رشاد الامام ، ص 300 .
(44) النبوغ المغربي ـ العلامة عبد الله كنون ، ج 1 ، ص 282 ، ط. 3 .
(45) الهدف الاسمى للمغرب : تحرير القدس ـ الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله ـ مجلة دعوة الحق . السنة 21 ، عدد 7 .
(46) نفس المرجع السابق .
(47) الاتحاف ، لابن ابي الضياف ، ج 3 ، ص 39 .

الديبلوماسية المثلى بينه وبين الملوك على دعائم الاحترام المتبادل ، والسيادة الوطنية ، والشرعية ؛ وقد لقي ضالته لدى الاخوة المغاربة الذين اقتبلوا سفارة شيخنا ابراهيم بكل دعم .

ولا بد هنا ــ لتبيان الوشائج الوجدانية والذهنية بين الشعبين ــ من وقفة ، لاستجلاء حيثيات علة انتقاء الشيخ الرياحي ، دون سواه من الساسة والعلماء ، على راس هذه السرية . !

1 ــ من نافلة القول ، التذكير بكفاءة السفير ابراهيم الرياحي ، الثقافية ، فهذا شهير لدى المتعلمين ، وقد تقدم التلميح الى بعض ذلك ؛ وفي اعتقادي ان الباي حمودة احسن الاختيار واصاب ، ما دام المفاوض الثاني ــ المولى سليمان ــ من اجلة العارفين .

2 ــ النزعة الصوفية التجانية في الرياحي ــ على نحو ما مر ــ والمامه بالحركة العلمية بالمغرب عن طريق استاذه السابق الذكر عمر المحجوب ، او عن طريق شيخه وصديقه محمد الفاسي ــ اللاحق خبره ــ او بواسطة غيرهما من اهل التصوف والمعرفة والتجارة الواردين من المغرب الاقصى ، مثل الفقيه التاجر حسونة القصري المار ذكره ، فقد كان لهذا « محل بالربع في تونس ، لوضع سلعه على اختلافها ، فكان ياتي الى جامع الزيتونة صباحا ، ويقرىء درسين احتسابا ... ورغب الطالبون في دروسه ، وانتفعوا بعلومه ... » (48) او عن طريق الدارسين العائدين من فاس ...

3 ــ ميله الى الرحلة منذ الصغر ، وجنوحه الى الطموح ، فقد صح انه ابتغى الهجرة في مقتبل عمره ، وعزم عليها ، فاوثقه الوزير يوسف صاحب الطابع باعاناته ــ ماليا ــ على توفير مسكن والتزوج (49) .. وهنا افترض ان يكون هذا الوزير ــ ومثله الشيخ عمر المحجوب ــ قد خدماه لدى الباي ــ بما لهما عنده من حظوة ودالة ــ في شان قيادة السفارة هاته ، خاصة وهما المطلعان على حقيقة هذا الشاب (50) الشاعر العريض الآمال ، المعجبان بمؤهلاته وعبقريته .

لا شك ان العناصر هاتيك ، وغيرها ، تكامنت لتكليف العالم ابراهيم رسولا ديبلوماسيا وتجاريا وثقافيا الى المملكة العلوية ... فورد انجازه لما كلف به حلقة ناصعة من سلسلة حلقات الارتباط والتكامل بين ذوي القربى ... وليس عجبا ، والحال هاته ، على ما هي عليه من ترافق ، وتكاتف بناء ، ان يتقاطر ــ من والي البلدين ــ الطلاب وفطاحل العلماء ــ والفكر لا يعترف بالحدود ــ على عاصمتي العلم بالمغرب العربي لهذا المهد : تونس (51) وفاس (52). فلقد سبق ان اشرت الى حلول الشيخ الجليل العالم ابو عبد الله محمد الفاسي ــ من فاس ــ اواخر القرن الثامن عشر ، يحثه الطموح والمغامرة من اجل التبحر في العلم وبثه في الآفاق .

وعن نسبه ، تسكت كتب التراجم التي امكنني الوقوف عليها ، غير انه اقبل وقد اشرف على الثلاثين

---

(48) الاتحاف ، لابن أبي الضياف ، ج 7 ، ص 21 .

(49) نفس المرجع السابق ، ص 74 .

(50) خرج الشيخ ابراهيم الرياحي الى المغرب قبل أن يبلغ الاربعين ، حيث انه ولد عام 1180 هـ والسفارة عام 1218 هـ .

(51) تونس : ترشيش قديما ، قرية تابعة لقرطاجنة التي هدمها الفاتح حسان بن النعمان عام 77–78هـ فانتقل سكانها الى تونس ، وبهذا تحولت الى مدينة ثانية بعد القيروان . وعند الزحفة الهلالية اواسط القرن الخامس الهجري حكمها بنو خراسان التابعون لبني حماد الصنهاجيين من 488 هـ ــ 1095 م وعام 555 هـ جعلها عبد المومن بن علي عاصمة ولاته عليها ، ومن بعدهم الحفصيون (603 هـ / 1207 م ــ 981 هـ / 1573 م) والى اليوم وهي عاصمة البلاد .

(52) فاس : اسسها مولاي ادريس بن عبد الله سنة 789 م ، استولى عليها مولاي الرشيد عام 1666 م وبنى بها مدرسة الشراطين لسكنى الطلبة (الرشيدية الآن) ومن يوم تأسيس جامع القرويين من طرف ام البنين فاطمة بنت الفقيه القيرواني محمد بن عبد الله الفهري سنة 245 هـ ــ 859 م وفاس تمثل مركزا علميا مرموقا . ومن آثارها : مدرسة العطارين من بناء أبي سعيد عثمان ما بين عامي 723 و 747 هـ ــ المدرسة المتوكلية (البوعنانية) عام 756 هـ ...

من عمره (53) ، ليستوطن تونس بعد ان « اخذ عن علماء فاس » (54) ، ومن ثمة عدة علماء الزيتونة (55)، « علامة محصلا على درجة عليا في تحقيق العلوم الشرعية والادبية » (56) .

اما متى حل بتونس ، فالثابت انه قدمها قبل عام 1199 هـ ـ 1784 م (57) أي في العقد الاخير من القرن الثاني عشر الهجري ، ذاك الذي ظهرت فيه اوبئة ماحقة ، سبق منها وباءان مقدم هذا العالم الفاسي ، وقد أفنيا الكثير من اقتصاد الوطن ، كما والعديد من رجال المعرفة . وربما جاء هذا النقصان الفادح في المربين من الاسباب المباشرة لاستقدام العارفين ومنهم عالمنا محمد الفاسي ؛ لم لا وقد « مات أكثر أهل الخير والصلاح وحملة القرءان العظيم واكثر الفقهاء والعلماء ... » (58) .

وازاء كل ذلك ، ورغمه ، لقي الدارسون والمدرسون كل دعم واجلال من أمير البلاد علي باشا (59) : « من الجرايات والاوقاف لاهل العلم بحضرته ، فكثر طالبه فيها ، وارتحل اليها الناس في طلبه من الآفاق ، ونفقت به اسواقه ، وزخرت بحاره ... » (60) .

وعلى هذا ، لا سبيل للشك في تقديم أهل العلم في تونس لسمعة صاحبنا الذائعة ، بل هم ابتهجوا به أيما ابتهاج ، فهو « من أفراد بيت الفاسي، الطائر الصيت ، المعروف بالعلم والفضل ، ساقته المقادير ومن الله به على هذه الحاضرة » (61) . وتمكنت الرابطة الزكية بينه وبين احد كبار علماء الحاضرة واعيانها منذ وصوله الى هذا البلد ، لذا فقد « اغتبط به الشيخ المفتي ابو عبد الله محمد بن حسين البارودي (62) ، وانزله بداره على بساط اجلال وتعظيم ، وضمه ضم الكمي لسيفه ، وضم اليه ابناءه يفيدهم العلم ، ويستفيد الشيخ بمسامرته ... » (63)

---

(53) انظر شجرة النور الزكية في طبقات المالكية . محمد مخلوف . ج 1 ، ص 380 .

(54) انظر شجرة النور الزكية في طبقات المالكية . محمد مخلوف . ج 1 ، ص 380 .

(55) جامع الزيتونة: اسسه الفاتح حسان بن النعمان اواخر القرن الاول الهجري ، بناه القائد عبيد الله ابن الحبحاب سنة 141 هـ ووسعه زيادة الله بن الاغلب سنة 250 هـ ، بني صومعته الحالية علي باشا عام 1312 هـ ـ 1894 م . وكجامعة علمية ابتداء من 116 هـ ـ 734 م (على الامر الذي ركزه علي بن زياد ، فانه صاحب مدرسة تونس واليه يرجع الفضل في تأسيسها ـ الشيخ محمد الشاذلي النيفر : الجامعات الباقية ، مجلة الهداية ع. 2 و 3 س 7) . وتواصل التسلسل التعليمي الى أوائل القرن الثاني عشر الهجري لتدخل الجامعة الزيتونية فى طور التنظيم الذي تطور المرار الى ان اتى قانون توحيد التعليم التونسي واصلاحه في اخريات العقد الاول من النصف الثاني من القرن العشرين ، لتؤسس الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين مختصة بالدراسات العالية ، خارج الجامع الاعظم ، حسب الامر الصادر في أول مارس 1961 م .

(56ـ57) شجرة النور الزكية ، ج 1 ، ص 380 .

(58) نزهة الانظار في عجائب التواريخ والاخبار . (مخطوط) ج 2 ص 80 لمحمود مقديس الصفاقسي (ت 1813) نقلا عن : سياسة حمودة باشا في تونس ، ص 330 .

(59) علي باشا : تولى من عام 1759 م الى عام 1782 م . اعتنى بعمران البلاد وحسن العلائق مع فرنسا خاصة ، لشيخوخته أشرك ابنه وولي عهده حمودة في الحكم ابتداء من سنة 1777 م .

(60) التاريخ الباشي ، لحمودة بن عبد العزيز (ت 1787 م) (مخطوط) ص 502 ـ نقلا عن : سياسة حمودة باشا في تونس ، ص 330 .

(61) الاتحاف ، لابن أبي الضياف . ج 7 ، ص 102

(62) المفتي محمد بن حسين البارودي من بيت علم وفضل ، اخذ عن كثيرين منهم الشيخ صالح الكواش ، درس بالشماعية ، صاهره الباي حمودة باشا على بنته . توفي سنة 1216 هـ ـ 1801 م .

(63) الاتحاف ، لابن أبي الضياف ، ج 7 ، ص 102

وتوثقت الاواصر بتزويج الشيخ الفاسي من احدى قريبات البارودي ، غير انه لم يخلف منها عقبا ، حيث مات ابنه الوحيد منها صغيرا (64) .

واول عمل تثقيفي جماهيري اداه شيخنا الفاسي ، هو التدريس بالجامع المعمور : جامع الزيتونة . هذا وبعد تعيينه مدرسا – مع ازجاء الراتب – بمدرسة جامع (65) الوزير يوسف صاحب الطابع – ثاني المعاهد العلمية مكانة بتونس – من طرف المشيد المذكور : اعظم برهان على علو مقامه ، في الميدان التعليمي ، وابلغ تشريف لهذا الفاضل المحقق – بتعبير ابن ابي الضياف – الذي تصدر : « أول المدرسين به ... ابتدا به (التفسير) للقاضي البيضاوي (66) ، وشرح السعد (للعقائد النسفية) (67) ... » (68) .

وهو – الى جانب تناوله علوم الشريعة والادب– كان يدرس العلوم « العقلية كالمساحة والهندسة والفلك وغيرها » (69) . ومن اجل هذا ، صنف الباحث الجامعي الدكتور رشاد الامام : المدرس محمد الفاسي ، على راس العلماء المحاولين استحداث طرق تعليمية ومواد حديثة في التعليم بمراكز العلم في تونس على عهد الباي حمودة باشا (70) . ولاجل ذلك تهافت الناهلون على درسه ، وعلا كعبه ، واشع علمه ، ف « صقل الافكار ، ودرب الانظار » (71) بما ابداه من قدرة فائقة على التبليغ ، ومهارة ذكية في التوصيل ، وبما خرج عليه نفسه من عمد الوقار وركائز التجمل المعنوي والمادي ، ولا غرابة اذن ان وجدته « آية الله في العفاف والصبر والحلم ، وقور المجلس ، مهيبا على تواضعه ، منصفا فصيح اللسان ... بديع المحاضرة ، حدث عن البحر ولا حرج » (72) .

وتلك شهادة معاصر له ، عارف بقدر ذوي الفضل ، يحكي عنه كذلك ، فيقول بتأثر واكبار ، اثر عيادته في مرضه الاخير ، صحبة والده الحاج بالضياف (ت 1254 هـ – 1838 م) ، قال : « يا سيدي – يخاطب الشيخ محمد الفاسي – ان ابني هذا ، نريد أن نطعمه (البلاذر) « نبات بالمغرب يستعملونه للحفظ ، فساله عن كيفية الاستعمال » فقال : « لا تفعل ، لما فيه من الخطر » ثم التفت الي وقال لي : « يا ابني ، اياك ان تفعل ذلك ، فان ابن عرفة (73) سئل عن البلاذر ، فقال هو الاجتهاد

(64) نفس المرجع السابق .

(65) جامع صاحب الطابع : انشاه يحيى الحلفاوين بتونس والمدرسة والحمام والزاوية : الوزير يوسف صاحب الطابع ، دشن عام 1229 هـ – 1874 م اشهر مدرسيه الشيخان : محمد الفاسي وابراهيم الرياحي .

(66) الامام عبد الله بن عمر البيضاوي : مفسر ، قاض ، اصولي ، متكلم ، له : « انوار التنزيل ، واسرار التاويل » توفي 685 هـ – 1286 م .

(67) العقائد النسفية : كتاب في علم الكلام (التوحيد) الفه نجم الدين محمد النسفي السمرقندي ، الفقيه ، المفسر ، المحدث والمتكلم . ولد سنة 461 هـ – 1069 م وتوفي سنة 537 هـ – 1142 م .

(68) الاتحاف ، لابن ابي الضياف ، ج 7 ، ص 91 .

(69) الاتحاف ، لابن ابي الضياف ، ج 7 ، ص 102.

(70) انظر : سياسة حمودة باشا في تونس ، ص 335 ، د. رشاد الامام .

(71) الاتحاف ، لابن ابي الضياف ، ج 7 ، ص 102

(72) نفس المرجع السابق .

(73) الامام محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي : مجد المائة الثامنة . ولد بتونس في 27 رجب 716 هـ – 1316 م . درس بالزيتونة عن القاضي محمد بن عبد السلام (ت 749 هـ – 1348 م) وعن غيره ، امام الجامع الاعظم والمدرس به وبالمدرسة التوفيقية ، والمفتي . خلف تفسيرا بكتابة تلميذه الابي وهو مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم : 10110 . كما خلف (المختصر في المنطق) وقد حققه اخيرا الاستاذ سعد غراب ، ونشرته الجامعة التونسية بعنوان : رسالتان في المنطق ... كما ترك (الحدود الفقهية) طبع بتونس عام 1350 هـ بشرح الرصاع (ت 894 هـ) . زامل المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون في الدراسة بالزيتونة . توفي في 803 هـ / 1400 – 1401 م .

والتناظر » ... ثم وضع يده على راسي ، ودعا لي ، بما ارجو من الله قبوله » (74) .

يكشف هذا النص ، عن طريقة المربي الفاسي ـ رحمه الله تعالى ـ في التربية والتعليم ، تلك التي لا تعتمد كلية على الحفظ والتلقين ، انما تقـوم على الاعتماد على النفوس والمشاركة الحيـة في النقاش وتحريك العقل ، والمساهمة التلقائية ... وهو في هذا ، يلتقي مع الامام ابن عرفة في طريقته المستجدة بالزيتونـــــة .

ويوم وفاته ، غفر الله له ، عصر الثلاثاء ، الثاني من ربيع الثاني سنة 1232 هـ ـ 18 فبراير 1817 م عن سن تقارب السبعين ـ هب العلماء والادباء الى موكب جنازته يتقدمهم تلاميذه : ـ الشيخ أحمد بن المفتي محمد البارودي (75) ـ والشيخ ابو اسحق ابراهيم الرياحي الذي ابنه بمرثية دامعة (76) ومثله في ذلك الشيخ محمد الخضار (77 .

هذا ولم تذكر للشيخ محمد الفاسي مؤلفـات مكتوبـــــة .

ومن عرصات جامع الزيتونة ، حث الطالـب محمد بن سليمان المناعي ، المسير ، باتجاه المعمورة فاس ، قصد الاستزادة من المعرفة ، بعد التلقي من امثال المربي الفاضل ابراهيم الرياحي ، والشيـخ الجليل الكواش (78) والشيخ العلامــة اسماعيـل التميمي (79) . وبلغها أواخر القـرن الثامن عشر ، اي قبل عام 1794 م ، اذ في هاته السنـة توفـي شيخه التاودي ، فواظب على حلقات التدريس التي ينشطها الشيوخ : عبد السلام اليازامي (80) والتاودي ابن سودة (81) واحمد التجاني (82) ... أورد ابن ابي الضياف في تقييده هاته الاحدوثة : « سمعـت منه (اي من المناعي) رحمه الله انه كان يأتي زاوية هذا الولي بفاس ، كل يوم جمعة ، لاجـل الطعـام ، فياتيه الشيخ بجيد الطعام ، ويقـول له : « كـل يا تلميذي » فيقول له : « انا تلميذ الكسكسو لاجله اتيت » فيقول له : « أنت تلميذي حقيقة » وبعد برهة من الزمان وجد في نفسه ما لا قدرة له على دفعـه ، من الجذب الروحاني الى الطريقة ، فأتى الشيخ فـي غير يوم جمعة ، ولما رآه قادما اليه ، قال له : « الم اقل لك انك تلميذي حقيقـة » فاخـذ عنـه ودعا لـــه » (83) .

وعاد الطالب المناعي بعد أن « امتلا بالعلم وقره، وسبق الى هذه الحاضره ذكره » (84) . عاد مدرسا بالجامع الاعظم ، فلمع نجمه لارتوائه من شرح استاذه التاودي على (العاصمية) للقاضي أبي بكـر ابـن

(74) الاتحاف لابن ابي الضياف ، ج 7 ، ص 103 .
(75) ابو العباس احمد بن المفتي محمد بن المفتي الحاج حسين البارودي : فقيه ، نحـوي ، امـام وخطيب منبر ، مجود للقرءان . توفي 1273 هـ ـ 1856 م .
(76) في دراسة خاصة سأتناول مراثي الشيخ الفاسي ، بعـون اللـه .
(77) الشيخ محمد بن محمد الخضار : مدرس بـالجامع الاعظم ، قاض ، مفت ، شاعر ، توفـي عـام 1267 هـ ـ 1851 م .
(78) الشيخ صالح الكواش : عالم نصوح ، شيخ المدرسة المنتصرية . توفي 1218 هـ ـ 1804 م .
(79) الشيخ اسماعيل التميمي : حفظ القرءان بمنزل تميم ثم حل بالعاصمة فاخذ عن المدرس صالـح الكواش ، والمدرس عمر المحجوب ، وعن غيرهما . أستاذ بالزيتونة ، قاض ، مفت . توفـي فـي 1248 هـ ـ 1832 م .
(80) الشيخ اليزامي : لعله ابو عبد الله محمد بن عبد السلام بن ابي زيد اليازامي ، الفقيه ، المتصوف، والمتوفى في شعبان 1241 هـ ـ 1826 م .
(81) الشيخ التاودي ابن سودة : امام القـرن الثاني عشر الهجري . مفسـر ، محدث ، فقيه ، اصولي ، متصوف ، متكلم . درس بالحرمين ومصر وفاس . له تآليف كثيرة منها : شرح التحفة لابن عاصم، وحاشية على البخاري في أربعة أجـزاء . توفي 1209 هـ ـ 1794 م ، وقد جاوز التسعين مـن العمـــر .
(82) انظـر الهـــامش عـدد 34 .
(83 ـ 84) الاتحاف ، لابن ابي الضياف ، ج 7 ص 165 .

عاصم (85) ولجده في التعريف به لـدى الطلبـة الزيتونيين والاساتذة ، فهو اول من ادخل هذا الشرح الفقهي الى تونس ، ومن يومها « اصبح التاودي على العاصمية اساسا من أسس التخريج الفقهي بتونس في مناهج الدراسة الزيتونية » (86) وذلك لفتـرة زمنية امتدت اكثر من قرن . وبقي هـذا العلامـة الكاتب (87) الفقيه الاصولي الاديب على نشاطـه : التعليمي كأستاذ مثالي — والاجتماعي كعدل موثق — والاداري كمشرف رئيسي على مصنـع المدافـع بالحفصية وعلى المؤسسة التعليمية والدينية بجامع صاحب الطابع ، وككاتب للباي حسين (88) .. بقـي على هذا الى ان توفاه الله تعالى عـام 1247 هـ — 1831 م .

ومن الوافدين من المغرب الى تونس ، المستقرين بها : ابو عبد الله محمد الشرقي . ذكر المؤرخ ابـن ابي الضياف أن الوزير — السفير — محمد خوجة(89) جعله كاتبه بميناء حلق الوادي ، على بحيرة تـونس العاصمة ، كما اختاره معلم ابنائه ومربيهم (90) . وهو العارف بالحساب حيث دعي ليراس موظفي (بيـت الحسبان — ادارة المالية) لدى الباي ، فعمل بهـا مدة ليعود الى وظيفه الاول .

انتخبه المهاجرون المغاربة وكيلا لهم بتونس ، واتم حياته الطويلة في يسر ، فقد « اجرى عليه المشير ابو العباس احمد باي (91) جراية شهريـة » (92) . توفي سنة 1282 هـ — 1866 م . تاركا أبناء بعده .

وكما مر ، تعود اهليته الى مهارته في فن الادارة والتسيير ومسك الحسابات ، ويؤكد هذا الاستنتاج تنازع الوزيرين محمد خوجة ومحمد العربي زروق(93) عليه ، فكل واحد منهما يلح في توظيفه بادارته (94) .

وعلى هذا النسق المنمش ، استرسل حبـل الود ، وانقدح زناد التلاقح الحضاري ، فتجـذرت الصلة بين البلدين ، وامتدت فروعها وافنانها ، ومن ذلك : تبادل الرسائل على عهد المشير احمد بـاي الذي كلف كاتبه احمد ابن ابي الضيـاف بامـداد السلطنة العلوية برسالة « على سنن آله من محبة آل البيت » (95) معلما ملكها بموت باي تونس وتوليـه هو ، كتب الوزير قائلا : « المقام الذي نتسلى عـن المفقود بوجوده ، ونتاسى بالاشراف آبائه وجدوده ، مقام الملك المطاع ، الساري ذكره في البقـاع ... وبماذا ينطق اللسان ويعرب عن محاسن مقام والدنـا مولانا عبد الرحمان (96) سلطان المغرب ... اما بعد

(85) القاضي ابو بكر ابن عاصم : بغرناطة ولد عـام 760 هـ وبهـا توفـي سنة 829 هـ — 1426 م . قاض مالكي . له « تحفة الحكام في نكت العقود والاحكام » . وهي ارجوزة تشتمل على 1668 بيتا في فقه القضاء . وقد اشتهرت بالعاصمية أو التحفة . اعتنى بشرحها كثيرون ، خاصة القرويون بفاس في القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر . ومنها استمد المشرعون في العصر الحديـث .

(86) اعلام الفكر الاسلامي في تاريخ المغرب العربي . المرحوم الشيخ محمد فاضل ابن عاشور ص91 .

(87) له كنش مخطوط بدار الكتب الوطنيـة بتونس تحت عـدد : 16589 .

(88) الباي حسين : حكم من 1239 هـ — 1824 م الى 1251 هـ — 1835 م .

(89) الوزير محمد خوجة : عمـل على راس ادارة بنزرت (كاهية) ثم امين الترسخانة بحلق الوادي ، ثم سفيرا الى بريطانيا ، ثم الى فرنسا . تـوفي بتونس في 1262 هـ — 1846 م .

(90) الاتحاف ، لابن ابي الضياف ، ج 8 ، ص 141

(91) المشير احمد باي : بويع عام 1253 هـ — 1837 م وتوفي عام 1271 هـ — 1855 م . من مفاخره: — ترتيبه المدرسة الحربية بباردو — تنظيمه الدراسة بالزيتونة — أمره بعتـق المماليـك عـام 1262 هـ — 1846 م .

(92) الاتحاف ، لابن ابي الضياف ، ج 8 ، ص 141

(93) الوزير محمد العربي زروق : اعتمده الباي في الاشراف على أصلاح القلاع وتجهيزها ، ثم تولى خطـة خزندار . توفي عام 1822 م .

(94) انظر : الاتحاف ، لابن ابي الضياف ، ج 8 ص 141 .

(95) الاتحاف ، لابن ابي الضياف ، ج 4 ، ص 13 .

(96) السلطان عبد الرحمن بن هشام : ولد سنة 1778 م وتوفي سنة 1859 م . كان مـن مناصـري الامير عبد القادر الجزائري في كفاحه .

سلام تهب بساحتكم نواسمه ... فالمنبي الى حضرتكم الشريفة ، ولكم طول العمر ودوام الامر ان والدنا سيدي مصطفى باشا باي (97) صار الى عفو الله عاشر هذا الشهر (المحرم 1253 هـ ــ 10 اكتوبر 1837) ... والمبادرة لاعلامكم فرض اكيد ، وقصد حميد ، اذ الوداد بيننا تالق نوره ، وثبت في صحف الخلوص مسطوره ... وكتب في رجب سنة 1253 » (98) .

حوت الرسالة ــ على كلفها بالمحسنات اللفظية ــ بثا للشكوى والالم ، من فقد الامير الراحل، الى صديق أعز .. وهل ترسل الآهات لبعيد أو صاحب جفوة ؟

كما حوت ذكر المناقب الراحل كتابين وبيان لاثر سياسته المأسوف على قيمها ؛ ويظهر ان الاسراع بارسال هاته المعلومات يهدف الى تجديد سياسة الاخوة والود وحسن الجوار ، والى تعريف بخطة الباي الجديد تلك التي ستسير على نهج السلف من المحافظة على وحدة الصف والسهر على المصالح العامة والاستعانة بالاخوة المغاربة (99) .

ولقد اجاب الشريف عبد الرحمان مواسيا معزيا مهنئا وناصحا مؤازرا ، في آن . باسلوب فيه من بهاء التخلص ، وحذلقة الاعراف الديبلوماسية الشيء الكثير . قال رحمه الله تعالى : « من عبد الله تعالى المتوكل عليه المعتصم بالله أمير المؤمنين الشريف العلوي الحسني ايده الله ونصره ، الى المقام الذي تتضاءل بوجوده الارزاء ، وتحصل بسلامة كماله الكفاية والاجزاء ، وتؤذن بتهنئته الرؤساء ، وان اصابها بفقد والده الباساء ، وتعم بطلعته البشرى حل التأساء ، مقام محل ولدنا الشاب الانجب الارشد، وبيت القصيد الذي يحفظ وينشد ، من قلدته الرئاسة عقدها ، واعطته السياسة عهدها ، طالع الامن ، ومقر قواعد البركة واليمن ، صاحب الاوصاف الزكية والنهج الاحمد ، الباشا الاجل السيد أحمد ، ابقاك الله محييا للمراسم ، متنسما من رياح النصر اعطر النواسم ، مشيدا لدعائم الدين ، مقتديا بالايمة المهتدين ... »

ومما كتبه في رسالته : « ... وصلنا كتابكم بخبر الحادث الذي روع السرب ، والخطب الذي كدر الشرب ، وهو خبر وفاة والدكم المبرور ، صاحب السعي المشكور ، والثناء الطيب المذكور ، والفضل المشهود المشهور . فانا لله وانا اليه راجعون ، تقبلا لسن الشريعة ، وتوجعا للرزية الفظيعة . فيا له من فقيد شكت فقده العلياء ، وبكته الخاصة والدهماء ، ورد الحوض ، الذي لا بد من وروده :

ولو أن حيا خالد لجلاله
لهنئت من بين الورى بخلوده

ولكن الله سبحانه وتعالى تدارك مصابه بولايتك، ونسخ آيته باحكام آيتك ... » .

وختم رسالته الملكية قائلا : « ... ولقد اخذنا من التوجع للرزية ، والابتهاج بما خولتم من الهبة السنية ، ما يأخذ حبيب من مساهمة الاحباب ، ويقاسم فيما يعرض العوارض والاسباب ، اذ المحبة بين الدولتين صحيحة المتون عالية الاسناد ، والمودة بيت الايالتين مرفوعة الاحاديث عن الآباء والاجداد ... » (100)

فبهذه اللقطات ، ندرك غور وتضاوة أواصر التواصل والالتحام بين الفكر العربي الاسلامي في المغرب وتونس ، كما نفقه عمق التمازج بين الشعبين والتلاقح ، عنصرا ووجدانا . وينسحب ذلك ، كما اسلفت ، على واجهة أرحب مكانا وزمانا .. انما عمدت تذكير شبابنا كي يستقي العبر ، ويزكي الآفاق ، فيعلي الهمم ويعقد العزم على المثابرة في المنهاج ــ برؤية مستقبلية ابين واقوم ــ نحو بناء مغربنا الكبير ، على أصول الدين الحنيف والعلم اليقين والتعامل المكين .

مساكن ــ مصطفى بوهلال

(97) الباشا مصطفى باي : بويع عام 1251 هـ ــ 1835 م وتوفي 1253 هـ ــ 1837 م .
(98 ــ 99) الاتحاف ، لابن ابي الضياف ، ج 4 ، ص 13 ــ 14 .
(100) انظر : الاتحاف ، لابن أبي الضياف ، ج 4 ، ص 15 ــ 16 .

المصادر والمراجع

أ) الكتـــب :

1) ابن ابي الضياف (احمد) [ت 1874 م] :
اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان . 8 اجزاء . تحقيق لجنة كتابة الدولة للشؤون الثقافية والارشاد. تونس ، المطبعة الرسمية 1963 – 1964

2) الامـــام (رشـــاد) :
سياسة حمودة باشا في تونس 1782 – 1814 . جزء واحد . منشورات الجامعة التونسية 1980 . طبع الشركة التونسية لفنون الرسم . تـونس .

3) مخلـوف (محمد بن محمد) [ت 1945] :
شجرة النور الزكية في طبقات المالكية . جزءان في مجلد واحـد ، الناشر : دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

4) كنـون (عبـد اللـه) :
النبوغ المغربي في الادب العربي . ثلاثة اجزاء في مجلد واحد . الطبعة الثالثة 1975 . نشر دار الكتاب اللبناني .

5) القـزي (الهـادي حمـودة) :
الادب التونسي في العهد الحسيني . جزء واحد . نشر الدار التونسية للنشر سنـة 1972 .

6) مجموعـة مـن المؤلفيـن :
فصول في تاريخ تونس (كتاب مدرسي) . اشراف كتابة الدولة للتربية القوميـة ، الديوان التربوي . نشر الشركة التونسية للتوزيـع . تونس .

7) ابن عاشور (محمد الفاضل) [ت 1970] :
اعلام الفكر الاسلامي في تاريخ المغـرب العربي . جزء واحد . طبع ونشر مكتبة النجاح . تونس . بلا تاريخ .

ب) المجـلات :

1) النـدوة :
السنة الرابعة . العدد السابع . اكتوبر 1956 . تونـس = سيد الاطلس يـزور تونس – ص 49 « الندوة » .

2) النـدوة :
السنة الخامسة . العـددان : 1 – 2 . يناير – فبراير 1957 = جلالـة محمد الخامس سادس سلاطين المغرب الذين دخلـوا تـونس . « زيـن العابديـن السنـوسي » ، ص 82 .

3) الاذاعـة :
السنـة السابعـة . العـدد : 159 . تونـس = لقاء من اجل الوحدة « محمـد المحرزي » ص 33 – ايمـان مشتـرك بوحدة الاتجاه والمصير « محمد دمق ». ص 54 .

4) دعـوة الحـق :
السنة الواحدة والعشرون . العـدد 1 ، ربيع الثاني 1400 – مارس 1980 .

أوليات

للأستاذ محمد العرائشي

الدولة المرابطية

اول من جمع المرابطين وبث فيهم روح المقاومة :

ورد في وفيات الاعيان لابن خلكان ، في ترجمة يوسف بن تاشفين (1) ما ياتي :

وفي هذه الترجمة ذكر الملثمين – المرابطين – فيحتاج الى الكلام عليه ، والذي وجدته ان اصل هؤلاء القوم من حمير بن سبا وهم أصحاب خيل وابل وشاة ، يسكنون الصحاري الجنوبية ، وينتقلون من ماء الى ماء كالعرب ، وبيوتهم من الشعر والوبر .

واول من جمعهم وحرضهم على القتال ، واطمعهم في تملك البلاد : عبد الله بن ياسين الفقيه . وقتل في حرب جرت مع بورغواطة (2) وقام مقامه ابو بكر ابن عمر الصنهاجي الصحراوي .

اول اعمال الامير ابي بكـــر :

ذكر ابن ابي زرع في روض القرطـــاس (3) ان اول ما فعله ابو بكر بن عمر الصنهاجي (4) بعــد وفاة عبد الله بن ياسين ، ان اخذ في دفن عبد الله بـــن ياسين ، فلما فرغ من دفنه عبأ جيوشه وقصـــد الى قتال برغواطة مصمما في حربه ، متوكـلا على اللـــه تعالى في جميع اموره ، فاستأصل برغواطة ، حتـــى فروا بين يديه ، وهو في اثرهم يقتل ويسبي ، حتـــى اثخن فيهم ، وتفرقت برغواطة في الصحاري . واذعنوا له بالطاعة ، واسلموا اسلاما جديدا .

اول من سمي امير المسلمين بالمغرب :

ابو يعقوب يوسف بن تاشفين ، امير المسلمين ، ناصر الدين ، (5) زعيم الدولة المرابطية الـذي شاد ملكها بعد ان وضع اسسه الاولى عبد الله بن ياسين هو اول من تسمى بأمير المسلمين من ملوك المغرب ،

---

(1) ج 2 ص 372 . ط. الميمنيـــة .

(2) استشهد يوم الاحد 24 جمادى الاولى عام (451 هـ) ودفن بكريفلة بزعير (حوز الرباط) .

(3) ج 2 ص 31 ط. الوطنية بالرباط . تحقيق الاستاذ محمد الهاشمي الفلالي .

(4) استشهد في بعض غزواته في شهر شعبـان سنـــــة (480 هـ) .

(5) ولد سنة (400 هـ) ببـــلاد الصحراء . وبويع سنة (453 هـ) وتوفي سنة (500 هـ) بقصره بمــــراكش .

وذلك عقب انتصاره في وقعة الزلاقة (6) حسبما ورد في المصدرين اعلاه . وقد أيد هـذه الروايـة ابن الخطيب في الاحاطة ، حيث قال في ترجمة يوسف : تسمى بأمير المسلمين لما احتل الانـدلس واوقـع بالروم ، وكان قبل يدعى الامير يوسف .

اول قوة ليوسف عبرت البحر لنجدة الاندلس :

بعد ما اشتد ضغط ملك قشتالة : (ألفـونسو السادس) على ملوك الطوائف بالاندلس حيث كتب بعد استيلائه على طليطلة الى بعض ملوكهم منهم تسليم بلادهم ، صار أمراء الاندلس ورؤسائهم يستصرخون بيوسف ، ويكتبون اليه طالبين منه الغوث والنجدة ، عند ذلك قرر يوسف ان يلبي صريخ اهل الانـدلس ، ويعبر البحر لنجدتهم .

فكان اول عبور عبرته قوة فرسانـه الى ثغـر الجزيرة الخضراء برئاسة قائده البربري ابي سليمان داوود بن عائشة في منتصف ربيع الاول سنة (479هـ) وكان ابن عائشة هذا مثلا اعلا في الحزم والنجدة .

اول من لبى دعوة يوسف للجهاد :

بعد ما عبر يوسف البحر ووصل الى اشبيليـة هو وقوته ، كتب الى سائر ملوك الطوائف ، يدعوهـم الى اللحاق به ، والمشاركة في الجهاد في سبيل الله.

وكان أول من لبى دعوته منهم ، هو عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، واخوه تميم ، صاحب مالقة ، واعتذر المعتصم صاحب المرية بضعفه وكبر سنه ، وبعث ولده معز الدولة في فرقة من جنده .

اول من ضم الاندلس الى المغرب :

يوسف هذا هو اول من ضم الاندلس الى المملكة المغربية ، ولذلك كان يقـال له : ملـك المغـرب والانـدلس .

اول من اختط مدينة مـراكش :

ذكر صاحب (الاستبصار ، في عجائب الامصار) ان يوسف بن تاشفين هو الذي اسس مدينة مراكش سنة (459 هـ) (7) وذكر ابن خلدون في تاريخه ، ان يوسف بناها لنزول عسكره ، وللتمـرس بقبائـل المصامدة المقيمة بمواطنهم منها في جبل درن ، اذ لم يكن في قبائل المغرب اشد منهم قـوة ولا اكثـر جمعـا (8) .

اول بناء مرابطـي بمـراكش :

واول بناء بناه يوسف بمراكش لما اختطها وجعلها قاعدة ملكه هو دار لسكنى حرمه ، ثم بعد ذلك بنـى بها القصور الضخمة والمساكن الفخمة .

اول من بايع علي بن يوسف :

لما توفي يوسف بن تاشفين ، عقدت البيعـة لولده علي (9) بمدينة مراكش يوم وفاته ، وتسمـى بامير المسلمين .

واول من بايعه اخوه ابو الطاهر تميم بن يوسف الذي عينه فيما بعد قائدا أعلى لجيوش المرابطيـن فيما وراء البحر ثم بايعه جميع من حضر من لمتونـة وسائر قبائل صنهاجة ، وكذلـك الفقهـاء واشياخ القبائـل .

اول من استخدم الروم بالمغرب :

الامير علي بن يوسف ، هو اول من استخـدم الروم في مصالح الدولة . فقـد ورد في (الحلـل الموشية) : وهو (علي) اول مـن استعمـل الروم بالمغرب ، واركبهم وقدمهم على جباية المغارم .

ومثله المؤرخ الالماني : يوسف اشباخ . فقـد جاء في كتابه : (تاريخ الاندلس في عصر المرابطين

(6) كانت هذه الوقعة يوم الجمعة 15 رجب (479 هـ) .
(7) تعددت الروايات في تاريخ بناء هذه المدينة .
(8) نقل هذين النصين المؤرخ الشهير العباس بن ابراهيم في ج 1 من تاريخه ص 57 و 83 . المطبعة الملكيـة بالربـاط .
(9) ابو الحسن ثاني ملوك المرابطين . ولد بسبتة سنة (477 هـ) وبويع بعد وفاة والـده بمراكش وعمره 23 سنة . وتوفي سنة (537 هـ) .

اختار حرسه الخاص من بين النصارى (11) .

أول بادرة للقضاء على الحكم المرابطي : :

في اواخر سنة (514 هـ) وقعت بمراكش اول بوادر الثورة الدينية التي اضطلع بها المهدي بن تومرت المرابطي ، وذلك عندما خاطب المهدي العلماء الذين انتدبهم الامير علي بن يوسف لمناظرته في مجلسه ، قائلا بعدما أطرى قاضي المرية (محمد بن أسود) الامير علي : انكم تضرونه بما تقولون عنه ، مع علمكم ان الحجة متوجهة عليه ، فهل بلغك يا قاضي ان الخمر تباع جهارا ، وتمشي الخنازير في احياء المسلمين ، وتوخذ أموال اليتامى ؟ وعدد أشياء كثيرة من مظاهر الفساد ، الشيء الذي لفت نظر الامير ، فذرفت عيناه بالدموع واطرق حياء .

أول ثورة علنية ضد الحكم المرابطي :

لما اشتغلت حكومة المرابطين بمحاولة قمع حركة المهدي بالمغرب ، ضعفت رقابتها على الاندلس ، فاضطربت الاحوال هناك ، وبالاخص عندما استبد الحكام المحليون بالحكم ، فثارت قرطبة من اجل ذلك . ولما حاول علي بن يوسف اخماد تلك الثورة ، واتجه بحشوده الى قرطبة سنة (515 هـ) اغلقت قرطبة دونه أبوابها .

الدولة الموحدية

أول قائم بدعوة الموحدين :

محمد المهدي بن تومرت (12) هو أول قائم بدعوة الموحدين ، ومنشيء دولتهم وأول امرائهم . ففي منتصف رمضان عام (515 هـ) اعلن دعوته بجبل – تينملل – (13) جنوب مراكش ، فدخل الناس في طاعته افواجا واتخذوا سنته شريعة ومنهاجا .

في آخر أيام المرابطين ، كان المهدي بن تومرت أنهى دراسته بالشرق (مصر وبغداد) ولما رجع الى المغرب ، تزعم حركة دينية ، ولقب نفسه بالمهدي المنتظر ، الذي يملأ الارض قسطا كما ملئت ظلما وجورا ، وصار يحارب ما فشا بالبلاد من مناكر ، والف جيشا من المصامدة للقضاء على المرابطين .

وقد وصفه ابن خلدون بانه بحر متفجر من العلم ، وشهاب واري من الدين . وقال عنه ابن ابي زرع في « القرطاس » : « كان المهدي أوحد عصره في علم الكلام وعلوم الاعتقاد ، حافظا للحديث والفقه ، له لسان وفصاحة » .

أول من بايعه :

عبد المومن بن علي الكومي تلميذ المهدي هو أول من بايعه ثم بقية أصحابه العشرة الذين سماهم بالمهاجرين الاولين ، وبالجماعة ، ثم بايعه كافة اهل تينملل ومن جاورهم بها من القبائل . وسمى كل من دخل في طاعته ، وتابعه على طريقته بالموحدين .

وهو أول من ضرب العملة المربعة :

جاء في كتاب « العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين » (14) نقلا عن « الدوحة المشتبكة » ان العملة الموحدية كانت الى ايام المامون مربعة الشكل حسبما امر بها المهدي بن تومرت الذي سن تربيع السكة لاول مرة . ثم جاء بعد هذا النقل وصف العملة بانها مربعة الشكل كتب في أحد وجهيها : (لا اله الا الله ، الامر كله لله ، لا قوة الا بالله) ، وفي الوجه الآخر : (الله ربنا ، محمد رسولنا ، المهدي امامنا) .

---

(10) ترجمة محمد بن عبد الله عنان .
(11) مجلة الثقافة المغربية . العدد 7 التعليقان : 11 و 12 على مقال : (التخطيط المعماري لمدينة مكناس عبر أربعة عصور) للاستاذ محمد المنوني .
(12) ولد المهدي سنة (485 هـ) وبويع سنة (515 هـ) وتوفي سنة (524 هـ) .
(13) حوض خصيب على وادي نفيس . طويل دقيق في شعبة الاطلس الكبير ج 1 من تاريخ المغرب . للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله ، ص 113 – 114 .
(14) للاستاذ محمد المنوني ص 161 .

وهو اول من امر بترديد هذه الجملة :

« اصبح ولله الحمد » عقب اذان الصبح . ذكره في الاستقصا (15) هكذا . « قالوا : : وهو اول من احدث أصبح ولله الحمد في اذان الصبح » . قلت : ولا يزال العمل جاريا بذلك الى غاية تاريخه بجل منارات مساجد مكناس .

أول من لقب بامير المومنين من ملوك المغرب :

عبد المومن بن علي الكومي (16) أعلم ملوك الموحدين واشجعهم هو اول من لقب بامير المومنين من ملوك المغرب ، وتبعه على ذلك بنوه من بعده وكان ذلك سنة (528 هـ) وقد ورد في تعليق لابني مؤلف الاستقصا عند تناول المؤلف الكلام على الموضوع (17) ما ياتي :

« وعبد المومن هذا اول من تسور على اللقب بامير المومنين من غير جنس العرب ، ولم يتجرأ احد من العجم قبله على هذه الدعوى » .

أول من بايعه :

ورد في (القرطاس) (18) ان أول من بايع عبد المومن اصحاب المهدي ، ثم الخمسون من اشياخ الموحدين ، ثم كافة الموحدين لم يتخلف عن بيعته أحد منهم .

أول البلدان دخولا في طاعته :

ذكر المراكشي عبد الواحد في المعجب (19) ان عبد المومن لم يزل بعد وفاة ابن تومرت يطوي الممالك مملكة مملكة ، ويدوخ البلاد ، الى ان ذلت له البلاد ، وأطاعته العباد .

وورد في تعليق لمحققي المعجب : ان أول من دان في البلاد ، لعبد المومن قبل مراكش ، وهران ، ثم تلمسان ، ثم فاس ، ثم طنجة ، ثم مكناسة ، ثم سلا ، ثم سبتة (20) .

اول غزوة غزاها :

غزوة تادلا هي اول غزوة غزاها عبد المومن في خلافته ، خرج لها من « تنمليل » يوم الخميس 24 ربيع الاول سنة (526 هـ) في ثلاثين الفا من الموحدين . ولما وصل اليها غنمها وسبا أهلها وانصرف . نص على ذلك صاحب القرطاس (21) .

أول بلد فتحه الموحدون بالاندلس :

جاء في المصدر اعلاه (22) ان مدينة شريش (23) هي أول مدينة فتحها صلحا جيش عبد المومن الموحدي المؤلف من عشرة آلاف فارس ، بايعه قائدها أبو الغمر من بني غانية هو وجيشه المؤلف من ثلاثة آلاف فارس مرابطي ، فكان الموحدون لذلك يسمونهم بالسابقين الاولين ، وكان أهل شريش اول من يتادى عليهم اذا قدموا ضمن الوفود للسلام على ملوك الموحدين في كل سنة .

اول دولة بحرية في العالم :

في عهد عبد المومن ، كانت دولة الموحدين أول دولة بحرية في العالم . فقد بلغت اساطيله البحرية نحو 400 اسطول .

---

(15) ج 2 ص 96 . ط. دار الكتاب بالبيضاء .
(16) ولد عبد المومن آخر سنة (487 هـ) وبويع بعد يومين من وفاة المهدي حسب نص البيذق في تاريخه ، وتوفي سنة (557 هـ) أو (558) .
(17) ج 2 من الاستقصا ، ص 109 ، ط. دار الكتاب بالبيضاء .
(18) ج 2 ص 132 ، ط. الوطنية بالرباط .
(19) ص 295 ط. 7 دار الكتاب ، تحقيق وتعليق الاستاذين : محمد سعيد العريان . ومحمد العربي العلمي .
(20) ص 295 .
(21) ج 2 ص 132 .
(22) ص 136 .
(23) تقع شريش على مقربة من مصب نهر وادي لكه في المحيط الاطلسي .

وهو المؤسس الاول للكشفية :

نقل صاحب كتاب « العلوم والاداب والفنون على عهد الموحدين » السابق الذكر عن بعض الباحثين (24) : ان عبد المومن لما اجتاز الجواز الثاني للاندلس ، وجد عقبة بن الحجاج والي الاندلس انشا طائفة من الدرك (الفرسان) لتوطيد الامن في البلاد سماها بالكاشف ، ولما عاين نظامها واعجب بها ورجع الى المغرب . احدث المدارس وأسس فيها الالعاب الرياضية ، وفرقا للكشافة ، اعطاها هذا الاسم ، وطورها من حراسة الامن الى التربية والعمل على نشر الفضيلة وقمع الرذيلة ، وبهذا يكون المغرب قد سبق اوروبا لهذا الابتكار ، ويكون عبد المومن هو المؤسس الاول لمناهج الكشفية . اما ما يدعيه الاوروبيون ، من ان القائد البريطاني « بادن باول » المتوفى سنة (1908 م) هو المؤسس الاول لمناهج الكشفية فهو محض ادعاء .

واول من اتخذ البساتين بمراكش :

ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان ان عبد المومن هو اول من اتخذ البساتين بمراكش ثم قال : يقول : ان بستانا منها طوله ثلاثة فراسخ (25) .

واول من نقل المصحف العثماني الى مراكش :

بامر من عبد المومن تم نقل المصحف العثماني من قرطبة الى مراكش سنة (552 هـ) وقد سبق القول في هذه الاولية في اول حلقة من سلسلة الاوليات (26) .

واول من فرض الخراج على أرض المغرب :

بعد ما تم لعبد المومن فتح افريقية امر بقياس مساحتها ومساحة ارض المغرب بالفراسخ والاميال طولا وعرضا ، ثم اسقط من ذلك الثلث في الجبال والفياض والانهار ، والسباخ والخزون والطرق ، وما بقي قسط عليه الخراج والزم كل قبيلة باداء قسطها من الزرع والورق . وكان ذلك سنة (555 هـ) .

قال في القرطاس : فهو اول من احدث ذلك بالمغرب (27) .

مكناس : امحمد العرائشي

(24) ص 94 .
(25) ج 17 ، المجلد الخامس ص 94 . ط. بيروت 1957 .
(26) مجلة دعوة الحق . السنة : 19 . عدد : 5 ص 109 .
(27) ج 2 ص 161 .

مراجع

1 ــ وفيات الاعيان لابن خلكان .
2 ــ اخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين لابي بكر بن علي الصنهاجي الملقب بالبيذق . تحقيق الاستاذ عبد الوهاب بنمنصور .
3 ــ المن بالامامة على المستضعفين لابن صاحب الصلاة عبد الملك . تحقيق الاستاذ عبد الهادي التازي .
4 ــ القرطاس لابن ابي زرع . تحقيق الاستاذ محمد الهاشمي الفلالي .
5 ــ العلوم والاداب والفنون على عهد الموحدين للاستاذ محمد المنوني
6 ــ ج 2 من الاستقصا للناصري احمد . ط . دار الكتاب بالبيضاء .
7 ــ المعجب للمراكشي عبد الواحد . تحقيق الاستاذين : محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي .
8 ــ الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام للعباس بن ابراهيم .
9 ــ تاريخ المغرب للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله .
10 ــ عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس للاستاذ محمد عبد الله عنان .
11 ــ ج 17 من معجم البلدان لياقوت الحموي . ط. بيروت .
12 ــ العدد : 7 من مجلة الثقافة المغربية .
13 ــ مجلة دعوة الحق . السنة : 19 . العدد : 5.



عبدالقادر زمامة

834 — العقل عرض ... !

وجدت في مصورة مخطوطة كتاب : شرح أعز ما يطلب ، في الورقة 45 بالخزانة العامة بالرباط .

« وقال الفقيه الطرطوشي رحمه الله في كتابه الموضوع في أصول الفقه : قال الاستاذ ابو اسحاق:

العقل العلم .. ! وها نحن نسوق الدلالة عليه سوقا يتضمن ابطال اكثر ما قيل في ذلك . ويفضي الى صحة ما اختاره القاضي رحمه الله . كما يسردها الائمة فنقول : العقل لا شك كائن موجود . وليس بعدم . اذ لو كان عدما لكان نفيا محضا . وما كان يختص بالاتصال به لفظ الذوات دون بعض . اذ النفي لا اختصاص له . لانه ليس شيئا .. ! فاذا ثبت انه موجود فلا يخلو ان يكون قديما او حادثا . ويستحيل الحكم بقدمه . فان الدلالة دلت على ان القديم هو الله تعالى وصفاته . والعقل يحل الاشخاص مرة . وينعدم أخرى . وما يجوز عليه الحلول والعدم والاتصال والانفصال فهو محدث ...! وكل ما ستدل به على حدوث العلم فهو دليل على حدوث العقل .. ! وهذه الدلالة تبطل قول الحشوية: ان العقل قديم ... ! وان الروح قديم ... ! واذا وجب القطع بحدوثه لم يخل ان يكون جوهرا او عرضا ... وباطل ان يكون جوهرا ... ! لقيام الدليل على تجانس الجواهر ... ! وان جوهر الماء والنار والقطن والحديد والتبر وغيرها جنس واحد ... ! ولمعانيها ما يجب اختلافها ، فلو كان بعضها عقلا لكان جميعها عقلا ... ! وهذا باطل ... !!! »

835 — شويطرة والبيدق ... !

وجدت في مخطوطة ديوان الوزير ابن ادريس الذي جمعه ولده الكاتب ادريس بعد وفاة والده قصيدة يداعب فيها الوزير ابن ادريس صديقه مولاي الحجازي العلوي . وقد مات له غلام اسمه : بيدق . وجارية اسمها : شويطرة ...

جاء فيها :

« اصابت بيدقا ورمت جهارا
شويطرة ولم تشفق لما بي

فهذا كان يتبعني نهارا
وتلك خديمتي عند الاياب

فتحسن عشرتي وتقم بيتي
وتحرسه . وتغسل لي ثيابي

وذاك يحفظ لي مغيبي
وامتعتي ويحرس حول بابي

وكان الصدق شأنهما ولكن
جيوش الموت تولع بالرغاب

أأضحك بعد نيل الموت مني
وانعم بالطعام وبالشراب

وقد علقت شويطرة المنايا
وجاورت البوبدق في التراب»

836 — الفـــاسي ... !

وجدت في مصورة مخطوطة رحلة ابن رشيد السبتي عند ذكره لزيارة المدينة المنورة :

« وممن لقيناه بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، الشيخ العالم الفقيه المالكي ابو اسحاق ابراهيم بن يحيى بن محمد بن يحيى الفاسي ، منسوب الى مدينة (فاس) احدى قواعد المغرب ، وهكذا ضبطه لنا بخطه « الفاسي » مهموزا كأنه فر من الاشتـــراك ... !!! » .

837 — القمبـــاص ... !

ووجدت في كتاب « النفحة المسكية في الرحلة التركية » ص 154 .

« ... مصور فيه صور البحر في رق مكتوب على جانبي البحر جميع البلاد وفي وسطه الجزر . يعرف بذلك انواع الريح . وما قطعت السفينة من مسافة البحر ، وما بقي بتقدير الاميال يسمونه : القمبـــاص ... » .

838 — دار الكرامـــة ... !

وجدت في كتاب (آسفي وما اليه) للمرحوم محمد الكانوني ص 61 ط. القاهرة سنة 1353 هـ .

« ومن آثار الدولة الموحدية بها « مراكش » سالفا دار الضيافة المعروفة بدار الكرامة التي يقول فيها الاديب محمد بن محمد البربري ... ؟ في قصيدة امتدحهم بهـا :

خير قوم دعوا الى خير دار
هي للملك نضرة وكمامـــه

عالم السبعة الاقاليم فيهـا
وهم في فنائها كالقلامـــه »

839 — الجلابيـــة ... !

وجدت رايا غريبا في نسبة « الجلابيـــة » في كتاب « معجم الالفاظ العامية المصرية ، ذات الاصول العربية » لمؤلفه : د. عبد المنعم سيد عبد العال ص 54 ط. القاهرة 1971 م .

« تقول في دارجتنا : لبس فلان الجلابية ... نوع من الثياب معروف . وهي منسوبة الى جلاب بلدة بالرها ... !!! وما ينسب اليها جلابـي ... ! وتقول ملابس جلابيـــة ... !! » .

840 — من شعر الرحالة ابن رشيد السبتي .

وجدت في مصورة مخطوطة رحلة ابن رشد السبتي هذه القصيدة التي انشدها في الطريق من تبوك الى المدينة المنورة :

« اشيح الفلا نائم أم عنبر الشحر
ام العرف اهدت طيبة طيب النشر

والا فما بال الرياض تعطـــرت
وما لثغور النور تبسم عـــن در

وما بال ادواح البطاح تأطـــرت
وجرت ذيولا من غلائلها الخضـــر

وما لفصيح الطير يعلو منابـــرا
تردد الحانا على مزهر الزهـــر

وما بال ارواح الصباح تداعبـت
تفاتح بالبشرى وتتحـف بالبشر

نعم هو عرف من نواحي معـــرف
سرى ملقبا ما حملـوه مـن السر

ترى علموا اني نقـــدت خيالهم
لفقدي الكرى فالطيف نحوي لا يسري

فاهدوا مع الريح الشمالي شمائلا
سقتني شمولا فانتبت من السكـر

على ان بعد الدار يعذر طيفهـم
فيثنيه ان جد السرى مسفر الفجر

بشير الرياح المهديات بشائـــرا
حقيق علينا أن يقابل بالشكـــــر

فحل ضلوعي منــزلا أن رضيتهـــا
وعذرا فقلبي بالمكان الذي تــدري

ومن كبدي اقربك وهي نضيجـــة
ومن ادمعي ارويك اذ لم تزل تجري

وبالله الا مـــا اقمـــت مكرمـــــا
لدينا ولا ترجع سريعا على الاثـــر

فقال : تكلفت الجواب وانــــــي
وفي بعهدي لا اميل الى الغـــــدر

فناديته بلغ سلامي وقل لهـــــم
اقام لعذر صده والهوى العـــذري

فكان لقائه والوداع معـــــا فــلا
تسل كيف حالي حين ولى مع الصبر

841 — لــو سمعــك سيبويــه ... !

وجدت في مخطوطة كتاب « المنتقى المقصور » لابي العباس ابن القاضي . حكاية عن شيخـه أبـي راشد البـــــدري :

« وحدثني أن الشيخ ابن غازي كان يوما يقطع قولــــــه :

البطـن منهـــا خميـــــص
والـوجـــه مثـــل الهـلال

فدخل عليه بعـــض العامـــة . وكـــان مـــن الشعراء ... ! فزاد العامي المذكور فقال :

والثغـر منهـــا شنيـــــب
والريق مثـل المصــــــال

والطرف منهـــا كحيـــــل
واللحظ مثـل النصـــــال

ودخل العامي المذكور على الشيخ يوما ، وكان من عادة الشيخ ان يطعم الطلبة في كل يـــوم ... ! وياتي العامي المذكور ليتغذى مع الطلبة .. فتاخـــر العامي يوما حتى ظن ان الغداء حضر ... فجاء وقال لهم : هل تغديتم .. ؟ فقال له الشيخ : يفطرون ان شاء الله ... ! فقال له العامي : هذه ياء الرجاء ..! فقال الشيخ : لو سمعـــك سيبويـــه لاثبتهـــا في كتابــــــه ... !!! » .

842 — تعريقـــــة السيـــــن ... !

وجدت في كتاب « نفح الطيب » لابي العباس المقري عند ذكر أخبار جده أبي عبد الله المقـــري (الجد) قاضي فاس ، ج 5 ص 212 ط. بيروت :

« ... ثم فقلت الى المغرب يسايرني رجل من أهل قسنطينة . يعرف بمنصور الحلبي . فما لقيت رجلا اكثر اخبارا ، ولا اظرف نـــوادر منـــه ... ! فمما حفظته من حديثه . ان رجلا من الادباء مر برجل من الغرباء . وقد قام بين ستة اطفال ... ! جعـــل ثلاثة عن يمينه .. ! وثلاثـــة عـــن شمالـــه ... ! واخـــذ ينشــــــد :

ما كنت احسب أن ابقى كذا ابدا
اعيش والدهر في اطرافه حتف

ساس . بستة اطال توسطهـــم
شخصي كاحرف «ساس» وسطها الف

قال : فتقدمت اليه . وقلت : فأين تعريقـــة السين ... ؟ فقال : طالب ورب الكعبة .. ! ثم قال للآخر من جهة يمينه : قم . فقام يجر رجله كانـــه مبطول ... ! فقال : هذا تمام تعريقة السين .. !! »

843 — ما انت بالعشاق صانـــع ... ؟

وجدت في مخطوطة كتاب الانشادات والافادات لابي اسحاق الشاطبي :

« انشدني شيخنا الفقيه القاضي المتفنن ابـــو عبد الله المقري لنفسه :

وجد تسعـــره الضلـــــو
ع وما تبـرده المدامـــــع

هـــم تحركـــه الصبـــــا
بة والمهابـــة لا تطـــــاوع

امل اذا وصـــل الرجـــــا
اسبابه فالخـوف قاطـــــع

تالله يا هـذا الهـوى
ما أنت بالعشاق صانـع »

844 — سـر الالفـة ... !!

وجدت في مخطوطة كتاب « المنتقى المقصور » لابي العباس ابن القاضي حكاية عـن شيخـه أبـي راشد يعقوب اليوزي :

« وحدثني أن بعـض النـاس رأى طائريـن مختلفين : غرابا وحمامة ... ! فتعجب من الفتهما . للمباينة التي بينهما ، فتحركا ... فـرأى بهمـا عرجـا بينـا ... !!! » .

845 — سقـومـا .... !

نجد في كتب الفتوح والتاريخ فتح « سقوما أو سجوما أو سكوما » على يد موسى بن نصير . وقـد وقفنا حول هذا العلم وقفات طويلة حائريـن ... ! منذ مدة ... !!

ومن جملة ما أطلعنا عليه في الموضوع هـذه الوجـادة التي كتبناهـا هكـذا وذلك من بـاب الاستئنـاس ...

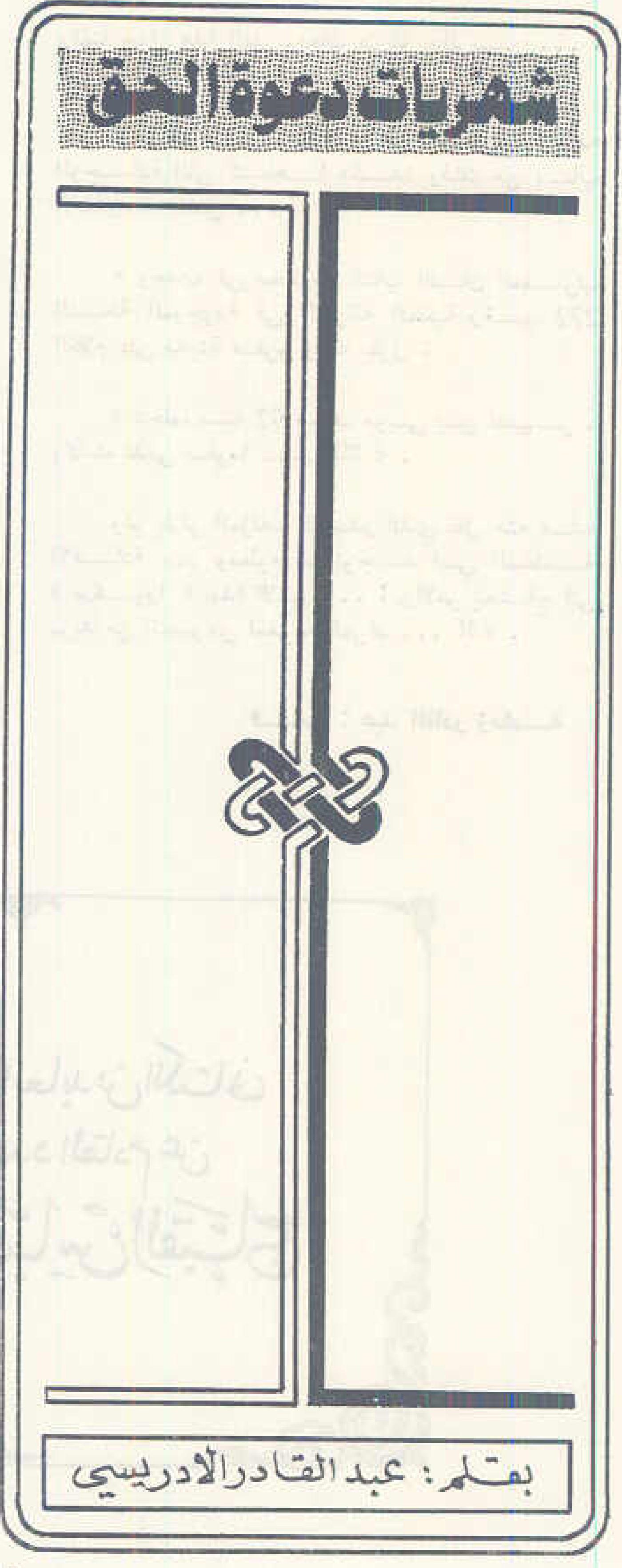
« وجدت في مخطوطة كتاب اللسان المعـرب النسخة الموجودة في الخزانة الملكية رقـم 272 الكلام على مدينة صفرو وفيه يقول :

« دخلها سنة 92 هـ هـ موسى بـن نصيـر . وكانت تدعى سقوما .... !!!! » .

ولم يذكر المؤلف المصدر الذي نقل منه هـذه الافـادة ... ومعلوم انه توجـد فـي المنطقـة « سكـورا » بهذا الاسم ... ! والامر يحتـاج الى مزيد من النصوص لمعرفة المراد ... !! » .

فـاس : عبد القادر زمامـة





حياتنا الثقافية

●● ازدهرت حركة التاليف والنشر في بلادنا لدرجة ان الباحث المتخصص يصعب عليه متابعة ما تصدره المطابع من مؤلفات وكتب . وهي ظاهرة صحية انعشت الحياة الفكرية وساهمت في رواج الادب والفكر والثقافة ، وفتحت المجال امام أجيال جديدة لتمارس وظيفتها في التعبير عن افكار وآراء ومعتقدات تؤمن بها . والى عهد قريب كان الكتاب المغربي يحتفى به احتفاء ملحوظا وتنشر عنه المقالات والدراسات ، ويظل حديث المجالس والمنتديات ومادة خصبة للصحف والمجلات ـ على قلتها يومئذ ـ ردحا من الزمن ومع ازدياد كمية النشر قل الاهتمام بالانتاج المغربي عموما ؛ واصبح من النادر ان تقرا نقدا في الصحافة المغربية لمؤلف جديد . اللهم الا ما كان من كتابات متناثرة هنا وهناك لا تخضع لموضوعية ولا تقوم على أساس مدروس . وناهيك بالكتابات التي تدخل في نطاق ما درج عليه بالاخوانيات التي لا تخلو من مجاملة تضر بالحياة الثقافية أكثر مما تنفع .

ويثير الانتباه بصفة خاصة المؤلفات الاسلامية الجديدة التي صدرت خلال الفترة القليلة الماضية . ففي زمن متقارب أصدر الاستاذ الكبير عبد الله كنون كتابين نفيسين ، الاول عن تفسير سور المفصل من القرءان الكريم في حجم كبير ، والثاني يتضمن ردود وتعليقات الكاتب الفاضل عن كتيب سوفياتي نشرته وكالة نوفوستي يشتمل على هجوم سافر على كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وعلى الرغم من مضي شهور على صدور الكتاب الاول ، فان أحدا من كتاب المغرب لم يعلق عليه ولم تمتد اليه يده بنقد او تلخيص او مجرد عرض في الصحف السيارة ؛ واحسب ان احدا لن يلتفت اليه، لا لعلة في الكتاب ، حاشا لله ؛ وانما لركود في الحياة النقدية والتعريف بالكتب المغربية ، او بالاحرى لغلبة النزعات غير الادبية البعيدة عن الثقافة على الجو الفكري العام .

ولقد قرأت كتاب الاستاذ كنون فهالني هـذا التناول البارع والعرض الشيق والشرح المبين والتفسير الواضح الذي يقدم سور القرءان الكريم الى القارىء غير المتخصص في سهولة ويسر . وكان المؤلف ينشر حلقات من هذا الكتـاب في مجلة (لسان الدين) التي كان يصدرها بتطوان في زمن الحماية ، ثم والى نشرها في مجلة (الارشاد) عند صدورها في أواخر الستينات . والكتاب قيم قيمة مزدوجة ، من جهة لاتصافه بالمزايا الادبية والبيانية المشار اليها ، ومن جهة ثانية لانه انتاج بكر ـ كما يقول المؤلف العالم ـ في الخزانة العربية الاسلامية.

والاستاذ عبد الله كنون خير مـن يكتـب في التفسير ويقدم كتاب الله للاجيال الجديدة . فقـد اوتي العلم الديني الشرعي والثقافة العربية الاسلامية ورزق المقدرة الفائقة على التبليغ ، فهو بحق أديب العلماء وعالم الادباء بالمغرب بلا منازع . ويعجبني فى الاستاذ كنون هذا الـدأب الصبـور على الانتـاج والتحدي الصامت لعلـل الجسم ومشاغل الحيـاة ومسؤوليات الرسالة العلمية والاجتماعيـة التـي يتحملهـــا .

ولم تخل المكتبة المغربيـة الاسلامية خـلال الشهور القليلة الماضية من مؤلفات جديدة بعضهـا يثير الجدل العنيف مثل كتـاب الاستـاذ ادريس الناقوري حول الشعر والاسلام ، وكتاب د. محمـد عابد الجابري حول رؤية جديدة في التراث ، بالاضافة الى كتب مثيرة للفضول اصدرها كتابا تلـو الآخـر د. عبد الله العروي . وكلها مؤلفات تستحق القراءة بغض النظر عن قيمتها العلمية ، وانما لكونها كتبـا مغربية كان حريا بالكتاب المتخصصيـن في هـذا الضرب من الكتابة أن يتناولوها بالعرض والتحليـل والـدراسة .

ان اثراء الحياة الثقافية في بلادنا يتوقف على الاهتمام بما تصدره المطابع من انتاج وطني . وطالما ان الاتجاهات الايديولوجية تتحكم فيمن يتعاطون هذا الفن من الكتابة ، فلا فائدة ترجى من المتابعة فى هذا الميـدان .

لقد ازدهر الفكر والادب والثقافة في الوطـن العربي ابان عصر النهضة بازدهار حركة النقد وقيام المعارك الثقافية والادبية بدافع علمي خالص غيـر خاضع للاهواء . وكان لبلادنا نصيب ملحوظ مـن تلك النشاطات . ولعل من حق الاجيـال المثقفـة الجديدة ان تعلم ان حفلا ثقافيا كبيرا اقيم بفاس في مطلع الثلاثينيات احتفاء بحدث غريب لم يسبق لـه مثيل ولا اخاله يتكرر في مستقبل الايـام . فلقد اجتمع المثقفون والعلماء والادباء والشعراء ومحبـو المعرفة وشداة الادب والثقافة للاحتفال بمناسبـة اكتمال دورة كاملة لتداول وانتشار كتاب (حاضـر العالم الاسلامي) لمترجمه عجاج نويهض والذي علق عليه شكيب أرسلان . فقد طافت النسخة الوحيـدة والاولى التي دخلت المغرب من هذا الكتاب على المدن المغربية تتلقفها الايدي فى شوق ولهفة وحنو من مدينة الى اخرى الى ان عادت النسخة فى شكل اوراق ممزقة الى فاس . فكان ذلك مدعاة لاقامة احتفال خطب فيه الخطباء وانشد الشعراء ما جـادت به قرائحهـم بالمناسبــــة .

اننا في حاجة الى بعث أدبي ثقافي فكري يوازي البعث الوطني والاسلامي الذي نعيشه في حياتنـا العامة . والامل معقود على اللجنة الوطنية للثقافـة التي تضم نخبة ممتازة من رواد الثقافة والفكر فـي بلادنا ، عساها تنهض بالمسؤوليات الجسام وتخلـق اسباب ازدهار الحياة الثقافية بترويج الكتاب وتيسير الحصول عليه وبعث الروح في المنابـر الادبيـة والفكرية التي يلتف حولها المنتجون والمبدعون في كل فن وعلـم .

على هامش ندوة ابن حيان القرطبي وتاريخ الأندلس

●● الدكتورة العالمة الباحثة السيدة عائشة عبد الرحمان شغوف بالمغرب درسا وكتابـة وتأليفـا وتنشئة للاجيال في رحاب جامعاته . وقد شاركـت في الندوة التاريخية الكبرى التـي عقدتهـا وزارة الشؤون الثقافية مؤخرا ، عن المؤرخ الاندلسي العالم الشهير ابن حيان . وبعد عودتها الى القاهره كتبت سلسلة مقالات في اهرام الجمعة كانت دعاية طيبـة للمغرب ومكانته العلمية . وفيما يلي ننشر الحلقـة الاولى من هذه السلسلة لاطلاع قراء (دعوة الحق) عن جانب مما ينشره الكتاب في المشرق عن المغرب .

على مدى ربع قرن واكثر ، اعيد قراءة تاريخنا فيما تنقصي في الدراسات الاسلامية العليا من مخطوطات فيه لم تقرا ، ومدونات لمؤرخين اعلام من شهود عصور منه لا نجد لها ذكرا في مصادر الدارسين المحدثين لتاريخ الاسلام ومنها ما ينقض المعروف لنا في الكتب المدرسية والمتداولة . وكنت على نية الانجاه الى تاريخ المغرب والاندلس ، بعد ان افرغ بمشيئة الله تعالى وعونه، مما يشغلني من تاريخ مصر والمشرق لولا ان دعيت الى ندوة في الرباط لدراسة « أبي مروان ابن حيان القرطبي مؤرخ الاندلس » فاتاحت لي من حيث لم احتسب ، قراءة جديدة في تاريخ الاندلس.

وابن حيان الذي شغلنا في هذه الندوة الاولى عنه ، غير مجهول لنا : فاعلام مؤرخي الاندلس وأعيانها وحضارتها من زمن ابن حيان (377 – 469 هـ) فما بعده ، يتولون الى تاريخه الكبير قلما يعدونه فيما ارخ له مع التنويه به والاقرار له بالصدارة والرياسة وقد عدوا من مفاخر الاندلس ، هذا التاريخ الكبير بشطريه (المقتبس) وفيه يؤرخ للاندلس من الفتح الاسلامي الى آخر القرن الرابع .

و (المتين) وفيه يؤرخ لاحداث عصره الذي شهد اختصار الدولة الاموية الكبرى وسقوطها سنة 422 هـ وقيام ملوك الطوائف .

لكن هذا التاريخ الجليل العمدة ، ظل بشطريه محجوبا عنا حتى عثر مستشرقون على أجزاء من مخطوطات (المقتبس) فيما نقبوا عنه من ذخائر تراثنا .

الراهب الاسباني « ملتشور انطونيا » عثر على قطعة من مقتبس ابن حيان في اكسفورد ونشرها في باريس سنة 1937 .
والمستشرق الاسباني « فرانسسكو كوديرا » عثر على قطعة في قسنطينة بالجزائر فاستنسخ منها نسخة اودعها مكتبة المجمع الملكي بمدريد . ثم ظهر ان اصلها في الجزائر قد ضاع وبقيت نسخة كوديرا نشرها الاستاذ عبد الرحمان الحجي في بيروت سنة 1965 .

وعثر المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال على قطعتين من المقتبس في خزانة القرويين بفاس ، فعرف بهما ثم ضاعت احداهما وبقيت الاخرى فنشرها الزميل الاستاذ الدكتور محمود علي مكي مع مقدمة قيمة حافلة .

هذه الاجزاء المنشورة من (المقتبس) قرأها الاستاذ الجليل « الحاج امحمد ابا حنيني ، وزير الدولة للثقافة المغربية » فرأى فيها اضافة ذات بال الى المعروف لنا من تاريخ الاندلس . فكان ان قرر الدعوة الى هذه الندوة الاولى لابن حيان القرطبي الذي سبقنا المستشرقون الى العناية به والبحث عن مخطوطات تاريخه .

وكنت فيمن تفضل الاستاذ الجليل فتذاكر معهم في موضوع الندوة وزودني بما في خزانته من منشورات المقتبس ويسر لي بأريحية أصيلة ، تصوير ما احتجت اليه من مخطوطات في خزائن المغرب .

على مهل أرجو باذن الله ان أقدم قراءتي الجديدة لتاريخ الاندلس في صحبتي لابي مروان ابن حيان .

وأتحدث اليوم عن ندوته في الرباط .

الندوة عقدت في الاسبوع الثالث من نوفمبر الماضي ، وهو الموعد المحدد لمؤتمر القمة بفاس . ذكرني هذا التوقيت بمثله في خريف سنة 1969 حيث عقد بفاس المؤتمر التاسيسي لجامعة الجامعات الاسلامية . في اواخر سبتمبر ودعينا على اثره لشهود مؤتمر القمة الاسلامي بالرباط في فاتح اكتوبر . فكاني فهمت ان التوقيت في المرتين ، يلتفت الى اهمية الموقع العلمي في وجود الامة .

واذا كان مؤتمر القمة العربي بفاس ، قد انفض يوم افتتاحه على مرأى ومسمع من عالم اليوم الذي احتشد لشهوده ، فان ندوتنا العلمية في الرباط تابعت جلساتها بنجاح مرموق تضيء للامة ماضي تاريخها بالاندلس وتؤكد ما نحن في أشد حاجة اليه ، من قراءة جديدة لتاريخنا .

وكانت البداية مبشرة بالتوفيق : اذ حدث قبيل انعقاد الندوة تعديل وزاري في المغرب ، انتقل فيه الداعي اليها «السيد الاستاذ الحاج امحمد ابا حنيني » من وزارة الثقافة الى وزير دولة بالديوان الملكي ، وعين الاستاذ « الدكتور سعيد بلبشير » وزيرا للثقافة .

وعلى غير المعهود من وزراء جدد يستهلون عهدهم بالاعلان عن فراغ في مواقعهم يبدأون فيه من نقطة الصفر ، استهل الدكتور سعيد عهده بانجاز ما بدأ سابقه الاستاذ الحاج ابا حنيني ، معترفا له بالفضل وباذلا غاية جهده لتحقيق الندوة التكليف المنوط بها ، وتتم على خير وجه يرجى لها . وبحكم اختصاصه في القانون والنظم الادارية استهل الندوة بعرض قيم لهذا الجانب من تاريخ ابن حيان ، كشف عن وثائق مطوية من عراقة تاريخنا الحضاري في الافق الاندلسي والمغربي .

وسجلت الندوة ، حرص المشاركين فيها من عرب ومستشرقين ، على حضور جلساتها ودراسة ما قدم اليها من بحوث والاشتراك في مناقشتها . كما اشترك في هذه المناقشة صفوة من المثقفين المغاربة غير الاعضاء احتشدوا لشهود الجلسات والاصغاء الى ما ألقي فيها من عروض ، مما زاد في حيوية الندوة وعطائها .

وعهدي بمؤتمرات شهدتها يكتفي مشاركون فيها بحضور الجلسات المحددة لالقاء عروضهم الخاصة ، وتصرفهم عن سواها شواغل اخرى فينفض المؤتمر وكاننا ما التقينا .

وكنا جميعا صحبة فيما نظمت وزارة الثقافة لاعضاء الندوة من زيارات للمعالم التاريخية ، وعلى الموائد الكريمة في ضيافة العلماء المغاربة حيث امتد اللقاء عامرا بالمذكرات والتواصل الفكري يجدد حيويتنا ويوسع آفاقنا ويوثق ما بيننا من أواصر القربى .

فان تكن الامة قد شق عليها ما حدث في مؤتمر القمة العربي بفاس فقد يهون عليها ان تشهد الندوة التاريخية بالرباط ، ان الموقع الفكري مرجو السلامة من ذرائع الفتنة الحالقة التي مزقت شملنا واذاقت بعضنا باس بعض ، مرجو الجهاد لحفظ آية الله تعالى فينا : « وان هذه امتكم امة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .
صدق الله العظيم

فهرس أبحاث الأستاذ محمّد الفاسي عن تاريخ الأدب المغربي

●● نضع بين أيدي الباحثين فهرسا للابحاث التاريخية القيمة التي نشرها الاستاذ الكبير محمد

الفاسي عن الادب المغربي منذ نصف قرن في المجلات المغربية .

— هل كان للمغاربة ادب في القرون الاولى بعد الفتح الاسلامي ؟ — جريدة (المغرب) العدد الممتاز الاول بتاريخ 23 دجنبر 1939 .

— هل كان للمغاربة ادب في القرون الاولى بعد الفتح الاسلامي ؟ — جريدة (المغرب) العدد الممتاز عدد 9 بتاريخ 15 يونيه 1940 .

— نظرة عامة على تاريخ الاداب العربية بالمغرب الاقصى — جريدة التقدم : العدد الممتاز الاول بتاريخ 20 ابريل 1940 .

— الآداب العربية بالمغرب ايام المرابطين — جريدة المغرب : العدد الممتاز عدد 10 بتاريخ فاتح يناير 1941 .

— الآداب العربية بالمغرب ايام المرابطين — جريدة المغرب : العدد الممتاز عدد 11 بتاريخ 15 يناير 1941 .

— الآداب العربية بالمغرب ايام المرابطين : عصر التاسيس — جريدة المغرب : العدد الممتاز عدد 13 بتاريخ 15 ببراير 1941 .

— الآداب العربية بالمغرب ايام المرابطين : عصر التاسيس — جريدة المغرب : العدد الممتاز عدد 14 فاتح مارس 1941 .

— الآداب العربية بالمغرب ايام المرابطين : الانتاجات الاولى : الشاعر ابن الزيتوني الفاسي — الشاعر ابن القابلة السبتي — الشاعر ابن بياع السبتي — جريدة المغرب : العدد الممتاز عدد 15 بتاريخ 15 مارس 1941 .

— الآداب العربية بالمغرب ايام المرابطين : الانتاجات الاولى : ابو عامر بن عيشون الفاسي — ابن زنباع الطنجي — ابو هارون الاغماتي — جريدة المغرب : العدد الممتاز عدد 16 بتاريخ 15 مايه 1941 .

— نشاة الدولة الموحدية ومميزات العصر الموحدي — مجلة الثقافة المغربية : العدد الاول غشت 1941 ص : 9 — 14 .

— العصر الموحدي الاول : القاضي عياض — مجلة الثقافة المغربية : العدد 3 ، اكتوبر 1941 ص : 105 — 112 .

— العصر الموحدي الاول : الشاعر الكبير ابن حبوس — مجلة الثقافة المغربية : العددان 4 — 5 ، نوفمبر ودجنبر 1941 ص : 153—162

— الشريف الادريسي أكبر علماء الجغرافية عند العرب — الملحق الاول لمجلة العدوتين طنجة يناير 1952 — 38 صفحة .

— ثلاثة رجال من العصر الموحدي الاول : البيذق ابن هشام اللخمي — ابن عمران الوردميشي — الثقافة المغربية عدد 6 يناير 1942 ، ص : 210 — 218 .

— العصر الموحدي الثاني ورجاله الاولون : كتاب الاستبصار — ابن عبد الكريم الفندلاوي — ابن عبد الكريم التميمي — الثقافة المغربية : عدد 7 — ببراير 1942 ص : 249 — 259 .

— العصر الموحدي الثاني : ابن الياسمين — ابو حفص بن عمر — رسالة المغرب العدد الاول فاتح اكتوبر 1942 ص : 12 — 17 .

— العصر الموحدي الثاني : عبد الرحمن ابن الملجوم — عبد الجليل القصري (1) — رسالة المغرب : العدد الثاني ، 25 اكتوبر 1942 ص : 9 — 11 .

— العصر الموحدي الثاني : الشاعر الكبير ابو العباس الجراوي — رسالة المغرب العدد 5 فاتح يناير 1943 ص : 11 — 13 .

— العصر الموحدي الثاني : الشاعر الكبير ابو العباس الجراوي — رسالة المغرب : العدد 7 — 15 ببراير 1943 ص : 11 — 13 .

— العصر الموحدي الثاني : الشاعر الكبير ابو العباس الجراوي — رسالة المغرب : العدد 8 — 10 ، مارس 1943 ص : 6 — 9 .

(1) طبع غلطا في العنوان العام للمقال : عبد الواحد القصري .

— العصر الموحدي الثاني : المؤرخ عبد الواحد المراكشي — رسالة المغرب الشهرية : العدد الاول غشت 1947 ص : 11 — 18 .

— العصر الموحدي الثاني : المؤرخ عبد الواحد المراكشي — رسالة المغرب الشهرية : العدد الثاني اكتوبر 1947 ص : 98 — 109 .

— العصر الموحدي الثالث : الشاعر ابن خبازة الخطابي — رسالة المغرب الشهرية : العدد الرابع دجمبر 1947 ص : 221 — 226 .

— العصر الموحدي الثالث : ابن دحية الكلبي — رسالة المغرب الشهرية العدد العاشر يونيه 1948 ص : 536 — 546 .

— العصر الموحدي الثالث : الشاعر ابن عبدون — رسالة المغرب : عدد 136 يناير 1952 ص : 12 — 15 .

— العصر الموحدي الثالث : ابو الحسن الشاري — رسالة المغرب : عدد 138 مارس 1952 ص : 12 — 20 .

— العصر الموحدي الثالث : الفلكي أبو الحسن المراكشي — رسالة المغرب : عدد 139 ابريل 1952 ص : 22 — 30 .

المقال الأول

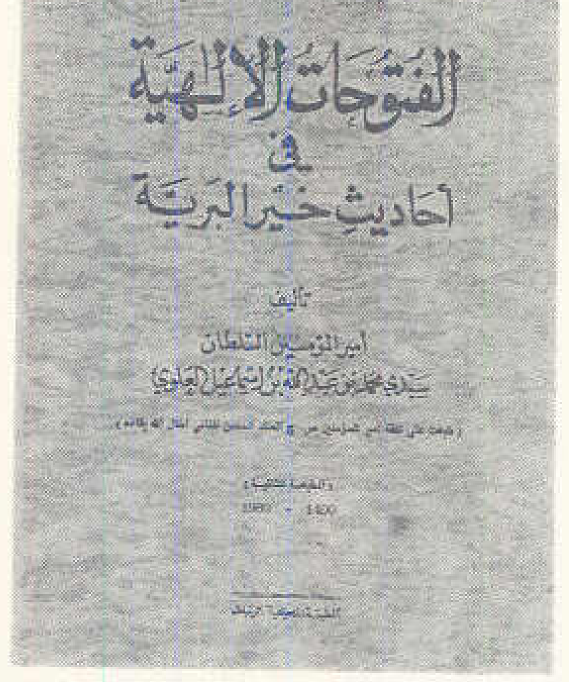
●● في (شهريات "دعوة الحق") بالعدد القادم ننشر تحت عنوان "المقال الأول" أول مقال نشره الاستاذ عبد الكريم غلاب خارج المغرب

المغـــرب :

● تصدر قريبا عن المطبعة الملكية بالرباط الطبعة العربية من مذكرات صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني المنشورة باللغة الفرنسية تحت اسم (التحدي). وكانت قد ظهرت ترجمة انجليزية لهذا الكتاب الهام الذي يسجل مراحل من كفاح العرش العلوي المجيد ويبرز جهاد جلالة الملك حفظه الله في الحقل الوطني الى جانب جلالة المغفور له محمد الخامس قدس الله روحه . كما يعد كتاب (التحدي) الذي لقي رواجا عالميا ، من المصادر الاساسية في تاريخ المغرب الحديث .

● أصدرت المطبعة الملكية طبعة جديدة بالاوفست لكتاب (الفتوحات الالاهية في احاديث خير البريـة) للسلطان العالم سيدي محمد بن عبد الله قدس الله روحه .

وبذلك تكون قد صدرت من هذا الكتاب القيم ثلاث طبعات . ويعتبر (الفتوحات الالاهية) مرجعا هاما فى الحديث الشريف .



● أصدرت مجلة (الايمان) عددا ممتازا عن الرائد الوطني الكبير المرحوم محمد المختار السوسي . يتضمن هذا العدد أبحاثا ومقالات عن دور الفقيد فى نشر العلم والمعرفة ومحاربة الاستعمار والاسهام في وضع الاسس الاولى للنهضة في بلادنا .

ومن موضوعات هذا العدد :

– جانب من حياة الرائد محمد المختار السوسي للاستاذ ابو بكر القادري مدير المجلة.

– حياة فقيد المغرب المختار السوسي للاستاذ محمد المنوني.

– أولما رايته وآخر ما ودعته للدكتور عبد الهادي التازي .

– المختار السوسي للاستاذ قدور الورطاسي .

– حياة المختار السوسي في سطور للاستاذ الحاج أحمد معنينو .

– الوحدة في فكر محمد المختار السوسي للاستاذ عبد القادر الادريسي .

– شخصية عالمية متحلية بالاخلاق والاستقامة للاستاذ محمد لحلو .





- المختار السوسي احد رواد النهضة في الحركة السلفية الاصلاحية الحديثة بالمغرب للاستاذ احمد بودهان .

- محمد المختار السوسي قبل النفي الاول للاستاذ محمد ابراهيم الدفالي .

ويقع هذا العدد في 127 صفحة . ويعتبر سجلا حافلا يروي جوانب مهمة من تاريخ المغرب الحديث من خلال ترجمة العلامة محمد المختار السوسي الذي ارتبطت حياته بالكفاح الوطني من اجل **الحرية والاستقلال** وحماية الاسلام والعروبة .

● صدرت في تطوان رواية جديدة للاستاذ محمد الخضر الريسوني بعنوان (رحلة نحو النور) .

وكان الكاتب قد أصدر ثلاث مجموعات قصص، الاولى سنة 1951 بعنوان (أفراح ودموع) والثانية (صور من حياتنا الاجتماعية) سنة 1953 ، والثالثة (ربيع الحياة) سنة 1957 .

ويعد الكاتب من الروائيين المغاربة الذين شقوا للفن الروائي طريقه في حياتنا الادبية . وتمتاز اعماله الثقافية سواء في الاذاعة التي يعتبر من روادها الاوائل او في الصحافة الادبية ، بالجزالة والبساطة والوضوح مع التزام حقيقي بالقضايا الاجتماعية .

وتمثل الرواية الجديدة اتجاها متطورا في ادب محمد الخضر الريسوني .

● أصدر الكاتب الاستاذ أحمد فطري كتابا قيما بعنوان (الادب السياسي عند عبد الكريم غلاب) . وهو بحث جامعي نفيس القيمة رفيع المستوى تقدم به المؤلف الى كلية الآداب بفاس لنيل دبلوم الدراسات الادبية العليا . وقد استوفى المؤلف الموضوع من جوانبه المختلفة ووفق في بسط ملامح الكاتب المغربي الكبير الاستاذ عبد الكريم غلاب كمناضل سياسي ومفكر رائد وصاحب عقيدة ومذهب في الفكر والادب والسياسة والثقافة . وبذلك جاء الكتاب ملبيا لرغبة طالما خامرت المثقفين والدارسين . وهي دراسة ميدانية – ان صح القول – قام بها المؤلف ليسد فراغا كانت تشكو منه المكتبة المغربية . وهكذا تناول الاستاذ احمد فطري شخصية غلاب من الجوانب التالية :

— غلاب السياسي .

— غلاب الاديب .

— الالتزام السياسي عند غلاب الاديب.

— التزام غلاب السياسي في مقالاته :

ا – في عهد الحماية .

ب – في عهد الاستقلال .

— التزام غلاب السياسي في قصصه :

ا – « مات قرير العين » .

ب – « الارض حبيبتي »

جـ – «واخرجها من الجنة»

— التزام غلاب

السياسي في رواياته :

أ ـ « سبعة أبواب » .

ب ـ « دفنا الماضي »

ج ـ « المعلم علي » .

ـ الاديب بين الحرية والالتزام .

وقد مهد المؤلف لدراسته الممتازة بمقدمة مركزة بسط فيها القول حول مفهوم الادب السياسي وماهيته ، ومنها خلص الى بحث اهم العوامل السياسية المؤثرة في حياة غلاب وادبه .

والكتاب في الجملة مرجع هام للادب المغربي الحديث ، جدير بأن يكون زادا لجمهور الطلبة والباحثين ، يستمدون منه عناصر التطور السياسي المتلاحق الذي شهده المغرب من خلال دراسة شخصية أدبية كان لها دورها البارز في سياق هذا التطور .

الامارات العربية :

● اصدرت ادارة البحوث والدراسات الاقتصادية ببنك دبي الاسلامي نشرة علمية اقتصادية شهرية باسم (نشرة الاقتصاد الاسلامي) تصدر في اول كل شهر عربي وتتضمن مقالات واخبارا اقتصادية تتعلق بالتجربة الاسلامية المعاصرة في المجالات الاقتصادية بوجه عام والمصرفية منها بوجه خاص .

مصر :

● يحتفل مجمع اللغة العربية في القاهرة في العام القادم بيوبيله الذهبي لانقضاء خمسين عاما على انشائه . وقد تأسست لجان من أعضاء المجمع لاصدار مجموعة من الدراسات والمعاجم وكتب التراث المحققة ولفهرسة مجلة المجمع من عددها الاول لاخراج هذه الكتب في المناسبة المذكورة .

● **حصل الاستاذ حلمي محمد القاعود على درجة الماجستير في النقد الادبي والبلاغة والادب المقارن من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، وكان عنوان الرسالة : « الخصائص الفنية لمدرسة البيان في النثر الحديث في مصر » وقد نوقشت الرسالة مساء الثلاثاء 16 / 2 / 1982 م واجيزت بتقدير « جيد جدا » واشترك في مناقشتها بالاضافة الى الاستاذ المشرف الدكتور علي عشري زايد كل من الاستاذ الدكتور رجاء جبر من كلية دار العلوم والاستاذ الدكتور طه وادي من كلية الاداب بجامعة القاهرة .**

وفيما يلي ملخص لهذه الرسالة :

تناول هذا البحث للخصائص الفنية لمدرسة البيان في النثر الحديث في مصر وكان نابعا من اقتناع بان هذه المدرسة لم تنل ما تستحق من الدراسة والتقويم وانها قدمت للادب العربي ذخيرة حية من النماذج الادبية الراقية والرائعة بالمقياس العلمي والموضوعي .

ثم ان قلة الدراسات النقدية في مجال النثر الحديث بالمقارنة مع ما لقيه الشعر الحديث من اهتمام وحفاوة ، قد اكدت الاقتناع بضرورة الدخول الى مدرسة البيان واكتشاف عالمها النثر ، ورصد خصائصها الفنية في هذا البحث .

وكان الدليل في التعرف على مدرسة البيان وخصائصها هو النصوص الادبية لابرز اعلام هذه المدرسة، ففي هذه النصوص مجال رحب وفسيح لتتبع الخصائص المتنوعة .. والملامح المميزة والمشتركة ومن خلال التيارات العديدة التي نبتت في دوحة البيان العظيمة .

ويشتمل البحث على ثلاثة أبواب يسبقها تمهيد وتلحقها خاتمة وهو تقسيم يهدف الى توضيح الجوانب المتعددة لمدرسة البيان وخصائصها في اطار من التكامل الذي يحقق للموضوع وحدته وتناغمه .

فقد جاء التمهيد ليتناول أساليب التعبير النثرية في عصر النهضة وما سبقه ثم ما تلاه من أساليب مهدت لقيام مدرسة البيان في النثر الحديث في مصر .

ومن ثم فقد بدا البحث ، « الباب الاول»

- الجذور والثمار - ويضم ثلاثة فصول ، الفصل الاول عن المقدمات التي سبقت مدرسة البيان ومهدت لظهورها. وقد توقف البحث عند مدرسة النثر المسجوع التي تعد صورة منقحة للمقلدين والمحتفين بأساليب البديع والزخرفة اللفظية مع تطور محدود في بعض الموضوعات بحكم الاتصال بالغرب والظروف التي مرت بها مصر آنئذ ، ثم تناول البحث مدرسة الترسل وهي تعد الجذر المباشر لمدرسة البيان.. وكان من اهم أعلامها « الاستاذ الامام محمد عبده » و « عبد الله نديم » وقد كان للاحداث التي مرا بها ثم توجيهات « جمال الدين الافغاني» الاثر الفعال في الخروج بالنثر من الدائرة الضيقة المحدودة الى آفاق ارحب واوسع واغنى ..

وفي الفصل الثاني تناول البحث مفهوم البيان ونشأة المدرسة وقد استعرض البحث مفهوم البيان من خلال نظرة اعلام البيان اليه وتفسيرهم له مع مقارنة بمفهوم البيان لدى بعض النقاد القدامى وتوصل البحث الى مفهوم مشترك او اصول مشتركة للبيان اتفق عليها كتاب البيان ، حتى صار البيان بمفهومهم يشكل مدرسة اسلوبية لها وزنها الكبير في الواقع الادبي ، ويحقق في الوقت نفسه معادلة جديدة توازن بين معالجة الافكار والقضايا ذات الاهمية وبين التعبير الراقي والاداء العظيم .

وخصص البحث الفصل الثالث لتناول المكونات التي اتكأت عليها مدرسة البيان وجهودهم التي بذلوها في تطوير الموقف الادبي ، وقد ارتكزت مكونات المدرسة على أسس من العقيدة الاسلامية والتراث العربي والشخصيات المجددة في العصر الحديث ، والثقافة الاجنبية الجديدة .

وفي الباب الثاني فصلان كبيران أولهما يتناول الخصائص الموضوعية ، وثانيهما يتناول خصائص الفنون الادبية ..

وقد تعرض الفصل الاول لخصائص النثر الاسلامي والنثر السياسي والنثر الادبي، ويمكن القول ان مدرسة البيان قد اعطت للموضوعات التي تناولتها طبيعة حيوية ذات استمرار خاصة فيما يتعلق بالقضايا الانسانية المتصلة بالطبيعة البشرية .

وقد اهتم الفصل الثاني في هذا الباب بالفنون الادبية وخصائصها لدى مدرسة البيان والتي تمثلت في المقالة والرسالة والمرثية والقصة والترجمة .

وبوجه عام فقد شهدت المقالة ابهى فترات ازدهارها على يد مدرسة البيان مما يدل على وعي وفهم جيدين لحركة الواقع وابعاده فضلا عن القدرة المتفوقة في التناول المدعم بالعناصر اللغوية والبلاغية والتاريخية والدينية والاجتماعية والسياسية وغيرها ثم كانت المقالة المحور الاساسي الذي دارت حوله المهارات الفنية لاعلام البيان وبالتالي كان اكثر الانتاج النثري لديهم يتمثل بصفة عامة في المقالة .

اما الرسالة فقد مثلت جزءا لا بأس به في نتاج اعلام البيان والرسائل التي تناولها البحث دلت على قدرتهم في كتابة « الرسالة » من خلال اطار فني جيد وكانت « الرسالة » في مدرسة البيان تهدف الى التعبير الحي من خلال صياغة مبتكرة .

وكانت « المرثية » لدى مدرسة البيان تعبيرا عن ظاهرة ادبية اجتماعية لها مغزاها في ذلك الحين ، وكانت في الوقت نفسه لونا من الاحساس بالترابط الاجتماعي في مواجهة الموت .

ويلاحظ أن بعض الاعلام كانت تنسيه لحظة الموت الحد الادنى من الموضوعية فيجنح الى المبالغة والاسراف العاطفي ، كما ان بعض «المراثي» كانت تتداخل مع الترجمات الادبية للراحلين ، خاصة اذا كانوا كتابا او شعراء ..

اما « القصة » فقد حاول اعلام البيان تأصيلها ، واعتبر البحث بعضهم رائدها الحقيقي من خلال المحاولات التي قدمها تأليفا وتعبيرا ونظرة عامة الى هذا الجنس الادبي توضح ان المحاولات التي قدمتها

.. مدرسة البيان في كتابة القصة كانت على وعي باصوله ومقاييسه الفنية وانها نجحت الى حد ما في تأصيل هذا الفن في مصر عن طريق كتابته او توجيه الشباب اليه .

وفي مجال « الترجمة والتعريب » فقد لعبت مدرسة البيان دورا هاما فيه وقد تركز جهد الاعلام في ميدان القصة والرواية ثم الشعر والمقالة .

ثم يأتي الباب الثالث ويضم خمسة فصول ليعالج التيارات الاسلوبية في مدرسة البيان وخصائصها المشتركة والمتميزة .

وقد انعقد الفصل الاول من الباب الثالث ، ليتحدث عن تيار الصياغة الجميلة – الذي اهتم بالصياغة المعتمدة على صقاء الاسلوب واختيار اللفظة الملائمة والتركيب المتناغم وتحقيق الموسيقى العفوية والتلقائية التي ترفض التكلف وتنفر من الحشو والتقليد .

اما الفصل الثاني فقد تناول تيار « التوليد الذهني » الذي تميز بالاداء الدقيق المحكم ف اطار من الجمال المتفرد واعتمد على التوازن مما لس ذهنية والوعي البلاغي والتراث العريق في اقامة البناء الاسلوبي .

وتناول الفصل الثالث تيار التنسيق التعبيري « الذي يحقق » خصوصية اللفظ وطراقة العبارة . واعتمد في ادائه على يعطي مدلولا يوصل الى قيام التنسيق التعبيري « على اساس من الطبيعة » والتناغم الموسيقي والتقابل في اللفظ والجملة والعبارة والفقرة والموضوع ..

وفي الفصل الرابع تناول التيار « التصوير البياني » ويهتم هذا التيار بتجسيم الافكار ونقلها في صورة حية متحركة وتستعين بالعناصر « الكاريكاتورية » التي تركز على بعض الجوانب التي لها دلالة خاصة ومفهوم معين ..

فضلا عن معطيات اللغة والبلاغة والخيال ، وقد خصص البحث « الفصل الخامس » للحديث عن الخصائص الفنية المشتركة بين مدرسة البيان وهي خصائص تدل على انطلاق مدرسة البيان في ادائها التعبيري من اصول واحدة الى غاية واحدة وتحقيق الوحدة التعبيرية من خلال التنوع في الاداء واساليبه ثم حرص مدرسة البيان ووفائها للغة والمعنى .

وقد جاءت خاتمة البحث تلخص النتائج التي توصل اليها في ايجاز يشير الى اهم النقاط الاساسية لهذه النتائج والخطوات التي ادت اليها .



فهرس العدد 3 . السنة 23

الصفحة

مطبعة فضالة . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3

بقية ليل

للأستاذ حسن الطريبق

الزحام الذي على الماء دارا   رام وردا ولم يرم اصدارا
كنت فيه ولم ابارحه الا   خطوة ، بعدها رايت الجدارا
لم أعد استطيع منه انطلاقا   في البراري او استطيع انتظارا
وقفت بي خطاي بين المغازي   والدجى مقبل يغطي النهارا
لا السرى مسعف اذا ما دجا اللـ   ـيل والقى على المدى استارا
وصدى الذكريات يحمل قلبي   بين كفيه اغنيات حيارى
ما توالت الا لتعلن ما بي   في ثنايا حشاشتي قد توارى
اين أرتاح من تلدد نفسي   من ترى بي يهدىء الاعصارا ؟
طوحت بالرضى السآمة حتى   مزقت في قيثارتي الاوتارا
اين تلقي به وقد اسكتت ـ من   بعد شدو عذب اللحون ـ الهزارا ؟
غرقت في مدى الظنون مناجا   تي ولما تطق به ابحارا
ما اجتلى النور عبر ليلي الا   شاحب اللون لا يود انتشارا
ايعود الربيع بعد خريف   ويغني هزاره الاشعارا ؟
الصبابات ما تجدد منها   غير ما كان لا يؤجج نارا
انا في خلوتي اعب من الصبـ   ـوة في طول امسياتي جرارا
ذبلت روعة العيون وقد عا   د البريق الذي بها مستعارا
لا يدب الحنين في نبضاتي   مسرع الخطو ينشر الازهارا
انتقي من حشاشتي كل ما جا   ل بها واصطفيته ايثارا
واغني الذي بها ، وهو نبض ،   بارحته المنى وشط مزارا
فكأني به بقية ليل   لم يعد بعدها النهار نهارا

العرائش : حسن الطريبق

أعداد السنة 22 من مجلة "دعوة الحق"











